شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى ـ كلية الآداب جامعة القاهرة

من الحقائق المسلم بها فى تاريخ العصور الوسطى ، أن الانتصارات الكبيرة والمكاسب الضخمة التى حققها الصليبيون فى الشرق الأدنى غداة وصولهم اليه أول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر ، لم يكن مردها قوة خارقة أو شجاعة نادرة أبداها الغزاة ، بقدر ما كان مردها ضعف القوى الاسلامية فى المنطقة ، ووقوعها مع بعضها البعض فى منازعات وخلافات مكنت الأعداء عندئذ من النفاذ الى صميم بلادهم والاستقرار بالشام نحوا من قرنين من الزمان .

والحق ان سببا أساسيا من أسباب ضعف المسلمين فى الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر كان ازدياد الخلاف بين السنة والشيعة ، وهو الخلاف الذى خلق صداما فكريا ، وأوجد صراعا روحيا ، وولد بعثرة وفرقة سياسية بين المسلمين بعضهم وبعض ـ وخاصة فيما بين الفرات والنيل ـ ؛ واذا بنا أمام جبهتين متعاديتين ، ربما فضلت احداهما محالفة العدو الدخيل على المسلم الخارج عن مذهبها . وقد اشتدت الفتن المذهبية بين الشيعة والسنة فى العراق ـ وخاصة بغداد ـ طوال القرن الحادى عشر للميلاد ، وجاء كثير منها مصحوبا بالقتل والنهب والفوضى ، الأمر الذى زاد من خطورته انضمام بعض الأمراء وكبار رجال الدولة الى هذا الجانب أو ذاك ، من الجانبين المتنازعين[1] . ولم تقتصر هذه المنازعات والخلافات المذهبية على العراق ، وانما امتدت الى مصر ، التى لم تكن « تخلو من الفتن فى يوم عاشوراء عند قبر كلثم وقبر نفيسة بنت الحسين ابن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب »[2] .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٣ ، ص ٣٦٧ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٩ ، ص ١٥ ، ٢٦

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٩٨

واذا كان الخلاف قد ظهر فى صورة واضحة داخل الدولة العباسية السنيّة فى العراق ، وداخل الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر ، فانه كان لا بد وأن يظهر بالشام فى صورة صدام عنيف بين الخلافتين العباسية والفاطمية . ذلك أن بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافى تعتبر حلقة الوصل بين مصر والعراق . وقد جاء ضعف الخلافة العباسية فى بغداد مصحوبا بانحسار نفوذها عن كثير من البلاد ومن جملتها بلاد الشام ، وحدث ذلك فى الوقت الذى استولى الفاطميون على مصر فى القرن العاشر للميلاد ، وأخذوا يتطلعون الى بلاد الشام ، بل الى العراق نفسه لمنازعة الخلافة العباسية زعامتها على العالم الاسلامى(١) . وصحب امتداد النفوذ الفاطمى الى الشام انتشار المذهب الشيعى ، وظهور جماعات منهم بين ربوع الشام ، مثل الحاكمية والآمرية والدروز(٢) . ولم تلبث أن غدت بلاد الشام هى الأخرى مسرحا للمنازعات بين الشيعة والسنة ، فيحكى أبو المحاسن أن الناس فى دمشق تألموا عندما أذن المؤذنون فيها بحى على خير العمل ، تنفيذا لأوامر جعفر بن فلاح ، قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، كما هاجم القرامطة الشام سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) ، مما جعل البلاد مسرحا للقتال والفتن(٣) .

ومهما يكن من أمر هذه الأحداث ، فالذى يهمنا هو أن هذا الانقسام جاء على حساب وحدة الجبهة الاسلامية ، وعلى حساب تماسك بناء المسلمين فى الشرق الأدنى ، الأمر الذى جعل الأمور ممهدة أمام الصليبيين لغزو الشام فى سهولة ، والاستقرار فيه طويلا دون صعوبة . وزاد من تسهيل مهمة الصليبيين أن الخلافة الفاطمية التى مدت نفوذها الى الشام فى قوة وجرأة أواخر القرن العاشر للميلاد ، هذه الخلافة لم تلبث أن تعرضت للضعف والخور فى القرن الحادى عشر ، مما أعجزها عن الاحتفاظ بمكاسبها فى بلاد الشام ، فأخذ نفوذها ينحسر تدريجيا عن تلك البلاد . والمتأمل فى تاريخ الدولة الفاطمية يستطيع فى سهولة أن يلمس ما انتابها من ضعف على عهد الخليفة المستنصر بالله (١٠٣٥ — ١٠٩٤) نتيجة لانخفاض النيل واشتداد الغلاء وانتشار الوباء ، وهو ما يعرف

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطمية الخارجية ، ص ١١١ ، ١٦٣

(٢) الأنصارى الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٠٠

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ص ٥٨

باسم الشدة المستنصرية العظمى ، وما صحب ذلك من اضطراب جهاز الحكم وكثرة ثورات الجند[١] .

وفى ذلك العهد بالذات انسلخ عن الدولة الفاطميـــة كثير من ممتلكاتها بالشام . ففى سنة ١٠٧٠ ، أعلن قاضى صور – ابن أبى عقيل – خروجه عن طاعة الفاطميين واستقلاله بمدينة صور ، واستنجد بالسلاجقة للوقوف فى وجه محاولات أمير الجيوش بدر الدين الجمالى لاخضاعه[٢] . ولم يتمكن الفاطميون من استرداد صور من بنى عقيل الا سنة ١٠٨٩[٣] . أما قاضى طرابلس – الحسن ابن عمار – فقد انفصل عن الفاطميين أيضا سنة ١٠٧٠ ، وأقام امارة مستقلة فى طرابلس ، ظلت قائمة حتى استولى الصليبيون على تلك المدينة سنة ١١٠٩ . وفى سنة ١٠٧١ ، استولى أتسز بن أوق – أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان – على الرملة وبيت المقدس وفلســـطين بأكملها عدا أرسوف ؛ كما استولى سنة ١٠٧٥ على دمشق والمنطقـــة المحيطة بها[٤] . وهكذا وصل الصليبيون الى الشام أواخر القرن الحادى عشر ليجدوها ميدانا لصراع حاد بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة .

وثمة حقيقة هامة تواجه كل من يدرس تاريخ الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، هى أن دور الدولة الفاطمية فى تلك الحركة لم يحظ حتى الآن بالقدر الكافى من عناية الباحثين . وفى رأينا أن مرجع هذه الحقيقة عدة أسباب . أولها : أن الحملة الصليبية الأولى وصلت الى الشرق الأدنى فى نهاية القرن الحادى عشر ، وقد أخذت الخلافة الفاطمـــية تدخل فعلا فى الدور الثانى من أدوار تاريخها ، وهو الدور المتسم بالضعف فى الداخل والخارج ، والذى سيطر فيه الوزراء العظام على شئون الخلافة . وهذا الدور بالذات يمثل صفحة قاتمة لم تحظ كثيرا بعناية المؤرخين بقـــدر ما حظى به الدور الأول من تاريخ الدولة الفاطمية ، وهو الدور المتصف بالقوة والعظمة والثروة وامتداد النفوذ وسعة

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ١٨ – ٢٤
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢٨ ، ابن ميسر : اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٢٨
(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ – ٩٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٨٧

السلطان . وعلى هذا فان اهمال العناية بجهود الفاطميين فى الحروب الصليبية ، انما هو فى حقيقة الأمر مظهر من مظاهر الاهمال العام الذى تعرض له تاريخهم فى دوره الأخير . وثانيها : أن الحروب الصليبية فى الشام ظلت أحداثها الكبرى الرئيسية ترتبط حتى سقوط الدولة الفاطمية بشمال الشام لا بجنوبه . وسبب ذلك أن المقاومة الأساسية التى صادفها الصليبيون فى الدور الأول من أدوار الحركة الصليبية جاءت من جانب السلاجقة فى شمال العراق والأتابكيات التابعة لنفوذهم فى الموصل وحلب ، الأمر الذى ألقى ظلا حجب وراءه النشاط الصليبى الذى نهضت به الدولة الفاطمية ، فضلا عن طمس دور الدولة الفاطمية فى مقاومة امتداد النفوذ الفاطمى فى ذلك الاتجاه . وثالثها : أن مصر فى العصر الفاطمى لم تصبح مسرحا أساسيا لنشاط الصليبيين فى القرن الثانى عشر للميلاد الا فى االأحداث التى ارتبطت بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، الأمر الذى جعل الباحثين يعتبرون ذلك الدور من أدوار الحركة الصليبية أكثر ارتباطا بنشأة الدولة الأيوبية الوليدة منه بالدولة الفاطمية المتداعية .

هذه هى العوامل الأساسية التى نعتقد أنها حجبت عن أعين الباحثين الدور الهام الذى أسهمت به الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية . ولعله قد آن الأوان لكشف النقاب عن هذا الدور وعلاج موقف الخلافة الفاطمية من الحركة الصليبية علاجا متكاملا مترابطا منذ وصول الحملة الصليبية الأولى الى أطراف الشام فى أواخر القرن الحادى عشر ، حتى سقوط الخلافة نفسها سنة ١١٧١ .

ولفهم حقيقة هذا الدور ينبغى أن ندرك العوامل الخفية التى تحكمت فى نشاط الدولة الفاطمية تجاه الصليبيين ، ووجهت هذا النشاط ؛ وهى عوامل نستطيع أن نلخصها فيما يلى :

أولا : انشغال حكام مصر فى العصر الفاطمى الثانى بسوء الأوضاع الداخلية ، اذ بدت الدولة الفاطمية فى ذلك العصر وكأنها غرقت فى بحر لجى من الفوضى بسبب الأزمات الاقتصادية وانتشار الأوبئة من ناحية ، والصدام بين المسلمين وطوائف المسيحيين الذين استعان بهم بعض الخلفاء من ناحية أخرى ؛ ثم بين الخلفاء الفاطميين ووزرائهم أو بين المتنافسين حول منصب الوزارة من ناحية ثالثة .

ثانيا : تحكم روح العداء بين الفاطميين فى مصر والسلاجقة بالشام ـ وخاصة حكام دمشق ـ ، وهو العداء الذى جعل الفاطميين الشيعة ينظرون دائما الى سلاجقة الشام نظرة شك وريبة ، بل خوف وتحفز . واذا كان الفاطميون قد بذلوا جهودا ضد الصليبيين بالشام ، فان الباحث فى تلك الجهود يلمس حقيقة هامة ، هى أن الفاطميين نظروا دائما الى الصليبيين بعين ونظروا الى السلاجقة بالعين الأخرى . الأمر الذى لم يوفر للفاطميين شيئا من قوة التركيز المادى والمعنوى فى مواجهتهم للصليبيين .

ثالثا : أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم لم يتحمسوا فى ذلك الدور لفكرة جهاد الصليبيين ، بل على العكس ربما رأى بعض أولئك الخلفاء فى الصليبيين درعا يحميهم من خطر السلاجقة السنيين . واذا كانت حركة الافاقة واليقظة لجهاد الصليبيين قد تأججت أحيانا فى الدولة الفاطمية ، فان زعماء هذه الحركة كانوا من الوزراء وليس الخلفاء . ومن أمثلة وزراء الدولة الفاطمية الذين تزعموا هذه الحركة ، الأفضل ورضوان بن الولخشى وابن السلار .

رابعا : اتصفت الأعمال الحربية التى قامت بها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين فى ذلك الدور بسوء النظام والاهمال وعدم تقدير خطورة الموقف ، وهى النواحى التى ظهرت بوضوح فى الخلافات بين قادة الجيش الفاطمى ، فضلا عن سلوك قادة الأسطول وحكام القواعد الفاطمية بالشام .

والواقع أن الخلافة الفاطمية لم تدرك طبيعة الحركة الصليبية عند وصول الحملة الصليبية الأولى الى أطراف بلاد الشام سنة ١٠٩٧ . وربما كان عدم فهم طبيعة هذه الحركة هو الذى جعل الدولة الفاطمية تتخبط فى سياستها تجاه الصليبيين فى أول الأمر ، بسبب عدم ادراكها حقيقة نواياهم . وكان صاحب السلطة الفعلية فى مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى ، الذى ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ — ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من عهد الخليفة الآمر ، أى حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم ادراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية فى أنه عندما سمع بأن الصليبيين الذين وصلوا الى الشام اشتبكوا مع الأتراك السلاجقة ـ أعداء الدولة الفاطمية الألداء ـ فكر الأفضل فى أن يقيم تحالفا بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية

للصليبين وتكون بيت المقدس للفاطميين[١] . وربما استند الوزير الأفضل فى تفكيره هذا الى بعض السوابق التاريخية ، لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها فى القرن العاشر لم تتعد أملاكها فى بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين انما أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر ليفعلوا فى بلاد الشام مثلما فعل الامبراطور نقفور فوقاس والامبراطور حنا الشمشقيق فى القرن العاشر[٢] .

وكان أن أرسل الأفضل سفارة الى الصليبيين وصلتهم وهم أمام أنطاكية (يناير — فبراير ١٠٩٨) . ويبدو أن هذه السفارة كانت تحمل عرضا محددا ، خلاصته أن يتعاون الطرفان فى القضاء على السلاجقة ، على أن تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما ، بحيث يكون القسم الشمالى من شمال الشام (سوريا) للصليبيين ، فى حين يحتفظ الفاطميون بالقسم الجنوبى (فلسطين)[٣] . ولعل أخبار هذا الاتصال السريع بين الفاطميين والصليبيين سنة ١٠٩٨ ، هى التى جعلت بعض المسلمين المعاصرين يظنون أن الخلافة الفاطمية هى التى أرسلت الى الصليبيين تستدعيهم الى الشام لمهاجمة السلاجقة ، أو يكونوا حاجزا فاصلا بين السلاجقة من ناحية والدولة الفاطمية من ناحية أخرى . ويعبر المؤرخ ابن الأثير عن ذلك بقوله : « وقيل ان أصحاب مصر من البلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام الى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الاقسيس (أتسز) الى مصر وحصرها ، خافوا ، فأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين ![٤] » .

ومن ناحية أخرى ، فان هناك فى المراجع ما يشير الى أن الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية فى طريقهم الى الشرق — (سنة ١٠٩٦ — ١٠٩٧) — بأن يحاولوا محالفة الفاطميين فى مصر ، ليكونوا لهم عضدا ضد السلاجقة فى الشام وشمال العراق . ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة فى ذلك الوقت ،

---

(١) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 26.

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, Tome I, p. 83.

(٣) Setton : A History of the Crusades, vol. 1, p. 316.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٠ هـ . ويقصد ابن الأثير بالمسلمين فى ختام عبارته ، أهل السنة .

الا أن بعض المراجع الصليبية أشارت الى أنهم أرسلوا من نيقية سفارة الى مصر[١] . ومهما يكن فى هذه الاشارة من الواقع ، فالذى يهمنا هو أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الامبراطور البيزنطى ، مما جعلهم يرحبون بالسفارة التى أرسلها اليهم الأفضل فى أوائل سنة ١٠٩٨ وهم أمام أنطاكية[٢] . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الاسلامى على نفسه فى ذلك الدور ، بين سنة وشيعة ، وعرب وترك ؛ وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعا ، الأمر الذى مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع .وتصور لنا المصادر الصليبية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدى الصليبيين[٣] .

والواقع أن الموقف السلبى الذى وقفته الخلافة الفاطمية من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها الى شمال الشام ، أثار حيرة المؤرخين المسلمين ، فيعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين ، وعدم مشاركتهم القوى الاسلامية التى نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، ويقول فى ذلك : « ولم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر ، وما أدرى ما كان السبب فى عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال ...! » . ثم يسترسل أبو المحاسن فيشرح كيف خرجت عساكر المسلمين فى العراق والشام لصد زحف الصليبيين « كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ للخروج ... »[٤] على أن الاجابة على هذا التساؤل واضحة ، هى أنه اذا كان الأفضل قد قرر أن يعمل ، فان القرار الذى اتخذه بالعمل كان موجها ضد السلاجقة لا ضد الصليبيين . فلا أقل من أن ينتهز الأفضل فرصة انشغال السلاجقة بالتيار الصليبى الذى دهم شمال الشام ليسترد البلاد والمراكز التى كانت فى وقت ما تحت سيطرة الخلافة الفاطمية . وعلى هذا الأساس اختار الوزير الأفضل أن يعمل فورا . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور «بالسيف» فى ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراتقة ، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ ،

---

(١) Runciman : Hist. of the Crusades, I, p. 230 &
Michaud : Hist. des Croisades, I ; p. 362.

(٢) Riant : Inventaire des Lettres des Craisades, I, p. 162.

(٣) Guillaume de Tyr ; I, p.p. 191 - 192.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ — ١٤٨

وترك ذلك للوقت المناسب[1] . ولم يلبث أن حان ذلك الوقت المناسب فى صيف سنة ١٠٩٨ — والصليبيون ما زالوا فى منطقة أنطاكية — فخرج الأفضل على رأس جيوشه واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكمان (سقمان) الأرتقى ، وأخيه ايلغازى فى أغسطس ١٠٩٨[2] . وبذلك عادت سيادة الدولة الفاطمية مرة أخرى على فلسطين ، بحيث لم تكد تنتهى سنة ١٠٩٨ ، الا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت الى نهر الكلب شمالا ومجرى الأردن شرقا[3] .

وقد صح حساب الأفضل فى أول الأمر ، لأن الأتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبى واقامة جبهة فى الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من ارسال نجدة لأقربائهم فى بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفى الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التى اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكا للاتراك السلاجقة فى أشد الأوقات حرجا[4] . هذا فضلا عن أن السفارة التى أرسلها الفاطميون الى الصليبيين عند أنطاكية ، أكسبت أولئك الأخيرين وضعا سياسيا معترفا به فى ركن هام من أركان العالم الاسلامى . وهكذا أخذ الصـــليبيون يلعبون دورهم فى مهارة فائقة ، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة فى نفوس الفاطميين ، واعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم فى بلاد الشام ، وانما حاولوا أيضا أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق ، فأرسلوا اليهم يطمأنونهم الى أنهم لا يطمعون الا فى استرداد الأماكن والبلدان التى كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى ، أى الرها وأنطاكية واللاذقية !![5] .

على أن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت ، ورأى الفاطميون أن الغزاة الصليبيين لم يقفوا عند حد الاستيلاء على أنطاكية وغيرها من المراكز فى شمال الشام ؛ وانما أخذوا يوغلون فى جنوب الشام صوب فلسطين ، وعندئذ أرسل الفاطميون الى الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين يسألونه عما اذا كانت تلك الحركة

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠.
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ،
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥
(٣) Setton : op. cit. ; I ; p. 316.
(٤) Grousset : op. cit., I ; p.p. 84 - 85.
(٥) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ .

تعمل لحسابه ، فأنكر الامبراطور علاقته بها[١] . وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسى للصليبيين ، أرسل اليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين ، كما تحمل لهم عرضا من الخليفة الفاطمى ، خلاصته السماح لحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، على شكل مجموعات من مائتى أو ثلثمائة حاج ، بشرط ألا يكونوا مسلحين[٢] . ولكن الصليبيين ردوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا ، ولكن باذن الله وليس باذن الخليفة الفاطمى[٣] !! وكان معنى ذلك بداية الصدام المسلح بين الفاطميين والصليبيين من أجل بيت المقدس .

وهنا نلاحظ أنه اذا كان الفاطميون قد بسطوا سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب ، الا أنهم — فيما يبدو — لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم والمحافظة على مكاسبهم فى تلك الجهات ، وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الساحلية التى ظل الأسطول الفاطمى قادرا على امدادها بالرجال والزاد من ناحية أخرى[٤] . وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا طرابلس فى طريقهم الى بيت المقدس . وعندما وصل الصليبيون الى الرملة ، وجدوها خالية ، بعد أن هجرها أهلها ، فعقدوا فيها مجلسا للحرب فى أوائل سنة ١٠٩٩ ، ناقشوا فيه عدة مسائل ، أهمها الرأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين فى مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا فى القاهرة ، وأنه اذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة فى بيت المقدس ، فعليهم أن يؤمنوا ظهرهم بالاستيلاء على الدلتا[٥] . ولكن اذا كان الصليبيون قد استطاعوا أن يضعوا هذه الفكرة موضع التنفيذ فى القرنين الثانى عشر والثالث

---

(١) Runciman : op. cit. ; I, p. 272.

ويلاحظ أن سوء التفاهم بين الامبراطورية البيزنطية والصليبيين تحول الى عداء بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية ، مما جعل الامبراطور البيزنطى يحرض المسلمين أحيانا ضد الصليبيين .

(٢) Michaud : op. cit., I, p.p. 362 - 363

(٣) Guillaume de Tyr ; I, p.p. 305 - 306.

(٤) Runciman : op. cit. I, p. 275.

(٥) Raymond d'Agiles, p. 299.

عشر ، فانهم كانوا فى أواخر القرن الحادى عشر ــ وقبل الاستيلاء على مدينة بيت المقدس بالذات ــ فى موقف لا يمكنهم من الاقدام على غزو مصر .

ولم يلبث أن زحف الصليبيون على بيت المقدس ، فى الوقت الذى كان حاكم المدينة من قبل الوزير الأفضل ــ وهو افتخار الدولة [1] ــ قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار وقطع موارد الماء وأخفى المواشى [2] ، فضلا عن اهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمدا فى الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان [3] . ومع ذلك فقد سقطت بيت المقدس فى أيدى الصليبيين فى منتصف يوليو ١٠٩٩ ، وكان افتخار الدولة ــ حاكم المدينة الفاطمى ــ من جملة القلائل الذين « بذل لهم الفرنج الأمان » وسمحوا لهم بالخروج الى عسقلان [4] .

والواقع ان الخلافة الفاطمية لم تتخاذل أمام الصليبيين عندما علمت بنواياهم للهجوم على بيت المقدس . وكان أن جمع الوزير الأفضل رجاله وخرج من مصر ليحول دون استيلاء الصليبيين على أولى القبلتين وثانى الحرمين ، ولكنه وصل عسقلان فى أوائل أغسطس « وقد فات الأمر » ؛ أى بعد أن استولى عليه الصليبيون بعشرين يوما [5] . وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد فى وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله الى عسقلان سوى أن يرسل « رسولا الى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه !! [6] » .

ويبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديرا فى ميدان الحرب بقدر ما هو معروف عنه من مهارة فى ميادين السياسة والادارة ، اذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله الى عسقلان أضاع وقتا ثمينا « ينتظر الأسطول فى البحر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٤٩٢ هـ ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ١٤٨

(٢) Gesta Francorum, p. 199 & Raymond d'Agiles, p.p. 293 - 294.

(٣) Foucher de Chartres (Hist. Occid, III) p. 359.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧

(٦) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٤٣٦ . (Rec. Hist. Orient. III).

والعرب[١] » . وفى الوقت الذى كان الأفضل منتظرا فى عسقلان ، اكتشف الصليبيون أمره ، فبادروا بالهجوم لأنه خير وسائل الدفاع[٢] . وما كاد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة فى عاشر أغسطس ، حتى أخذوا يزحفون جنوبا فى اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير[٣] . وفى المعركة التى دارت بين الطرفين فى ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين ، وتشتت شملهم بعد قليـــل ، حتى أن بعضهم لم يجد مفرا سوى البحر فألقوا بأنفسهم فى اليم حيث غرقوا ، فى حين احتمى البعض الآخر « بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه » . أما الوزير الأفضل فقد هرب الى عسقلان ومعه بعض رجاله ، ومنها ركبوا سفينة فى البحر قاصدين مصر[٤] .

ومن الواضح أن النصر المعنوى والأدبى الذى حققه الصليبيون فى عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التى غنموها[٥] . ذلك أن انتصارهم فى عسقلان قضى على هيبة الفاطميين فى الشام ، فقبعوا فى مصر يشاهدون مدن فلسطين وهى تتساقط واحدة بعد أخرى فى قبضـــة الغزاة[٦] . وأكبر مثل على استكانة الفاطميين فى ذلك الدور موقفهم فى الدفاع عن أرسوف . ذلك أن الأمير جودفرى دى بوايون أخذ يشن من الرملة غارات عدوانية على ضواحى أرسوف لاجبار أهلها على الاستسلام . وقد استطاع الصليبيون أن يظفروا فى فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالى أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمى فى مزارعهم القريبة، فانتقم الصليبيون من أسرى المسلمين انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[٧] . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية فان أهلها أرسلوا سفارة عاجلة الى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، وعندئذ اكتفى الأفضل بأن بعث اليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندى . ولم تلبث هذه القوة الفاطمية أن وقعت فى كمين

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ص ٥٢٠ . (Rec. Hist. Orient. III)

(٢) Stevenson : op. cit., p. 35.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٤

(٥) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 297.

(٦) Grousset : op. cit. I, p. 175.

(٧) Idem ; p. 182.

نصبه الصليبيون فى مارس سنة ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، فدخلوا فى تبعية الصليبيين[١] . كذلك تأكد حكام عسقلان وقيساريه وعكا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فأعلنوا تبعيتهم للصليبيين ، وتعهدوا بدفع جزية كبيرة لهم رمزا لهذه التبعية[٢] . وفى عام ١١٠١ استولى بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس على أرسوف ثم على قيسارية[٣] .

على أن استكانة الفاطميين ، والجمود الذى انتابهم عقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين لم يستمر طويلا ، فقام الوزير الأفضل بارسال ثلاث حملات كبيرة الى فلسطين سنة ١١٠١ وسنة ١١٠٢ وسنة ١١٠٥ . أما الحملة الفاطمية الأولى سنة ١١٠١ فكانت بقيادة المملوك سعد الدولة القواس . وقد تجمعت هذه الحملة فى عسقلان التى صارت بمثابة مركز انطلاق جميع الحملات التى خرجت من مصر ضد الصليبيين فى تلك المرحلة . على أن تلك الحملة أضاعت كثيرا من الوقت فى عسقلان ، فقضى الجيش الفاطمى عدة أشهر بلا عمل ، ربما فى انتظار امدادات جديدة تأتيه من مصر ، مما أتاح فرصة كافية لبلدوين استعد فيها وجمع قواته ووضع خطته[٤] . وأخيرا تحركت الجيوش الفاطمية فى أوائل سبتمبر بعد أن وصلتها الامدادات المطلوبة ، فاتجهت الى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس . وفى الموقعة التى دارت بين الفاطميين والصليبيين فى السهل الواقع الى الجنوب الغربى من مدينة الرملة ، انتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفهم واحكام خطتهم ، وقتل من المسلمين عدد كبير من بينهم قائد الحملة الفاطمية سعد الدولة القواس ، فى حين فر بقية الجيش الفاطمى مندحرا الى عسقلان[٥] .

ولم يستطع الوزير الأفضل صبرا على الهزيمة التى حلت بجيوشه على أيدى الصليبيين ، فأسرع الى اعداد حملة أخرى كبيرة من العرب والسودان ،

---

(١) Albert d'Aix, p.p. 513 - 514.

(٢) Idem ; p. 515.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٥ ص ١٦٧

(٤) Stevenson : op. cit. p.p. 44 - 45.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ ، Albert d'Aix, p. 553.

واجتمعت هذه الحملة التى بلغت عشرين ألف رجل فى عسقلان فى منتصف مايو ١١٠٢ تحت قيادة شرف المعالى ابن الوزير الأفضل[١] . وقد اتبعت هذه الحملة نفس الطريق الذى سلكته الحملة السابقة ، فاتجه الجيش الفاطمى من عسقلان الى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك اتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس. وكان الملك بلدوين الأول قد اتخذ اهبته ، فحشـــد فى يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بانتصاره السابق ، واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس فى ١٧ مايو فى قلة من الفرسان تبلغ مائتى فارس ، قاصدا الرملة[٢] . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله فى غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم مباغت من جانب المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشرذمة من الصليبيين ليست الا مقدمة لجيش صليبى كبير آت فى أعقاب الملك ، فاختاروا أن يباغتوا الملك ورجاله فورا قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن فى استطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الاسلامية « فانهزم الفرنج وقتل منهم مقتله عظيمة »[٣] . وفر بعضهم الى يافا ، فى حين لجأت البقية الباقية ــ ومن ضمنهم الملك بلدوين نفسه ــ الى الرملة[٤] .

على أن الرملة كانت مدينة صغيرة ضعيفة التحصين . ولو أسرع الفاطميون لاستولوا عليها ودخلوها فى غير عناء ليقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس الصليبى ، ولكن غروب الشمس وانتشـــار الظلام جعلهم يؤجلون ذلك حتى الصباح التالى[٥] . على أن بلدوين استطاع الفرار من الرملة ليلا ، وبذلك أفلت من قبضة الفاطميين الذين أخـــذوا يطاردونه فى سرعة ، بعد أن استولوا على الرملة وأسروا وقتلوا من فيها من الصليبيين[٦] . ولم تلبث أن حاصرت الجيوش الفاطمية يافا ، فى الوقت الذى كانت مطاردة بلدوين تجرى على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين ــ وهو فى طريقـــه الى يافا ــ خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، اتجه نحو أرسوف ــ شمالى يافا ــ فى ١٩ مايو سنة ١١٠٢[٧] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٢) Grousset : op. cit. ; I, p. 230.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٤) Albert d'Aix, p. 593.

(٥) Setton : op. cit. vol. I ; p. 365.

(٦) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ & Foucher de Chartres ; p. 402

(٧) Albert d'Aix, p. 595.

وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، فى حين استطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحقت به كثير من الامدادات الصليبية[١] . وشاءت الصدف أن تصل الى ميناء يافا فى أواخر شهر مايو مائتى سفينة ، تحمل عددا كبيرا من الجند والحجاج الانجليز ، وشقت هذه السفن طريقها الى الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمى ، وبذلك حصل بلدوين فى يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة . وفى ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ؛ وما هى الا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون — بفضـــل تنظيمهم — فى انزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التى ولت الأدبار نحو عسقلان[٢] .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالى أسرع بارسال حملتين ، احداهما برية تألفت من أربعة آلاف فارس تحت قيادة المملوك تاج العجم ، والأخرى بحرية برئاسة القاضى ابن قادوس[٣] . ولكن الشىء الذى كان يفتقده الفاطميون عندئذ لم يكن كثرة الرجال وانما روح النظام والتعاون واحكام الخطط الحربية ؛ اذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس ، وقال له : « ما يمكننى أن أنزل اليك الا بأمر الأفضل . ولم يحضر عنده ولا أعانه . فأرسل القادوس الى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما ، واستدعى تاج العجم فلم يأته ، ولا أرسل رجلا »[٤] . وهكذا آثرت الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا الانسحاب ، وخاصة بعد أن وصلت الى الصليبيين نجدات قوية . وفى وسط تلك المحنة ، طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ، ولكن دقاق « اعتذر عن ذلك ولم يحضر »[٥] . وفى هذا ما يعطينا فكرة عن مدى ما كان بين حكام دمشق وحكام مصر عندئذ بسبب الخلاف المذهبى .

---

(١) Michaud : op. cit: II, p. 30.

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٣) Foucher de Chartres, p.p. 404 - 405 & Guillaume de Tyr, p. 435.

(٤) المرجع السابق .

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث ٤٩٦ هـ . (Rec. Hist. Or. p. 464).

ولا شك فى أن هذه الاشتباكات كشفت للصليبيين عن حقيقة أمر الدولة الفاطمية ومدى انحلالها فى ذلك الوقت ، الأمر الذى جعل الصليبيين يطمعون فى الاستيلاء على بقية موانى فلسطين العربية — مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت — وكلها كانت تابعة للفاطميين[١] . حقيقة ان سيطرة الفاطميين على هذه الموانى صارت شكلية ؛ ولكن من يدرى ، فربما صارت سيطرتهم فعلية فى المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغلها الفاطميون فى طعن مملكة بيت المقدس فى الصميم عن طريق قطع الشريان الذى يربطها بالغرب الأوربى . ومثال ذلك ما حدث فى شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت على شاطىء الشام بعض سفن تحمل حجاجا عائدين الى الغرب الأوربى ، فأسرت السلطات الفاطمية فى صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظمهم فى أسواق الرقيق بالقاهرة[٢] ، لذلك شرع الملك بلدوين الأول يحاصر عكا فى ربيع سنة ١١٠٣ « وضيق عليها وكاد يأخذها » . ولكن عكا — كما هو معروف عنها فى جميع عصور التاريخ — من أحصن موانى الشام . ولم تلبث أن وصلتها «النجدات من سائر السواحل» ؛ وجاءت اليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، الأمر الذى جعل الملك بلدوين يرفع الحصار عن عكا لافتقاره الى القوة البحرية . وفى ربيع سنة ١١٠٤ وصلت الى الشام عمارة جنوية تتألف من عدد كبير من السفن ، فاستعان بها الملك بلدوين فى مهاجمة عكا فى أواخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمى — زهر الدولة الجيوشى[٣] — الذى تقول عنه المراجع أنه « قاتل حتى عجز » . ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذى فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتى البر والبحر ، فاضطر الى التسليم « وملك الفرنج البلد بالسيف قهرا »[٤] .

وبسقوط عكا حرم الأسطول الفاطمى من أهم قواعده بالشام ، وصارت للصليبيين السيادة على شواطىء فلسطين . ولا شك فى أن خسارة المسلمين كانت فادحة بضياع عكا . ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف

---

(١) Grousset : op. cit. I, p. 239.

(٢) Albert d'Aix ; p.p. 600 - 601.

(٣) اسمه بنا ، ويلقب بالجيوشى نسبة الى ملك الجيوش الأفضل .

(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٧ هـ ؛ قارن رواية ابن الأثير بما ذكره أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٨٨

عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانى الشام التى أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الصليبيين . من ذلك ما يقوله أبو المحاسن عن الخليفة الآمر الفاطمى أنه كان « يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد ... وكان فيه تهاون فى أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب الســـواحل وحصونها فى أيامه ... ولم ينهض لقتال الفرنج البتة ؛ وان كان أرسل مع الأسطول عسكر فهو كلا شىء[١] » .

أما عن الوزير الأفضل فيبدو أنهلم يتخل عن فكرة ارسال حملة كبيرة من مصر لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة فى هذا الصدد ، فجمع فى صيف سنة ١١٠٥ بعسقلان جيشا كبيرا بلغ خمسة آلاف جندى من المصريين والسودان فضلا عن الفرسان العرب ؛ ووضع ذلك الجيش تحت امرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين[٢] . وفى الوقت نفســـه استعد الأسطول الفاطمى لمساندة الجيش من ناحية البحر . ولم يتردد الوزير الأفضل فى طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين ، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشـــيعة ، فعرض على طغتكين ــ الذى آلت اليه السلطة فى دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدين تتش فى صيف ١١٠٤ ــ أن يساعده فى قتال العدو المشترك . وفعلا استجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل اليهم أحد رجاله ــ واسمه أصبهبد صباوا ــ ومعه ألف وثلثمائة فارس . وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون فى مصر والشام ضد الصليبيين[٣] . ولكن حدث فى المعركة التى دارت بين الصليبيين والمسلمين فى أواخر أغسطس سنة ١١٠٥ أن أظهر الصليبيون تفوقهم مرة أخرى ، فانتهت المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين . أما الأسطول الفاطمى فقد قفل راجعا الى صور وصيدا وطرابلس ، ولكنه تعرض بعد ذلك ــ أثناء عودته الى مصر ــ لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانى الصليبية ، فأسرها الصليبيون[٤] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٥ ، ص ١٧٨

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٣) المرجع السابق ؛ حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٤) Foucher de Chartres ; p. 414.

والواقع ان حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قاموا بها ضد الصليبيين فى ذلك الدور . هذا وان ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ، ولكن فى نطاق محدود . وكانت الهجمات الفاطمية تنبعث دائما من مدينة عسقلان ، ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ، كما أغارت سنة ١١٠٧ على الخليل . بل ان الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ الى أسوار بيت المقدس ذاتها[١] .

وفى تلك الأثناء لم يتخل بلدوين ملك بيت المقدس عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التى ما زالت بأيدى الفاطميين ، وهى عسقلان فى الجنوب وصورا وصيدا وبيروت فى الشمال . وقد بدأ بلدوين بمهاجمة صيدا سنة ١١٠٦ ، ثم انصرف عنها بعد قليل عندما تعهد له حاكمها بدفع مبلغ كبير من المال[٢] . ولم تكد تمض سنتان حتى وصل الى شاطىء فلسطين — فى أغسطس سنة ١١٠٨ — عدد كبير من السفن الوافدة من ايطاليا ، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة فى الاستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلا فى حصارها برا وبحرا . ولكن الأسطول الفاطمى أسرع الى مياه صيدا ، واستطاع أن ينزل الهزيمة بالسفن الايطالية[٣] . وكان ذلك فى الوقت الذى طلب حاكم صيدا من طغتكين امداده بقوة برية تساعده على دفع الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طغتكين النداء ، وأرسل له نجدة كبيرة قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل ، وعندئذ انسحب بلدوين الى عكا . ولم يكد بلدوين يسحب قواته حتى امتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذى تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفا من أن تكون هناك مؤامرة من جانب طغتكين للاستيلاء على صيدا . وعندئذ هدد سلاجقة دمشق باستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، فرضخ صاحبها ، ودفع مبلغا يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه[٤] .

وفى تلك الأثناء شاءت الظروف أن تلعب الدولة الفاطمية دورا فى تاريخ مدينة طرابلس ، وان كانت الأحداث قد أثبتت أن الفاطميين كانوا أضعف من

---

(١) Runciman : op. cit., II ; p.p. 90-91.

(٢) Albert d'Aix, p.p. 632 - 634.

(٣) Grousset : op. cit. ; I, p. 253.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ & Albert d'Aix ; p.p. 654-655

النهوض بمهمة الجهاد وحماية مصالح المسلمين فى فلسطين . ذلك أنه عندما اشتد حصار الصليبيين على طرابلس اضطر صاحبها فخر الملك بن عمار الى السفر فى ربيع سنة ١١٠٨ الى بغـــداد لطلب النجدة من الخليفة العبـــاسى وسلطان السلاجقة[١] . ولكن أهل طرابلس ــعندما ضاق بهم الحال فى غياب ابن عمارــ أرسلوا الى الوزير الأفضل الجمالى بالقاهرة يطلبون حماية الدولة الفاطمية لهم ، ويعرضون عليه تسليم المدينة له ، ليتولى الفاطميون الدفاع عنها . وكان أن استجاب الأفضل لتلك الدعوة ، فأرسل اليهم شرف الدولة ابن أبى الطيب واليا سنة ١١٠٨ « ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون اليه أهل البلاد فى الحصار . فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه ، وأخذ ما وجده من آلاته وذخائره وغير ذلك ، وحمل الجميع الى مصر فى البحر » . وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بنى عمار وعادت الى الفاطميين مرة أخرى[٢] .

ولكن الفاطميين كانوا فى حقيقة الأمر أضعف من أن يستطيعوا الدفاع عن طرابلس ، وخاصة بعد أن أتت امدادات برية وبحرية من الغرب مكنت الصليبيين من احكام حصارهم عليها . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت عندئذ اجراء سريعا لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ؛ ولكن الأسطول الذى أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظرا فى موانى الدلتا بسبب الخلاف بين قادته ، فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت سيره . وفى تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس « وســـقط فى أيديهم ، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفا تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة »[٣] . وأخيرا أبحرت العمارة الفاطمية قاصدة طرابلس بعد فوات الأوان ؛ ولم تكد تصل الى مياه طرابلس ذاتها « حتى وجـــدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كما هم !! »[٤] وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ، ويلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ؛ ثم يحدد مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : أولها : تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة . وثانيها : ضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٥
(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 536)
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .
(٤) المرجع السابق .

مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة ، لدفع الفرنج من البحر عن البلد . وثالثها: عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . « هذا مع قوتهم (الفاطميين) فى العساكر والأموال والأسلحة »[١] . ومهما يكن من أمر ، فان الصليبيين دخلوا طرابلس فى ١٢ يوليو سنة ١١٠٩ ، وسمحوا للقائد الفاطمى بالخروج سالما مع فريق من رجاله[٢] .

وزاد من وقع سقوط طرابلس ، أن بلدوين الأول أخذ يهاجم بيروت سنة ١١١٠ . وقد استمر حصار بيروت بضعة أشهر ، حاول الفاطميون خلالها ارسال نجدات اليها عن طريق البحر ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . وعندما يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات اليه ، فر فى سفينة ليلا الى جزيرة قبرص ، وعندئذ اضطر أهل بيروت الى الاستسلام للصليبيين الذين أحدثوا مذبحة رهيبة بين المسلمين داخـــل بيروت[٣] . وبعد قليل وصلت الى عكا قوة من الصليبيين النرويجيين ، فاستغل بلدوين تلك القوة فى القيام بمحاولة جديدة للاستيلاء على صيدا . وعندما اشتد حصار الصليبيين على صيدا من ناحيتى البر والبحر ، أدرك قاضيها وشيوخها أنه لا أمل فى النجاة الا بالتسليم ، فسلموا المدينة للملك بلدوين فى ديسمبر سنة ١١١٠[٤] .

ولم تلبث مدينة عسقلان هى الأخرى — وهى القاعدة الحربية الرئيسية للفاطميين فى فلسطين — أن أوشكت أن تدخل تحت حماية الصليبيين . ذلك أن حاكم عسقلان — شمس الخلافة — أرسل الى بلدوين الأول « مالا وعروضا » طالبا عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين[٥] . وكان أن انزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات كانت بالنسبة للدولة الفاطمية مفتاح فلسطين وبالنسبة للصليبيين مفتاح مصر ، لذلك أرسل الأفضل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ، وأعطى تعليمات سرية لقائد الحملة بعزل شمس الخلافة ويتولى هو حكم المدينة بدله[٦] . على أن شمس الخلافة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧٩
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٧ — ١٦٨
Foucher de Charters, p. 421.
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ & Guillaume de Tyr, p. 478.
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .
(٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ & Albert d'Aix, p.p. 679—680.

أوجس خيفة من تلك الحملة ، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها الى القاهرة . ويروى ابن الأثير أن شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جندا » ؛ الأمر الذى أساء الى شعور أهل عسقلان ، فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره سنة ١١١١ ؛ وفى الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور الى نصابها فى عسقلان[١] . وعندما سمع الملك بلدوين بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع الى عسقلان ، ولكنه وصلها وقد انتهى كل شىء ، فعاد بخفى حنين « وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة فى حلق الصليبيين »[٢] .

أما مدينة صور ، فكانت — مثل عسقلان — من المدن التى استعصت على بلدوين الأول لأنها اعتمدت دائما على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الامدادات . ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الاغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم فى كثير من الحالات من ناحية أخرى ؛ ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتابك دمشق طالبين حمايته بوصفه اكبر قوة اسلامية قريبة منهم . ويشير ابن القلانسى الى أن الوزير الأفضل الفاطمى كان مشغولا عندئذ بوباء خطير ألم بمصر[٣] . وكان أن استجاب طغتكين الى ما طلبوا ، فأمد أهل صور ببضع مئين من الدماشقة وعين عليهم واليا — اسمه مسعود — وفرق عليهم المؤن والأموال « فطابت نفوس أهل البلد »[٤] .

ويبدو أن الحصار الذى فرضه بلدوين الأول على صور فى نوفمبر ١١١١ لم يكن تاما لعدم وجود أسطول صيلبى قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثلما كان الحال فى حصار بيروت وصيدا . حقيقة ان بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وفى نفس الوقت لم يتقاعس الوزير الأفضل الفاطمى فى شحن صور بالذخيرة والميرة ، مما مكن أهلها من الثبات داخلها ، فى الوقت الذى

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٤ هـ .
(٢) **Runciman : op. cit., II, p. 95.**
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

كان طغتكين يساعدهم خارجها[١] . وهكذا اضطر بلدوين الأول الى رفع الحصار والعودة من حيث أتى فى ابريل سنة ١١١٢ . ولما طلب أهل صور من طغتكين الاشتراك فى حكمهم وحمايتهم ، ذهب اليهم وتسلم البلد ، وقال لهم « أنا مافعلت ما فعلت الا لله تعالى ، لا رغبة فى حصن ومال ؛ ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسى ورجالى » . ثم استقر الرأى بين الأفضل الفاطمى وطغتكين على أن تقوم حامية دمشقية فى صور الى جانب الحامية الفاطمية ، ويتولى القيادة العامة للقوات المشتركة قائد من قبل طغتكين ، فى حين تظل الخطبة والسكة للفاطميين [٢] .

والواقع ان ما حدث فى صور من ناحية وفى عسقلان من ناحية أخرى ، انما يدل على بداية صحوة اسلامية فى جنوب بلاد الشام ، هى فى حقيقة الأمر جزؤ من حركة الافاقة الشاملة التى أخذ العالم الاسلامى يمر بها فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . ولم تلبث أن امتدت هذه الصحوة الى الدولة الفاطمية ذاتها ، فتقدم جيش فاطمى من عسقلان سنة ١١١٣ لمهاجمة بيت المقدس ، ووصل الفاطميون الى أسوار المدينة فعلا ، ثم عادوا من حيث أتوا لاهتمام الصليبيين بتحصين المدينة[٣] . كذلك خرجت قوة فاطمية من عسقلان سنة ١١١٥ لمهاجمة الصليبيين فى يافا ، ولكنها عادت دون أن تحقق شيئا[٤] . أما فى مصر ، فقد أدت سياسة الملك بلدوين الأول الى تحريك شعور المصريين وتنبيههم الى الخطر الذى يتهددهم فى بلادهم من جانب الصليبيين . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة . ومن الواضح أنه مع مالهذا المشروع من أهمية دفاعية ، فانه يمكن الصليبيين أيضا من عزل مصر عن بقية العالم الاسلامى فى الشرق ، وقطع الطريق البرى بينها وبين الشام والعراق والحجاز[٥] .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادى عربة جنوبى البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ١٢ مجلد ٣ ص ٢٦٨

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١ — ١٨٢

(٣) Foucher de Chartes ; p.p. 426—427.

(٤) Guillaume de Tyr ; p.p. 494—495.

(٥) Grousset : L'Empire du Levant ; p. 213.

وادي عربة بأجمعه[١] . وفي العام التالى ـــ ١١١٦ ـــ خرج بلدوين فى حملة أخرى ، ومضى حتى أيله علي ساحل خليج العقبة ، حيث فر الأهالى من وجهه . وقد بنى بلدوين فى أيله قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام[٢] ؛ كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة فى خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الاشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة ، ولم يبق أمام بلدوين سوى أن يهاجم الفاطميين فى عقر دارهم ليشعرهم بقوته . وفى مارس سنة ١١١٨ خرج بلدوين على رأس قوات غير كبيرة ، وعبر الصحراء من غزه الى العريش حتي وصل الى الفرما واستولى عليها وأحرق جامعها ومساجدها[٣] . ويروى المؤرخ ابن الأثير أن الملك بلدوين وصل الى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ، كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين الى أنه وصل الى مصب نهر النيل فعلا ؛ ولكنه لم يستطع أن يوغل فى الأراضى المصرية أكثر من ذلك لصغر قوته ثم لمرضه المفاجىء . وسواء جاء ذلك المرض لأنه سبح فى النيـــل عند تنيس « فانتفض جرح كان به » على قول ابن الأثير ؛ أو أنه مرض بسبب أكله سمك من بحيرة المنزلة ـــ على قول أبي المحاسن ـــ ؛ فالمتفق عليه هو أن أصحابه شقوا بطنه ، وصبروه ـ أى حنطوه ـ ورموا أحشاءه فى المكان الذي نسب اليه وما زال يعرف حتى اليوم باسم سبخة البردويل ـــ قرب بور سعيد الحالية ـــ وهو المكان الذى اعتاد الناس أن يرجموه حتى أيام أبي المحاسن فى عصر المماليك[٤] .

ويبدو أن جرأة الصليبيين فى مهاجمة مصر ، كان لها أثرها فى ايقاظ الدولة الفاطمية من سباتها وجعلها أكثر احساسا بالخطر المباشر الذى يتهددها ، فشرع الوزير الأفضل فى القيام بمحاولة جديدة يردبها على العدوان الصليبى ، وبادر بارسال جيوشه الى عسقلان وأسطوله الى صور . وفى ذلك الدور تمت بصورة أوضح المعجزة الكبرى ، وهى تحالف الدماشقة السنيين مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين ؛ فتم الاتصال بين الوزير الأفضل فى مصر وطغتكين فى دمشق على القيام بعمل مشترك ضد العدو المشترك ، ووافق الأفضل على أن يضع

---

(١) Runciman : op. cit. ; I, p.p. 97—98.

(٢) Setton : op. cit. ; I, p. 406.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٧١

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ Guillaume de Tyr ; p. 508.

جيوشه فى عسقلان تحت قيادة طغتكين[١] . ولم يلبث أن حضر طغتكين بنفسه الى عسقلان وعندئذ أخبره قائد الجيش الفاطمى بأن لديه تعليمات « بالوقوف عند رأى طغتكين والتصرف على ما يحكم به »[٢] . وكان أن أحس الملك بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس الجديد (١١١٨ — ١١٣١) — بخطورة الموقف ، فحاول عزل طغتكين عن الأفضل ، وعرض على الأول عقد هدنة ، ولكن طغتكين رفض عرضه . على أن الموقف لم يؤد الى صدام بين الطرفين ، اذ رابط كل من الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة ، ثم انصرف كل فريق من حيث أتى[٣] .

ويلمس المتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية فى ذلك الدور فتورا ملحوظا فى مواجهة الصليبيين ومقاتلتهم . ويبدو خلال ذلك اتجاه قوى فى المعسكر الفاطمى لمهادنة الصليبيين ، وعدم الجد فى محاولة طردهم من مواقعهم فى جنوب بلاد الشام . وظهر هذا الاتجاه قويا بين المتطرفين من شيعة البيت الفاطمى ، وهم الذين رأوا فى بقاء الصليبيين ضمانا لحماية ملك الفاطميين من أطماع السلاجقة[٤] . وزاد من سلبية الدولة الفاطمية فى ذلك الدور أن الوزير الأفضل أخذ يقترب من نهايته. والحق ان الوزير الأفضل — مع كونه أرمنى الأصل — الا أنه لم يأل جهدا فى مقاتلة الصليبيين ، كما احتضن أنصار حركة الجهاد وقربهم منه[٥] . وسواء ابتغى الأفضل من سياسته هذه الجهاد لذاته ، أو اتخذ تلك السياسة أداة للحد من نشاط ونفوذ الخليفة الآمر الفاطمى (١١٠١ — ١١٣٠) — وهو الخليفة الطموح الذى أراد الحد من نفوذ الوزراء العظام — فالذى يعنينا هو أن الوزير الأفضل اغتيل فى أواخر سنة ١١٢١ ، وأن هذا الاغتيال مرتبط بسياسته السابقة. ويقال فى سبب مقتل الوزير الأفضل أنه سمح لطغتكين — وهو أتابك دمشق السنى — بارسال قوة للمشاركة فى الدفاع عن صور ، الأمر الذى أثار غلاة

---

(١) المقريزى : المواعظ ، جـ ١ ، ص ٣٤٢

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

(٣) Foucher de Chartres ; p.p. 617—619.

(٤) المقريزى : المواعظ ، جـ ٢ ، ص ٣١٠ .
جمال الدين بن طاهر : أخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٧٤ ب

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٤٧٩ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٥ ص ٢٣١ — ٢٣٢

الشيعة فى مصر ، مما أدى الى مقتل الأفضل بيد بعض الباطنية الذين كانوا « يكرهون الأفضل لأسباب منها تضييقه على امامهم (الخليفة الفاطمى) »[١] .

على أن الخليفة الآمر الفاطمى كان لا يستطيع أن يكشف عن سياسته تجاه الصليبيين بعد مقتل الأفضل مباشرة ، حرصا على مكانته فى العالم الاسلامى ، ولذلك رأى أن يسترضى الرأى العام فأنفذ حملة كبيرة من عسقلان لحصار يافا برا سنة ١١٢٣ ، فى الوقت الذى خرج الاسطول الفاطمى لمهاجمتها من ناحية البحر[٢] . وكانت الحامية فى يافا صغيرة ، مما جعلها توشك على الاستسلام ، ولكن وصول نجدة صليبية جعل الفاطميين يفكرون فى الانسحاب الى يبنا ، على الطريق بين يافا وعسقلان . وفى المعركة التى دارت بين الفاطميين والصليبيين عند يبنا فى أواخر مايو سنة ١١٢٣ ، انهزم الفاطميون وولوا الأدبار ، واقتفى الصليبيون أثرهم ، يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل الى أيديهم[٣] .

ولم تلبث أن انكشفت بعد قليل سياسة الخليفة الآمر الفاطمى فى مسالة الصليبيين ، فتخلص الفاطميون من القوات الدمشقية السنية التى كانت تشترك معهم فى الدفاع عن صور ، كما تخلصوا من مندوب طغتكين فى تلك المدينة . ذلك أن الخليفة الآمر أرسل أسطولا الى صور سنة ١١٢٢ لعزل الحاكم الدمشقى مسعود ، فقبض عليه وأحضر الى القاهرة . وقد انتقد المؤرخ أبو المحاسن هذا التصرف من جانب الفاطميين ، لأنه حرم صور من الرجل القوى الذى « فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة »[٤] . وهكذا ساءت أحوال صور وتعرضت للاهمال من جانب الفاطميين . ويتضح من المقارنة بين ما ذكره المقريزى عن كمية الميرة التى كانت تصل سنويا الى صور أيام الوزير الأفضل ، وبين ما ذكره ابن ميسر عن الكمية التى كانت تصلها على أيام الوزير ابن البطائحى خليفة الأفضل ، أن الدولة الفاطمية بعد مقتل الأفضل انقصت المعونة التى كانت ترسلها الى صور الى الخمس[٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٥ هـ .

(٢) Setton : op. cit. ; I, p. 421.

(٣) Foucher de Chartres ; p.p. 450—451.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٨٢

(٥) المقريزى : المواعظ ، جـ ٢ ص ٣٤٤ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٦٣

ومهما يكن من أمر ، فان تلك الأوضاع أتاحت فرصـة طيبة للصليبيين ليستغلوا الموقف السيء الذى أمست فيه صور من ناحية ، والشقاق بين دمشق والقاهرة من ناحية أخرى « فتحرك طمعهم فيها ، وحدثوا نفوسهم بتملكها ، وشرعوا فى الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها »(١) . ولما أحس أهل صور بشدة وطأة الصليبيين عليهم ، أرسلوا الى الخليفة الآمر يشكون اليه ، فأحس الخليفة بعجزه ، واضطر مرة أخرى الى أن يحيلهم الى طغتكين ، اذ رد عليهم قائلا «قد رددنا أمرها الى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها»(٢) . ومرة أخرى عاد طغتكين صاحب دمشق يعزز حامية صور « ويرتب بها من الجند وغيرهم ما ظن أن فيه الكفاية »(٣) .

على أن هذه الجهود لم تفلح فى انقاذ صـور . ذلك أن البندقية كانت قد أعدت حملة صليبية ضخمة من ثلثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جندى لمساعدة الصليبيين بالشام(٤) . وكان أن وصل الأسطول البندقى الى الشام فى مايو سنة ١١٢٣ ، فاتجه الى عسقلان حيث دمر الأسطول الفاطمى هناك ، ثم أغار البنادقة على الشاطىء الجنوبى لفلسطين حتى العريش ، وفى طريق عودتهم الى عكا أسروا اسطولا تجاريا اسلاميا من عشر سفن محملة بالبضائع(٥) . ولاشك فى أن تدمير الأسطول الفاطمى فى مياه فلسطين أعطى الصليبيين حرية العمل ضد المعاقل والموانى الفاطمية القليلة التى ما زالت باقية على ساحل الشام ، وأهمها صور وعسقلان . ولم تفلح جهود القوى الاسلامية ، المتباينة فى الدفاع عن صور(٦) ، ولم تستطع صور نفسها الصمود طويلا رغم حصانتها القوية(٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٨ هـ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣
(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٨ هـ .
(٤) **Heyd : Hist. du Commerce, I, p.p. 142—143.**
(٥) **Foucher de Chartres ; p.p. 452—453.**
(٦) عن هذه الجهود انظر : ابن العديم : زبدة الحلب (**Rec. Hist. Or. III, p. 642**)
(٧) وصف الرحالة ابن جبير صور فى عصر الحروب الصليبية بأنها « مدينة يضرب بها المثل فى الحصـانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة » . (رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ ـ طبعة بيروت) .

وأخيرا اضطرت صور الى التسليم فى أوائل يوليو سنة ١١٢٤ « بعد أن أشرف أهلها على الهلاك[١] » .

ومرة أخرى ارتفع صوت خافت من مصر يتهم الخليفة الآمر الفاطمى بأنه فرط فى صور ، ويطالب الخلافة الفاطمية باتخاذ سياسة ايجابية فى جهاد الصليبيين بالشام . وزاد من الانقسام الداخلى فى الدولة الفاطمية أن الخليفة الآمر الفاطمى قبض على وزيره ابن البطائحى سنة ١١٢٥ ثم صلبه . ولم يتخذ الخليفة الآمر بعد ابن البطائحى «وزير سيف بل استبد بأموره وباشرها بنفسه[٢] » ، واستعان بالمشيرين من غير المسلمين ، فولاهم مناصب الدولة ، وظهر منهم بهرام الأرمنى الذى « صادر عامة من بالديار المصرية ، من كاتب وحاكم وجندى وعامل وتاجر ، وامتدت يده الى الناس على اختلاف طبقاتهم »[٣] . وكان من الطبيعى أن يجنح مستشارو الدولة الفاطمية من المسيحيين الى مسالمة الصليبيين بالشام . وزاد هذا الاتجاه قوة بعد اغتيال الخليفة الآمر فى خريف سنة ١١٣٠ وقيام ابن عمه الحافظ محله فى الخلافة ، لأن الحافظ هذا كان من أشد المتحمسين لمسالمة الصليبيين ، وقيل أنه أشار بقتل الوزير الأفضل[٤] .

ولم يرض المتحمسون للجهاد عن ذلك الوضع ، فجمعوا صفوفهم بزعامة رضوان بن الولخشى ، وأطلقوا سراح أحمد ابن الوزير الأفضل وعينوه وزيرا فى حفل كبير ، أظهروا فيه حنقهم على البيت الفاطمى وسياسته[٥] . وقد ظهرت استجابة الوزير الجديد لسياسة الجهاد فى خروج الجيوش الفاطمية من عسقلان واغارتها على الصليبيين فى اقليم يافا ، حتى وصلوا الى مشارف أرسوف[٦] . على أن الوزير أحمد بن الأفضل لم يعش طويلا ليواصل سياسته ، وانما اغتيل سنة ١١٣١ بيد يانس ، وهو أمير من أصل أرمنى . ولم يلبث أن دب الخلاف بين يانس هذا الذى تولى الوزارة والخليفة الحافظ الفاطمى ، وهو خلاف تطور

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .
(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص ٧٣
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩
(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٤
(٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٣ ، ص ١٨ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢ ص ٨١
(٦) Guillaume de Tyr, p.p. 627—633.

الى صراع دموى أفاضت المصادر فى شرحه ، وانتهى بموت يانس مسموما قبل أن يمر عام على توليه منصب الوزارة[1] . وفى خلال الحرب الأهلية التى شهدتها الدولة الفاطمية فى العامين التاليين ، برز الأمير بهرام الأرمنى ، فولاه الخليفة الحافظ الفاطمى الوزارة رغم أنه كان يدين بالنصرانية . ولم يدخر الوزير بهرام جهدا فى فتح أبواب مصر أمام بنى جنسه من الأرمن ، فضلا عن أنه شجع سياسة المعايشه السلمية مع الصليبيين بالشام وقاوم أنصار حركة الجهاد[2] . وأثار هذا الوضع المسلمين داخل مصر وخارجها ، فقامت ثورة بزعامة رضوان بن الولخشى الذى خطب فى الناس خطبة بليغة « حرض الناس فيها على الجهاد » . وكان أن فر بهرام فى حين ولى رضوان بن الولخشى الوزارة سنة ١١٣٧[3] .

والحق ان الوزير رضوان بن الولخشى كان من أشد المتحمسين لحركة الجهاد ضد الصليبيين ، فما كان يتولى الوزارة حتى أنشأ ديوانا جديدا أطلق عليه اسم « ديوان الجهاد »[4] . وفى الوقت نفسه آخذ يطارد الأرمن ويقصيهم عن مناصب الدولة ، حتى بلغ به الأمر حد التنديد بالخليفةالحافظ الفاطمى وسياسة الاستكانة التى اتبعها تجاه الصليبيين بالشام . وعندما وجد رضوان بن الولخشى أن الخليفة الحافظ يعمل سرا لتمكين الأرمن من استعادة نفوذهم فى الدولة ، فضلا عن جهود الخليفة فى استثارة عداء بعض طوائف الجيش الفاطمى ضد الوزير ؛ الأمر الذى يؤثر تأثيرا خطيرا على حركة الجهاد التى عزم رضوان بن الولخشى المضى فيها ، فر ابن الولخشى نحو الشمال ليستعين ببطل كبير من أبطال الجهاد وعلم من أعلام الوحدة الاسلامية فى القرن الثانى عشر للميلاد ، هو عماد الدين زنكى.

وكان السلطان محمود السلجوقى قد عين زنكى أتابكا على الموصل سنة ١١٢٧ ، فنظم أمورها ، وشرع يضع أساس خطة متكاملة لجهاد الصليبيين . وقد أدرك زنكى بثاقب بصره أن مثل هذه الخطة لا يمكن أن تنجح الا اذا تم توحيد

---

(١) المقريزى : المواعظ ، جـ ٢ ص ٢٦ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٧٥ — ٧٦

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٧٩ ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ٣ ص ٦٠

(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ ١٦ ق ١ ص ٥٧ ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ٣ ص ١٨

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٨٢

القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى ؛ فضم حلب سنة ١١٢٨ ، وبذلك جمع بين الموصل وحلب ، وهما اكبر مركزين للمسلمين فى شمال العراق والشام[١] . وفى الوقت الذى كان زنكى يسعى جاهدا لضم مدينة دمشق ، حتى تمتد الجبهة الاسلامية المتحدة الى أواسط الشام ؛ أرسل اليه الوزير الفاطمى رضوان بن الولخشى طالبا التضامن معه فى جهاد الصليبيين ، والاستعانة به ضد الخلافة الفاطمية الشيعية المتقاعسة عن الجهاد .

ويحكى لنا أسامة بن منقذ ـ وهو شاهد عيان ساهم بنفسه فى أحداث تلك الفترة ـ ما كان من أمر الوزير رضوان ، فيقول أنه اتجه الى صلخد (صرخد) فى الوقت الذى كان زنكى يحاصر بعلبك . وعندما تم الاتفاق بين زنكى والوزير الفاطمى على اللقاء عند بعلبك ، ذعر معين الدين أنر صاحب النفوذ فى دمشق ، واستدعى أسامة بن منقذ وقال له « هذا الرجل (رضوان) ان انضاف الى أتابك (زنكى) دخل علينا منه ضرر كبير !! »[٢] وكان أن قصد أسامة بن منقذ الوزير رضوان بن الولخشى ، ومازال يثنيه عن عزمه حتى عدل ابن الولخشى عن مقابلة زنكى ، واكتفى بأن جهز جيشا كبيرا عاد به الى مصر فى سبتمبر سنة ١١٣٩ ليحارب جند الخليفة الفاطمى قرب باب الفتوح . غير أنه لم يلبث أن أرغم على المسير الى الوجه القبلى ، حيث طارده الأمير أبو الفضل بن مصال ، وانتهى الأمر بحبسه فى القصر ثم قتله بعد ذلك[٣] . وهكذا باء بالفشل مشروع التعاون بين زنكى وابن الولخشى للقضاء على الدولة الفاطمية أولا ثم مواصلة الجهاد ضد الصليبيين بعد ذلك ، فدخلت الدولة الفاطمية مرة أخرى دور ركود واضح .

والواقع ان حركة الوحدة فى العالم الاسلامى تمهيدا للجهاد كان اتجاهها فى ذلك الدور من الشمال لا من الجنوب ، فاستولى زنكى على الرها سنة ١١٤٤ ، ثم خلفه ابنه نور الدين محمود ليستأنف سياسته ويستولى على دمشق سنة ١١٥٤ ، وبذلك جاء دور مصر لتمتد الجبهة الاسلامية المتحدة من الفرات الى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٤ ـ ٤٠ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٣٧ ـ ٣٨

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٣٠ ـ ٣٢

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطميـــة ، ص ١٧٨ (الطبعة الثانية) .

النيل[1] . وفى تلك الأثناء لم يغفل الصليبيون أمر مصر بعد أن ظهر للعيان مدى ضعف الخلافة الفاطمية وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها . وهنا نلاحظ أن الاتجاه الطبيعى لتوسع الصليبيين فى الربع الأول من القرن الثانى عشر كان فى الشمال الشرقى ، حيث لم توجد قوة اسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع . ولكن ظهور قوة الزنكيين فى شمال العراق والشام ، جعلت حركة التوسع الصليبى تتخذ منذ منتصف ذلك القرن اتجاها آخر ، هو الاتجاه الجنوبى الغربى ، أى على حساب مصر والفاطميين[2] .

على أن غزو مصر — وهى السياسة التى اتخذت طابعا عمليا واسع النطاق على يد عمورى الأول فيما بعد — كان لابد من التمهيد له بالاستيلاء على عسقلان وهى القاعدة الوحيدة التى بقيت للفاطميين فى فلسطين . وهذا ما قام به الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، بعد أن تم تتويجه وأخذ يفكر فى القيام بعمل حربى هام يضفى عليه وعلى حكمه هالة من المجد والأهمية فى نظر معاصريه[3] .

وقد مهد بلدوين الثالث لغزو عسقلان بعدة ترتيبات هامة ، حربية وسياسية . ففى الجانب الحربى بدأ فى أواخر سنة ١١٤٩ وأوائل سنة ١١٥٠ باعادة تحصين غزة ، فهدم أسوارها القديمة ، وبنى لها سورا جديدا ، كما شيد بها قلعة قوية عهد بحراستها الى الداوية[4] . وفى الجانب السياسى كان لابد لبلدوين الثالث قبل أن يشرع فى مهاجمة عسقلان من أن يؤمن ظهر مملكة بيت المقدس من جانب دمشق . ولم يكن التحالف بين دمشق وبيت المقدس أمراً صعب الحدوث فى ذلك الدور ضد العدو المشترك نور الدين محمود ، الذى أخذ يسعى لتحقيق الجبهة الاسلامية المتحدة ويهاجم دمشق مرة بعد أخرى لضمها الى تلك الجبهة . وفى ذلك يقول ابن القلانسى ان الدماشقة « عاهدوا الافرنج أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من المسلمين» . فى حين يقول أبو شامة ان حكام دمشق « راسلوا الفرنج بخبره (نور الدين) وقرروا معهم الانجاد عليه »[5] . وهكذا

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٦٦٤

(٢) Michaud : op. cit. ; II ; p. 217.

(٣) Setton : op. cit. ; I, p. 536.

(٤) Guillaume de Tyr, p. 778.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٧٠

مكنت الأوضاع السائدة فى العالم الاسلامى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس من أن يوجه جهوده ضد الفاطميين فى عسقلان ، وهو آمن من جانب أتابكة دمشق [١] .

والواقع ان الخلافة الفاطمية كانت تحتضر فعلا عند منتصف القرن الثانى عشر. وعندما توفى الخليفة الحافظ سنة ١١٤٩، خلفه ابنه الظافر (١١٤٩ — ١١٥٤) الذى استبد بالسلطة فى عهده الوزير العادل بن السلار . وفى الوقت الذى كان الخليفة الفاطمى يكيد لابن السلار ويدبر المؤامرات للتخلص منه بسبب اعتناق ابن السلار للمذهب السنى [٢] ، اذا بابن السلار يضع مشروعا لمقاتلة الصليبيين فى غزة وعسقلان ، ويسعى للاتفاق مع نور الدين محمود لتنفيذ هذا المشروع . وكان أسامة بن منقذ فى مصر عندئذ ، فاستدعاه الوزير الفاطمى ابن السلار ، وعهد اليه بمهمة الاتصال بنور الدين ، وقال له « تأخذ معك مالا وتمضى اليه ينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا لنخرج من هاهنا نخرب غزة » [٣] . وربما سمع الوزير ابن السلار بنية ملك بيت المقدس الصليبى فى الاستيلاء على عسقلان وغزو مصر ، فأراد بهذا المشروع أن يصرفه عن قصده . ومهما يكن من أمر فان أسامة بن منقذ سافر من مصر مزودا بستة آلاف دينار مصرية ، عدا الثياب وغيرها ، واتجه الى الشام حيث التقى مع أسد الدين شيركوه فى بصرى ، ومنها صحبه الى دمشق . ولكن نور الدين محمود أبى الاستجابة لمشروع ابن السلار ، وقال لأسامة « يافلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء . ما آمن منهما اذا دخلت بينهما !! [٤] » ومعنى هذا أن نور الدين محمود أبى أن يغامر بحرب ضد مملكة بيت المقدس الصليبية فى ذلك الدور الذى لم تكتمل فيه الجبهة الاسلامية المتحدة ، والذى كان حكام دمشق فيه ينصابونه العداء ، مما يوقعه بين نارين . ومع ذلك فان نور الدين محمود سمح لأسامة أن يستأجر بالمال الذى زوده به الوزير الفاطمى ابن السلار جندا يحارب بهم الصليبيين ، فجمع أسامة ثمانمائة وستين فارسا ، وزوده نور الدين بثلاثين فارسا من أصحابه ، حتى يكون الاسم له فيما قد يحققه من انتصارات على الصليبيين [٥] .

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades, Tome 2, p.p. 342—351.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٨٤

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٠

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤

(٥) المرجع السابق .

وكان أن نازل أسامة بن منقذ ــ بما توافر له من قوة ــ الصليبيين فى عسقلان وبيت جبريل ويبنا ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أى نجاح حربى ملحوظ فى تلك العمليات الحربية ، لصغر قواته من ناحية ، وعدم تمسكها بروح النظام والطاعة من ناحية أخرى . وعندئذ استدعاه الوزير الفاطمى ابن السلار الى القاهرة ، فحضر تاركا أخاه عز الدولة أبو الحسن على فى عسقلان ليواصل مقاتلة الصليبيين فى غزه ؛ ولكن أبا الحسن لم يلبث أن استشهد فى تلك العمليات[١] .

ومهما يكن من أمر ، فاننا نخرج من هـــذه الأحداث بعدة معان : أولها استمرار تمسك وزراء الدولة الفاطمية ــ وهم أصحاب النفوذ الفعلى فيها ــ بفكرة الجهاد . وثانيها اتجاه هؤلاء الوزراء الى زنكى ثم الى ابنه نور الدين محمود طالبين محالفتهم والاستعانة بهم فى تنفيذ مشاريعهم ضد الصليبيين ، وذلك بعد أن يئس الوزراء من أمر الخلفاء الفاطميين أنفسهم ؛ وثالثها اضطراب أحوال الدولة الفاطمية وضعفها ، وعجزها عن القيام بعمل حربى منفرد ضد الصليبيين بالشام .

وهكذا وجد بلدوين الثالث ملك بيت المقدس فى أوضاع القوى الاسلامية فى مصر والشام خير مشجع له على القيام بمشروعه الكبير الخاص بالاستيلاء على عسقلان ــ تمهيدا لمد نفوذه الى مصر نفسها ــ ؛ فشرع فى حصار عسقلان فى أواخر يناير ١١٥٣ ، منتهزا فرصة الاضطرابات الداخلية فى مصر « واشتغالهم (الفاطميون) عن عسقلان »[٢] . وقد استمر الحصار بضعة أشهر ، حاول الفاطميون خلالها أن يمدوا أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر ، فأرسلوا أسطولا كبير من سبعين سفينة محملة بالسلاح والمؤن ، ونجح ذلك الاسطول فى اختراق الحصار الذى فرضته الأساطيل الصليبية على عسقلان من ناحيــة البحر[٣] . وكان وصول هذه النجدة الى حامية عسقلان حافزا لها على مواصلة المقاومة فى صبر وشجاعة . ولكن الحصار طال ، وازداد هجوم الصليبيين عنفا ، فلم تجد حامية عسقلان بدا من طلب الأمان ، ودخل الصليبيون المدينة فى ١٩ أغسطس سنة ١١٥٣ ليحولوا جامعها الكبير الى كنيسة تحمل اسم القديس بولس. ومع ذلك فقد امتدح ابن القلانسى سلوك الصليبيين تجاه أهل عسقلان ، اذ سمحوا

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ ــ ١٦

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ .

(٣) Guillaume de Tyr ; p. 801.

لهم بالخروج سالمين « فخرج منها من أمكنة الخروج فى البر والبحر الى ناحية مصر وغيرها »[١] .

وباستيلاء الصليبيين على عسقلان ، يكونوا قد أتموا بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين بأجمعه من اسكندرونه فى الشمال حتى غزة فى الجنوب ، الأمر الذى حرم الفاطميين من قاعدة بحرية طالما استخدموها فى مهاجمة الممتلكات الصليبية فى فلسطين . على أننا لا نميل الى المبالغة فى أهمية استيلاء الصليبيين على عسقلان بالنسبة لحماية وجودهم فى فلسطين بالذات . حقيقة ان سقوط عسقلان كان آخر نصر حربى كبير أحرزه ملوك بيت المقدس ، وحقيقة ان عسقلان ظلت أمدا طويلا ــ قبل استيلاء الصليبيين عليها ــ قاعدة تخرج منها الجيوش الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة فى جنوب فلسطين ؛ ولكننا يجب أن تتذكر أن الدولة الفاطمية فى الوقت الذى فقدت عسقلان لم تبق لها ممتلكات ذات أهمية فى فلسطين ، ولم تعد مصدر خطر كبير أو صغير على الصليبيين ، بعد أن أمست فى درجة من الضعف والانحلال حال بينها وبين القيام بأى عمل حربى ضد الصليبيين[٢] .

أما مظاهر ضعف الدولة الفاطمية وانحلالها فكثيرة ومتعددة ، أهمها عدم التعاون بين الخلفاء والوزراء ، وهو الأمر الذى بلغ فى معظم الحالات حد العداء والصدام بين الطرفين . ثم التنافس بين الطموحين من رجال الدولة على الفوز بمنصب الوزارة ، وهو التنافس الذى تحول فى بعض مراحله الى تطاحن دموى عنيف ، لم يتردد خلاله كل طرف من الأطراف المتنازعة فى الاستعانة بقوى خارجية فى سبيل تحقيق غرضه والتغلب على خصمه . ولا أدل على عدم الاستقرار الذى تعرضت له الدولة الفاطمية ــ وبخاصة منذ منتصف القرن الثانى عشر ــ من أنه صار من الأمور الشائعة أن ينتهى أمر كثير من الخلفاء والوزراء بالقتل . من ذلك أن الوزير ابن السلار قتل وهو نائم فى فراشه فى ابريل سنة ١١٥٣ ، أى قبيل استيلاء الصليبيين على عسقلان بأشهر قليلة . وربما كان مقتل ابن

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢١
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٩٠

(٢) Runciman : op. cit. ; II ; p. 340.

السلار فى ذلك الدور مما سهل على الصليبيين الاستيلاء على عسقلان لأنها تركت بلا حامية بعد مقتل ابن السلار[١] .

وقام بقتل ابن السلار نصر حفيد زوجته ، فقطع رأسه « وحمله الى (الخليفة) الظافر » ؛ وعندئذ تملك الخليفة الفاطمى الفرح لمقتل وزيره ابن السلار ، ووضع رأس القتيل فى بيت المال ، ونفح قاتله بعشرين صينية من الفضة فيها عشرون ألف دينار . ولم يكد يتم مقتل ابن السلار حتى تولى الوزارة عباس — والد نصر — « فخلع عليه الظافر ، وفوض اليه الأمر » . ولكن لم يلبث أن أراد الخليفة الظافر بوزيره عباس سوءاً ، فأخذ يحرض ابنه نصر على قتله مثلما قتل ابن السلار من قبل[٢] .

ويحدثنا أسامة بن منقذ — وهو شاهد عيان ، كان يعيش عندئذ بمصر ، وعلى صلة وثيقة بنصر قاتل ابن السلار — كيف حرص الخليفة الظافر الفاطمى على مواصلة ارسال الهدايا الضخمة من « الكسوات من كل نوع ما لا رأيت مثله مجتمعا قبله » ؛ فضلا عن المال الوفير والبغال والجمال ... وغيرها ، الى نصر قاتل ابن السلار لتحريضه على قتل والده عباس . ولكن أسامة نصحه بألا يفعل ذلك وقال له « لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يعزك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل (ابن السلار) ، فلا تفعل شيئا تلعن عليه الى يوم القيامة » . وكان أن أعرض نصر عن قتل والده ، بل لقد اتفق مع والده عباس على قتل الخليفة ؛ وفعلا انتهى الأمر بقتل الظافر الفاطمى ثم قتل اخوة الخليفة نفسه . وحاول القتلة الاجهاز على أسرة الخليفة كلها « فكان ذلك من أشد الأيام التى مرت بى لما جرى فيه من البغى القبيح الذى ينكره الله تعالى وجميع الخلق »[٣] . وعندما ثار الأهالى فى القاهرة ضد هذه الأوضاع ، فر الوزير عباس من القاهرة ومعه ابنه نصر ، ولكن اخوة الخليفة الظافر حرضوا بعض الصليبيين على قتله فقتلوه سنة ١١٥٤ ، فى حين قبض على نصر حيث صلب حيا على باب زويله ، وترك معلقا هناك شهورا كثيرة ، ثم أحرقت جثته سنة ١١٥٦[٤] . وهكذا صار الوضع

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٨٦
(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٨
(٣) المرجع السابق ، ص ٢١
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٥٠٠

فى الدولة الفاطمية عندئذ ، أن « مذهب القوم ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم[١] » .

وقد ترك الخليفة الظافر الفاطمى طفلا فى الرابعة من عمره ، دعى له بالخلافة وتلقب بالفائز . ولما كان هذا الطفل لا يستطيع النهوض باعباء الحكم ، فقد أرسل نساء القصر الفاطمى الى الأمير طلائع بن رزيك والى الأشمونين يستدعينه لتولى الوزارة . وعرف ابن رزيك بقوة البأس ، فتلقب بالملك الصالح ، وبذل جهدا كبيرا فى اقرار الأمن واعادة الأمور الي مجراها الطبيعى[٢] . ولم يلبث أن توفى الخليفة الفائز وهو فى الحادية عشر من عمره ـ سنة ١١٦٠ ـ فأقام ابن رزيك فى الخلافة العاضد ، الذى كان « مراهقا قارب البلوغ » ، وزوجه الوزير طلائع بن رزيك ابنته مما مكن الوزير من احكام سيطرته على الخليفة[٣] . وهكذا استمر طلائع بن رزيك يلهو بالخلفاء الصغار الذين صاروا أداة طيعة فى يده . ويتضح ذلك من العبارة التى قالها عندما هلل أهل القاهرة للخليفة الجديد ، اذ قال « كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أننى منذ ساعة استعرضهم استعراض الغنم[٤] » .

وأخيرا أحس الخليفة العاضد والأمراء بثقل ذلك الكابوس ، فدبروا مؤامرة لقتل ابن رزيك ، وتمت المؤامرة بنجاح فى سبتمبر سنة ١١٦١[٥] . وكان أن خلف ابن رزيك فى الوزارة ابنه العادل ، الذى لقب بمجد الاسلام ، ولكنه لم يظل فى الوزارة سوى خمسة أشهر ، قتله بعدها شاور حاكم الصعيد ، وتولى بدله الوزارة فى يناير سنة ١١٦٣[٦] . على أن شاور « عامل (الخليفة) العاضد بأفعال قبيحة ، وأساء السيرة فى الرعية ، وأخذ أمر مصر فى وزارته فى ادبار » . لذلك خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر ، الذى استطاع أن ينتصر على شاور ويطرده من مصر سنة ١١٦٣[٧] . ولم يلبث ضرغام أن بغى بدوره وارتكب

---

(١) اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٩

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٩٤ ، ابن خلكان : وفيات ، جـ ١ ص ٤٩٨

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ . Wiet : L'Egypte Arabe, p. 289.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) عمارة اليمنى : كتاب النكت العصرية ، ص ٨٨

(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٦

كثيرا من المظالم وأعمال الاضطهاد « وقتل كثيرا من أمراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع »[١] . وكان أن عم الاستياء والخوف الناس جميعا فى مصر ، وذلك فى الوقت الذى أخذ عمورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٢ — ١١٧٤) يفكر فى غزوها .

وقد ذكر بعض المؤرخين الصليبيين —مثل وليم الصورى وميخائيل السريانى— أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ — ١١٦٢) كان قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠ منتهزاً فرصة الفوضى التىعمتها عقب مقتلالخليفة الفائز ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية ، سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار[٢] . ومع أننا لم نعثر فى المراجع العربية على ما يؤيد هذه الحقيقة ، الا أننا نستبعد صحتها ، حيث أن أحوال الدولة الفاطمية فى ذلك الدور خير شاهد على ضعفها . واذا كانت الدولة الفاطمية أضعف من أن تدفع خطر أعدائها بالقوة ، فلا أقل من أن تشترى مسالمتهم بالمـــال . وهذا — دون شك — موقف معيب يتطلب التستر عليه بحيث يصـــل خبره الى الرعية فيستثيرهم ، والى كافة المسلمين فيؤذى شعورهم ويسىء الى الخلافة الفاطمية نفسها . وربما كان هذا هو السر فى عدم وصوله الى المؤرخين المسلمين وبالتالى عدم اشارتهم اليه .

ومهما يكن من أمر ، فان الملك عمورى الأول تحجج بعدم وفاء الحكومة الفاطمية بوعدها،فغز االدلتا فىسبتمبرسنة١١٦٣ حتى وصلالى بلبيسوحاصرها، ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وسيحان المياه فى الأراضى ، ليجبر عمورى الأول على الانسحاب الى فلسطين[٣] . ومع أن عمورى الأول قد عاد الى فلسطين فاشلا ، فان تلك الحملة الاستطلاعية لم تخل من فائدة بالنسبة له وللصليبيين . ويكفى أنها أطلعتهم عمليا على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها ، وسهولة الاستيلاء عليها ، مما جعل عمورى يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر[٤] . ومن ناحية أخرى فان جرأة عمورى فى مهاجمة مصر أثارت

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٨٨ هـ .

(٢) Michel Le Syrien, III, p. 317 & Guillaume de Tyr, p. 890.

(٣) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury de Jreusalem en Egypte, p.p. 38-4.

(٤) Setton : op. cit. ; I ; p.p. 550—551.

مخاوف نور الدين محمود الذى كان قد استولى على دمشق سنة ١١٥٤ ، وأخذ يتطلع الى الاستيلاء على مصر لاتمام الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحية وأحكام حصار مملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب من ناحية أخرى. وكان شاور قد هرب الى نور الدين فرارا من خصـــمه ضرغام ، وهناك فى دمشق أخذ شاور يستنجد به « وأطمعه فى الديار المصرية ، وقال له : اكون نائبك بها ، وأقنع بما تعين لى من الضياع والباقى لك »[١] . كذلك تعهد شاور لنور الدين ــ اذا ساعده الأخير فى العودة الى الوزارة بمصر ــ أن يدفع له ثلث دخل البلاد « ويتصرف على أمره ونهيه واختياره[٢] » .

ويبدو أن نور الدين محمود تردد كثيرا عندئذ فى ارسال حملة الى مصر ، خوفا من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لايزال أمام أعداء أقوياء فى الشام . وبعد أن استخار نور الدين القرآن ، أرسل حملة صحبة شاور الى مصر سنة ١١٦٤ بقيادة أسد الدين شيركوه ، ورافق شيركوه فى تلك الحملة ابن أخيه صلاح الدين الذى كان عندئذ فى السابعة والعشرين من عمره . وكان أن استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى ــ مقابل مساعدته ــ أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين[٣] . على أن مهارة القائد الكردى شيركوه ، واسراعه فى قطع الصحراء ــ رغم تقدم سنه ــ جعلته يكسب قصب السبق ، فوصل الدلتا قبل الصليبيين ، وانتصر عند تل بسطا على جيش أرسله ضرغام ، بحيث لم يكد يحل أول مايو سنة ١١٦٤ ، الا وكان شيركوه ــ ومعه شاور ــ قد بلغا أسوار القاهرة . ولم يلبث أن تخلى الجيش والخليفة وعامة الناس عن ضرغام ، فقتل أثناء محاولته الفرار ، وتولى شاور الوزارة[٤] .

وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن شاور بأنه كان « خبيثا سفاكا للدماء » ؛ فأساء معاملة الناس ، ونسى وعوده المعسولة لنور الدين ، بل سرعان ما « ظهر منه أمارات الغدر بأسد الدين شيركوه » ؛ فرفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه ، وطلب منه الخروج من مصر[٥] . ولكن شيركوه رد على موقف شاور

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٦
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٠
(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 294.
(٤) عمارة اليمنى : النكت العصرية ، ص ٧٣
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٧

باحتلال بلبيس والشرقية ، مما جعل شاور يفعل مثل سلفه ضرغام ، فاستنجد بالصليبيين[١] .

وكان أن عاد عمورى الأول على رأس جيش الى مصر مرة أخرى ، بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال[٢] . وعندما وصل ملك بيت المقدس الى فاقوس ، لم يشأ شيركوه أن يتجه نحو القاهرة ، وانما اختار أن يقوى مركزه فى بلبيس حيث حصل على مساعدات من عرب كنانة . وحدث ذلك فى الوقت الذى حضر شاور من القاهرة على رأس جيشه واشترك مع عمورى فى حصار شيركوه فى بلبيس ، حتى تم الاتفاق أخيرا على أن يغادر شيركوه وعمورى الأول مصر ، واتفق على ذلك فى أواخر سنة ١١٦٤ بعد أن تعهد شاور بأن يدفع لشيركوه ثلاثين ألف دينار أخرى[٣] . وربما كان عمورى الأول اكثر تلهفا على تلك الاتفاقية ، حيث أن هجمات نور الدين اشتدت على الصليبيين فى غيابه ، مما تطلب عودته الى بلاد الشام على وجه السرعة[٤] .

والواقع أن نور الدين والصليبيين خرجوا جميعا من تجربتهم العملية فى أرض مصر بفكرة واضحة عن مدى ثروة البلاد وضعفها الشديد ، حتى بدا لهم أن الاستيلاء عليها يمثل الهناء دون عناء ، لولا تربص كل طرف للآخر ، وحرص كل جانب على أن ينفرد بالغنيمة كاملة دون خصمه . ويذكر أبو المحاسن أن شيركوه غادر مصر « وهو فى غاية من القهر »[٥] ؛ كما يذكر ابن الأثير أن شيركوه لم يستطيع عقب عودته الى بلاد الشام أن ينسى مصر ، فظل « بعد عوده منها لايزال يتحدث بها وبقصدها ، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير »[٦] ولو ترك الأمر لشيركوه لعاد الى مصر سنة ١١٦٥ أو سنة ١١٦٦ ، ولكن يبدو أن نور الدين محمود خشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر فى هاتين السنتين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٩ هـ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣١ . Schlumberger : op. cit. ; p. 58.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث ٥٥٩ هـ ، أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ص ١٣٢

(٤) Grousset : op. cit., II, p. 458.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٨

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

خوفا من تشتيت جهوده وتقسيم قواته ، فى الوقت الذى كان الموقف فى بلاد الشام يستدعى شيئا من اليقظه والانتباه[١] .

على أنه يلاحظ أن الطمع فى ثروة مصر ، والخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حربيا وماديا ، لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمام نور الدين فى ذلك الدور بأمر مصر ، وانما كان هناك — بالاضافة الى ماسبق — دافع آخر مذهبى له أهميته فى توحيد الجبهة الاسلامية . ذلك أن الخلافة الفاطمية بوضعها فى مصر كانت مصدرا من مصادر الفرقة فى العالم الاسلامى ، لأن قيامها فى القاهرة كان كفيلا ببقاء المذهب الشيعى حيا — على الأقل فى مصر — فى حين ساد المذهب السنى بلاد الشام وغالبية العراق . ويحتمل أن تكون قد دارت مباحثات واتصالات قوية بين نور الدين وقائده شيركوه من ناحية والخليفة العباسى من ناحية أخرى، وذلك قبل أن يعهد نور الدين الى شيركوه بمهمة غزو مصر سنة ١١٦٧[٢] .

وثمة أسباب أخرى ذكرها المؤرخ أبو المحاسن ، جعلت نور الدين يرسل شيركوه مرة ثانية الى مصر ، أهمها أن الخليفة العاضد الفاطمى عندما رأى استبداد شاور وأنه غلب عليه ، أرسل الى نور الدين يستنجده ، ويعلمه أن شاور « قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم » هذا الى أنه كان « فى قلب نور الدين من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج »[٣] .

وكان أن غادرت الحملة النورية الثانية دمشق فى يناير ١١٦٧ قاصدة مصر تحت قيادة شيركوه ، وبصحبته أيضا ابن أخيه صلاح الدين[٤] . وعندما أدرك شيركوه الدلتا عمل حسابا لاستنجاد شاور بالصليبيين ، فوجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة ، واختار أن يعبر النيل عند أطفيح الى الجيزة حيث عسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل[٥] . وقد صح ما توقعه شيركوه ، اذ استنجد شاور بعمورى الأول ملك بيت المقدس ، الذى أسرع

---

(١) Schlumberger : op. cit. ; p.p. 101—102.

(٢) Grousset : op. cit. ; II ; p.p. 478—479.

(٣) ابو المحاسن : النجوم ، جـ ٥ ص ٣٤٨

(٤) ابن شداد : النور السلطانية ، ص ٦٥

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ١٤٢ . Wiet : op. cit. p. 295.

فى نهاية يناير ١١٦٧ ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة . ويبـــدو أن ظروف الصليبيين فى بلاد الشام كانت تستدعى بقاء عمورى عندئذ ، ولكنه اضطر الى قبول دعوة شاور طمعا فى ملك مصر « وخوفا من أن يملكها أسد الدين ، فلا يبقى لهم (للصليبيين) فى بلادهم مقام معه ومع نور الدين » وهكذا خرج الصليبيون الى مصر « الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم » ، وفق تعبير ابن الأثير[١] ، فساروا فى الطريق المألوف من غزة الى العريش ، ثم اخترقوا الصحراء الى بلبيس ، حيث خف شاور للقاء حلفائه وقادهم الى حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل ، فى حين كان شيركوه لايزال مرابطا على الضفة الغربية[٢] .

وقد أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين تضمن لهم أجرهم قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار فى حالة بقائهم ، حتى طرد شيركوه من مصر ، بشرط أن يدفع نصــف هذا المبلغ فورا[٣] . وكان أن رحب الصليبيون بتلك الاتفاقية التى تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية . ولدعم هذه الاتفاقية واعطائها صبغة رسمية ، أرسل عمورى الأول سفارة الى الخليفة الفاطمى زارته فى قصره الفخم حيث تم ابرام الاتفاق فى صورته النهائية ، وعاد رسل الصليبيين ، ولا حديث لهم الا عظمة البلاط الفاطمى[٤] .

وعندما استعد الفاطميون والصليبيون لمهاجمة شيركوه ، وجدوا أنه لابد لهم من عبور النيل الى الضفة الغربية ، فأخذوا يعبرون الى جزيرة الروضة ، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه ، فاتجه الى الصعيد وفى أثره عمورى الأول وشاور[٥] . وقرب الأشمونين فى المنيا دارت معركة البابين فى مارس سنة ١١٦٧ واشترك فيها صلاح الدين . وقد هزم الصليبيون فى تلك المعركة ، وان كان انتصار شيركوه غير حاسم « وكان هذا من أعجب ما يؤرخ به أن ألفى فارس

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) Schlumberger : op. cit. ; p. 116.
(٤) Guillaume de Tyr ; p.p. 909—913.
(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٢

يهزم عسكر مصر وفرنج الساحل » . أما عمورى فقد قفل راجعا ومعه بقية جيشه ، حيث عسكر قرب الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل[١] . وكان من الممكن أن يستولى شيركوه على القاهرة « لو ساق خلفهم »[٢] ، ولكنه اختار أن يتجه شمالا على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية ، فى الوقت الذى ظل الصليبيون قابعين أمام الفسطاط . واذا كان عسف شاور وجوره لم يمكنا أهل القاهرة من التعبير عن استيائهم لتحالف حكامهم مع الصليبيين ، فانه كان من الصعب أن يقبل أهل الاسكندرية ـ مع ماهو معروف عنهم دائما من نخوة وشهامة — ذلك الوضع ، فضلا عن أن بعدهم عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبى عن طريق البحر جعلهم أكثر احساسا بذلك الخطر وأكثر حرية فى التعبير عن شعورهم . لذلك لم يكن شيركوه يقرب من الاسكندرية حتى « تلقاه أهلها طائعين » ، وفتحوا له أبواب مدينتهم بغير قتال . على أنه يبدو أن شيركوه خشى أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الاسكندرية، فقال « أنا لا يمكننى أن أحصر نفسى » . لذلك ترك ابن أخيه صلاح الدين نائبا عنه فى الاسكندرية ، واتجه هو على رأس الجزء الأكبر من قواته عائدا الى الصعيد « فاستولى عليه وأقام يجمع أمواله »[٣] .

وفى الوقت الذى أوغل شيركوه فى الصعيد حتى قوص وحاصرها ، ساء موقف صلاح الدين وأهل الاسكندرية ، بعد أن أسرع عمورى لحصار صلاح الدين ، الذى لم يكن معه داخل المدينة سوى ألف جندى . وكان أن اشتد الحصار وقل الطعام داخل الاسكندرية ، ومع ذلك فقد « صبر أهلها على ذلك »[٤] . وعندما رأى صلاح الدين اصرار الصليبيين على حصار الاسكندرية، وخشى عاقبة ذلك الحصار ان طال ، أرسل الى عمه يطلب النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه الى العودة شمالا فى صيف سنة ١١٦٧ . ويبدو أن شيركوه أدرك فى تلك المرحلة صعوبة الاستلاء على مصر ، فأرسل الى الصليبيين يطلب

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٣ ، الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٩
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٤٩
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

عقد الصلح . وتم الاتفاق — كما فى المرة السابقة — على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد[١] . وهنا نلاحظ أن ميول شاور ظلت مع الصليبيين ، فاتفق معهم عند انسحابهم من مصر على أن يقوموا بحمايته مقابل تعهده بدفع مائة ألف دينار سنويا ، ورضى أن يترك الصليبيون له حامية منهم تحرس أبواب القاهرة ، فضلا عن مندوب — أو شحنة — عن الملك عمورى يشارك فى شئون الحكم[٢] .

والواقع أنه اذا كان عمورى الأول قد غادر مصر مضطرا سنة ١١٦٧ نظرا لصعوبة موقف الصليبيين بالشام تحت وطأة ضربات نور الدين محمود ، فليس معنى ذلك أن عمورى عدل عن فكرة الاستيلاء على مصر . ويذكر أبو المحاسن أن الصليبيين عندما حضروا الى مصر فى المرات السابقة « اطلعوا على عوارتها وطمعوا فيها »[٣] وهكذا لم يعد فى وسع الصليبيين أن يتخلوا عن فكرة الاستيلاء على مصر طمعا فى ثروتها وحماية لكيانهم بالشام . ولكن عمورى أدرك أنه فى حاجة الى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى الاستيلاء على مصر ، ولذلك فكر فى تقوية الرابطة مع الأمبراطورية البيزنطية ، ولم يحجم عن الزواج سنة ١١٦٧ من الأميرة مارى كومنين قريبة الأمبراطور البيزنطى مانويل الأول كومنين[٤] . ومن الثابت أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية ، وتنافس نور الدين محمود وعمورى الأول حول الفوز بوادى النيل . ولم يلبث الامبراطور أن أرسل مبعوثين سنة ١١٦٨ الى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك ، فتقوم القوات البيزنطية الصليبية بفتح مصر[٥] . وكان الثمن الذى اتفق على أن يتقاضاه الامبراطور لقاء مساعدته الصليبيين هو جزؤ من مصر ، فضلا عن أنطاكية[٦] . وقد وافق عمورى الأول على تلك الشروط ، وأرسل مبعوثا ــ هو المؤرخ الشهير وليم الصورى ــ الى القسطنطينية حيث تم

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٦ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٣

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٤) Grousset : op. cit. ; II ; p. 504.

(٥) Guillaume de Tyr ; p. 947.

(٦) Schlumberger : op. cit. ; p. 185.

عقد اتفاقية بين الطرفين فى سبتمبر سنة ١١٦٨ تنص على تقسيم مصر بين البيزنطيين والصليبيين[١] .

على أنه لم يقدر للاتفاقية السابقة بين البيزنطيين والصليبيين أن تنفذ ، اذ لم يشأ الملك عمورى أن ينتظر فراغ الامبراطـــور من مشاغله فى البلقان ، وانفرد — دون شركائه البيزنطيين — بالهجوم على مصر . وقد يبدو لأول وهلة أن السبب فى ذلك التحول انمـــا يرجع الى عدم رغبة عمورى فى أن يشاركه البيزنطيون فى اقتسام مصر حتى ينفرد وحدة بالصيد ، لاسيما وأن روح العداء بين البيزنطيين الشرقيين والصليبيين الغربيين كانت هى الروح السائدة طوال أدوار الحركة الصليبية . ولكن الواقع هو أن عمورى الأول وجد نفسه مضطرا الى الاسراع فى العمل نتيجة لانقلاب سياسة شاور ضد الصليبيين[٢] .

ذلك أن شاور أخذ يتخوف من المساعدة الصليبية التى تحولت الى حماية ، بل الى نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية . فوجود مندوب أو شحنة عن ملك بيت المقدس الصليبى فى القاهرة يشاركه فى شئون الحكم ، ووجود حامية من الصليبيين تحرس أبواب القاهرة ، كل ذلك أزعج الفكر الاسلامى[٣] . وفى الوقت الذى كان الشعور الدينى فى العالم الاسلامى معبأ ضد الصليبيين ، والدعوة الى الجهاد يتردد صداها فى مشارق العالم الاسلامى ومغاربة ، اذا بالمسئولين فى الدولة الفاطمية يستعينون بالصليبيين ويطلبون حمايتهم ضد قوة اسلامية شقيقة مجاورة . وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شاور أســاءوا معاملة أهل البلاد « وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالاذى[٤] ! ! » هذا الى أن الاتاوة السنوية التى فرضها عمورى على شاور ــ وهى مائة ألف دينار ــ أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية ، فى الوقت الذى ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها . وهكذا لم يجد شاور مفرا ــ أمام ضغط الرأى العام وشعوره بالاستياء ــ من أن يقلب ســياسته

---

(١) Guillaume de Tyr ; p. 947.

(٢) Chalendon : Comnenes, II, p.p. 537—538.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

رأسا على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته فى التخلص من الحماية الصليبية !! [١] . ويذكر أبو شامة أن شاور أرسل ابنه ـالكامل شجاعـ الى نور الدين محمود « ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته ، » مما ترتب عليه عقد اتفاقية بين الطرفين . كذلك حاول شاور تأكيد هذه الرابطة الجديدة عن طريق المصاهرة ، فعرض أن يتزوج ابنه الكامل شجاع أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين ابنة شاور[٢] .

على أنه يبدو أن تدخل عمورى مرة أخرى فى شئون مصر لم يكن مرجعه تبدل سياسة شاور فحسب ، وانما تعرض ملك بيت المقدس لضغط من جانب فرسانه وأمرائه الذين وجدوا فى مصر لقمة سائغة ، فظلوا يدفعون ملكها دفعا للاستيلاء عليها . ويروى ابن الأثير أن رجال الحامية الصليبية فى مصر أرسلوا الى عمورى «يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من الموانع وهونوا أمرها عليه» ولكن عمورى تردد كثيرا قبل القيام بتلك الخطوة ، اذ أدرك أنه لن يتعرض لمقاومة الحكام فحسب ، وانما لمقاومة الأهالى أنفسهم ، وأن المسألة ليست مسألة الخليفة العاضد أو الوزير شاور ، وانما هى مسألة شعب بأسره سيقف فى وجهه . لذلك قال عمورى لأصحابه أنه لو أقدم على تلك الخطوة فان « صاحب مصر وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ! »[٣] ولعله مما يشرف مصر وتاريخها أن الملك عمورى والصليبيين عملوا حسابا لعامة أهل مصر وفلاحيها فى الوقت الذى كانوا يعلمون جيدا مدى انحلال حكام مصر وضعف حكومتها ! وهكذا دب الخلاف بين الصليبيين سنة ١١٦٨ حول السياسة الواجب اتباعها تجاه المسألة المصرية ، فرأى الملك عمورى الأول الاكتفاء بسياسة الحماية التى يتبعها الصليبيون ، فى حين نادت جمهرة أمراء الصليبيين بأنه لابد من غزو مصر واخضاعها للصليبيين « وقالوا ان مصر لا مانع لها ولا حافظ »[٤] . وكان أن انتصر الرأى الأخير ، فأعد عمورى جيشا كبيرا أسهم فيه فرسان الاسبتارية مساهمة فعالة[٥] .

(١) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ٨١ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٦٧ — ٦٨

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٠

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٤

(٥) King : The Knights Hospitallers in the Hoby Land, p. 94.

وفى أواخر اكتوبر سنة ١١٦٨ غادر عمورى الأول عسقلان متجها نحو دلتا النيل لغزو مصر للمرة الرابعة ، فوصل بلبيس فى أول نوفمبر سنة ١١٦٨ ولكن عمورى لاحظ تغييرا فى موقف المصريين منه عندئذ بدليل أن بلبيس أغلقت أبوابها فى وجهه تلك المرة . وعندما طلب عمورى من طى بن شاور ــ الذى كان بالمدينة ــ أن يسمح له ولجنده من الصليبيين أن يعسكروا داخل بلبيس ، أجابه طى « على أسنة الرماح ... أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها ؟! » فرد عليه عمورى « نعم هى جبنة والقاهرة زبدة !! »[١] . ومن الواضح أنه اذا كان عمورى قد غزا مصر قبل ذلك بناء على طلب من بعض القوى المتنازعة داخل البلاد ، مما أوجد له سندا يستند اليه ، فانه هذه المرة أتى الى مصر دون أن يستدعيه أحد أو يكون له حليف داخل البلاد ، مما زاد من صعوبة موقفه . وكان أن اضطر عمورى الى محاصرة بلبيس ومهاجمتها للاستيلاء عليها عنوة فى أوائل نوفمبر سنة ١١٦٨ . وعند دخول الصليبيين بلبيس ارتكبوا حماقة كبرى ؛ اذ « قتل (عمورى) من أهلها خلقا عظيما وضرب اكثرها وأحرق جل دورها » ؛ مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس الأهالى[٢] .

ولم يلبث أن اقترب عمورى الأول من القاهرة فى ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ حيث عسكر عند بركة الجيش جنوبى الفسطاط . وهنا يذكر ابن الأثير أن أهل القاهرة عزموا على المقاومة حتى لا يتعرضوا للمصير السىء الذى تعرض له أهل بلبيس ، كما يؤكد أنه « لو كان الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس لملكوا مصر والقاهرة »[٣] . أما شاور فقد أحس فى ذلك الوقت بحرج موقفه واستياء الناس منه ، فأشعل النار فى الفسطاط وأحرقها أولا عن آخر ، بعد أن « أنذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم » ؛ وعندئذ نقل عمورى معسكره أمام القاهرة قرب باب البرقية[٤] . ولكن القاهرة التى امتلأت باللاجئين من الفسطاط عزمت على المقاومة ، فى الوقت الذى وصل الاسطول الصليبى الى بحيرة المنزلة وتنيس ولكنه لم يستطع التقدم فى النيل جنوبا صوب القاهرة ، بسبب العقبات التى

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٠

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٧٠ & Guillaume de Tyr, p. 951

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧١

وضعها المصريون فى مجرى النيل[١] . ولم يلبث أن أخذ عمورى يتراجع عن القاهرة ، بعد أن أعطاه شاور مائة ألف دينار ثمنا لانسحابه[٢] ، فاتجه الى سرياقوس عن طريق المطرية ، وهناك سمع بأن شيركوه اقترب من مصر على رأس جيش كبير ، فأمر عمورى الاسطول الصليبى بالعوده الى عكا[٣] .

وكان الخليفة العاضد الفاطمى عندما رأى الخطر المحدق ببلاده قد أرسل الى نور الدين يعرض عليه « ثلث بلاد مصر اذا هو أنقذه من الصليبيين[٤] » . والواقع ان نور الدين محمود كان لا يمكن أن يترك الصليبيين يحتلون مصر ، فلم يكد يسمع بعودة الملك عمورى والصليبيين الى مصر ، حتى « أسرع بتجهيز العساكر خوفا على مصر » . كذلك يروى أبو شامة أن نور الدين أخذ يتخوف عندئذ من تردد الصليبيين على مصر بين حين وآخر ، وأدرك « أن شاور يلعب بهم تارة وبالفرنج أخرى » . لذلك قر رأيه على أن يتخذ موقفا حازما من المسألة المصرية[٥] .

وفى الوقت الذى اقتربت جيوش نور الدين من حدود مصر الشرقية ، اتخذ عمورى خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس الى بلبيس ، حيث ترك هناك قوة تحمى الطريق المؤدى الى القاهرة ، ثم التقدم نحو فاقوس لمباغتة قوات شيركوه وهى قادمة متعبة عبر الصحراء الشرقية ، والقضاء عليها قبل أن يلتف حولها المصريون (ديسمبر ١١٦٨)[٦] . ولكن هذه الخطة التى وصفها عمورى الأول أنهارت من أساسها عندما علم أن شيركوه اخترق الصحراء الى القاهرة ، وأنه ادرك عاصمة مصر فعلا حيث التف حوله الأهالى بوصفه المدافع عنهم وعن دين الاسلام ؛ فى حين لم يستطع شاور نفسه ــ الذى كان الدعامة التى اعتمد عليها عمورى فى المرتين السابقتين ــ أن يفعل شيئا . وهكذا لم يبق أمام عمورى الأول سوى أن يسحب حاميته التى تركها فى بلبيس ، وينسحب ومعه رجاله فورا (يناير ١١٦٩) « عائدين الى بلادهم بخفى حنين ، خائبين مما أملوه »[٧] .

---

(١) Giullaume de Tyr, p. 953.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٣) Schlumberger : op. cit. ; p.p. 208—209.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ١٥٧

(٦) Guillaume de Tyr, p. 955.

(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٨ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٧١

أما شيركوه ، فقد « فرح به أهل مصر » ، واستقبل استقبال البطل المخلص عند وصوله الى القاهرة . وقد عسكرت قواته عند باب اللوق على باب القاهرة ، فأستدعاه الخليفة العاضد الفاطمى الى القصر ، وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور ، وأخذ أرباب الدولة يترددون الى خدمته فى كل يوم(١) . وكان من الطبيعى أن يحقد شاور على شيركوه ، وخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد لشيركوه وميله اليه ، فأرسل شاور مرة أخرى الى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ، ويقول لهم « يكون مجيئكم فى دمياط فى البحر والبر »(٢) . بل ان شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم اليها ، ولما عارضه ابنه الكامل فى ذلك ، رد شاور على ابنه قائلا « لئن لم نفعل هذا لنقتلن كلنا » . وكانشاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ، فلما أرسل الأخير يطلب منه الوفاء بوعده ، أخذ يماطل فى انتظار وصول الصليبيين لنجدته . وأخيرا أدرك « أعيان الدولة بمصر » خطر سياسة شاور وسوء نيته ، فاجتمعوا عند شيركوه ، وقالوا له « شاور فساد العباد والبلاد ، وقد كاتب الفرنج ، وهو يكون سبب هلاك الاسلام » ؛ وطالبوا بقتله(٣) .

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩ وقيل ان الخليفة العاضد الفاطمى شارك فى المؤامرة التى عصفت بشاور . وبعد ذلك دخل شيركوه — ومعه صلاح الدين — القاهرة دخول الظافرين ، حيث أباحوا للأهالى نهب قصر شاور(٤) .

على أن شيركوه لم يلبث أن توفى بعد شهرين (مارس ١١٦٩) ، فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين . ويقال ان الخليفة العاضد الفاطمى أصر على اختيار صلاح الدين بالذات للوزارة —دون غيره من أمراء جيش نور الدين بمصر— لأنه ظن أن صغر سنه وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة طيعة فى يد الخليفة(٥) .

(١) اختلفت الأقوال فى أن الخليفة العاضد الفاطمى خلع على شيركوه بخلعة الوزارة قبل مقتل شاور أو بعده ، ونرجح صحة الرأى الأخير الذى قال به ابن شداد (سيرة صلاح الدين ، ص ٦٨) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥١

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦٢ — ١٦٣

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٢

ولكن صلاح الدين ما كاد يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمى وكبار أعوانه ، اذ شرع فى استمالة قلوب الناس اليه « فمال الناس اليه وأحبوه ... وضعف أمر العاضد » . ثم انه استطاع أن يكتسب ولاء الجند بعد أن « أحسن لجميع العسكر الشامى والمصرى فأحبوه وأطاعوه »[١] . وكان ذلك فى الوقت الذى أمده نور الدين بقوة جديدة من العسكر ، استعان بها صلاح الدين فى القضاء على شوكة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه العاضد الفاطمى لاستعادة نفوذه [٢] . وهنا يظهر اسم الصليبيين مرة أخرى فى صفحة الأحداث المعاصرة . ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة ــ وهو نوبى خصى اسمه مؤتمن الخلافة ــ استاء من صلاح الدين عندما « ثقلت وطأته على أهل القصر » ؛ فدبر مؤامرة للخلاص من صلاح الدين ، وحاول أن يتبع أساليب ضرغام وشاور ، فيتصل بعمورى والصليبيين « ليتقوى بهم على صلاح الدين » . ولكن رسالة مؤتمن الخلافة الى عمورى وقعت فى يد صلاح الدين ، الذى رأى أن يستأصل الشر من جذورة ، فقتل مؤتمن الخلافة فى أغسطس سنة ١١٦٩ ، ثم قضى فى حزم على ثورة الجند السودان التى اندلعت بعد ذلك[٣] .

ومن الواضح أن صلاح الدين قام فى تلك المرحلة بدور مزدوج بوصفه وزير الخليفة العاضد الفاطمى من ناحية وقائد جيش نور الدين فى مصر من ناحية أخرى. ولكن الصليبيين كانوا لا يمكن أن يرضوا عن ذلك الوضع الجديد الذى نجم عن سيطرة قوات نور الدين على مصر ، والذى ترتب عليه احاطة جيوش نور الدين بمملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب . ويقول ابن واصل « ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية ... أيقن الفرنج بالهلاك » . فى حين يقول إبن الأثير « كان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين (شيركوه) مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك ... وأنهم خائفون على بيت المقدس[٤] » .

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٥
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٧٤
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ١٧٨
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٧٩ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٣

ولم يلبث الشعور بالفزع والقلق على المستقبل أن دفع عمورى الأول ملك بيت المقدس الى ارسال سفارة الى الغرب الأوربى لتطلب من امبراطور ألمانيا (فردريك بربروسا) وملك فرنسا (لويس السابع) وملك انجلترا (هنرى الثانى) وملك صقلية (وليم الثانى) بالاسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لانقاذ اخوانهم الصليبيين بالشرق من الوقوع بين فكى الكماشة[١] . غير أن الأوضاع السياسية فى غرب أوربا عندئذ ، لا سيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية ، حالت دون تحقيق أمنية عمورى الأول وشركاه[٢] . وبذلك لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه الى الدولة البيزنطية ، وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها .

والواقع ان الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين لم يكن أقل انزعاجا لاتحاد مصر والشام تحت زعامة نور الدين محمود ، فرحب فورا بتجديد اتفاقية سنة ١١٦٨ بينه وبين الصليبيين حول الاشتراك فى مهاجمة مصر واقتسامها[٣] . وكان أن أعد الامبراطور أسطولا كبيرا غادر مياه الدردنيل فى ١٠ يوليو سنة ١١٦٩ متجها الى قبرص ، حيث انضمت اليه بعض الوحدات الاضافية ، ثم اتجهت العمارة البيزنطية نحو صور ، ومنها الى عكا لرسم الخطة اللازمة لغزو مصر بالاشتراك مع الصليبيين[٤] . ولكى يغرى الملك عمورى فرسان الاسبتارية على مساندته فى مشروعه الكبير ، أصدر مرسوما هاما فى ١١ اكتوبر سنة ١١٦٩ يقضى بمنح الاسبتارية جزءا هاما من ايراد مصر ، ونسبة ضخمة من دخل أهم المدن المصرية ، مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص واطفيح واسوان والفيوم ... ؛ مما يدل على عزم عمورى على الاستيلاء على مصر من ناحية ، وعلى اعتقاده فى امكان تحقيق ذلك من ناحية أخرى[٥] .

---

(١) Guillaume de Tyr ; p. 959.

(٢) وافقت تلك الفترة الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ؛ انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص ٣٨٢ — ٣٩٢

(٣) Guillaume de Tyr ; p. 961.

(٤) Schlumberger : op. cit. ; p. 260.

(٥) King : op. cit. ; p.p. 100—101.

وفى الوقت الذى أقلع الأسطول البيزنطى صوب دمياط ، زحف الصليبيون برا فى ١٦ اكتوبر سنة ١١٦٩ من عسقلان الى الفرما ومنها الى دمياط « ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار وغير ذلك[١] » . ولكن اذا كان الصليبيون قد نصبوا معسكرهم أمام دمياط ، فان الاسطول البيزنطى لم يستطع دخول الميناء بسبب المآصر ، وهى السلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء[٢] .

أما صلاح الدين فقد أسرع — عندما علم بهجوم الصليبيين — الى تحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية ؛ ظنا منه أن الحملة الصليبية فى تلك المرة ستحذو حذو الحملات السابقة . فلما اتجهت الحملة الى دمياط وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج ، لا سيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة ضده فى الداخل ، بتحريض من الخليفة الفاطمى ورجاله . ومع ذلك فان صلاح الدين لم ييأس ولم يستسلم ، فأرسل يطلب النجدة من نور الدين « فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضا[٣] » . وفى الوقت نفسه كان تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — ، وشهاب الدين — خاله — ، قد دخلا دمياط ؛ فواصل صلاح الدين ارســال الامدادت والنجدات اليهما عن طريق النيل ، « وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر[٤] » . وهكذا كان حصار الصليبيين للمدينة غير تام . وتشير المراجع الصليبية الى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار نهر النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالاسطول البيزنطى أبلغ الضرر ، مما اضطره الى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة[٥] . ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع بعد أن نفد تموينها ، فاقترح القائد البيزنطى على عمورى الأول القيام بهجوم شامل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ، ص ١٨٠

(٢) Guillaume de Tyr : op. cit. p. 965.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٨٠ — ١٨١
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨١

(٥) Guillaume de Tyr ; ;p. 986.

على دمياط ، ولكن الملك الصليبى عارض ، بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين داخلها ، وأنه « حشر فيها كل من عنده ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر[١] » .

ولا يخفى علينا أن النوايا لم تكن خالصة بين البيزنطيين والصليبيين ، فظل الصليبيون يتشككون دائما فى حلفائهم ، وانتشرت شائعة بين رجال عمورى بأن البيزنطيين انما ينوون أن يستأثروا بدمياط لأنفسهم عند سقوطها ، الأمر الذى أضعف قوة المهاجمين[٢] . وأخيرا وجد الصليبيون أن انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى ، فى الوقت الذى هاجم نور الدين ممتلكاتهم وبلادهم فى الشام ، والذى كانوا يحسبون فيه حسابا دائما لهجوم صلاح الدين عليهم من ناحية الجنوب . لذلك قرروا رفع الحصار عن دمياط ، وعادوا الى عسقلان خائبين ، ليجدوا نور الدين قد عبث ببلادهم ونهبها ، حتى شبههم ابن الأثير بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين !![٣] . أما السفن البيزنطية فقد انسحبت هى الأخرى ، ولم يستطع بحارتها السيطرة عليها والتحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه من جوع وارهاق ، فغرق كثير من السفن ، وظلت الأمواج تقذف جثث بحارتها على الشاطىء طوال عدة أيام تالية[٤] .

ولاشك فى أن فشل تلك الحملة الصليبية البيزنطية ، أدى الى تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد الأمل الأخير فى التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمى الى نور الدين — عقب انسحاب الصليبيين — يرجوه سحب جنده الأتراك من القاهرة ، لأنهم بثوا الرعب فيها ، مع السماح ببقاء صلاح الدين وأعوانه ؛ فرد نور الدين على الخليفة الفاطمى « يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الاسهام الأتراك ، فان الفرنج لا يرعبون الا منهم[٥] » .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) Runciman : op. cit. ; II, p. 387.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٤٤

(٤) Guillaume de Tyr ; p. 971.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٨١

وفى الوقت الذى كان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين قابعا فى قصره بالقاهرة لاحول له ولا قوة ، أخذ وزيره صلاح الدين يوجه من مصر ضرباته ضد الصليبيين . ففى أوائل سنة ١١٧٠ خرج صلاح الدين من مصر لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطىء فلسطين ، فبدأ حصار قلعة الداروم (الدارون) جنوبى غزة ، ثم حاول الاستيلاء على غزة نفسها ، ولكنه لم يستطع ذلك بسبب المساعدة العاجلة التى قدمها عمورى الأول ملك بيت المقدس ، الذى أتى بنفسه على رأس قواته لنجدة هذين الموضعين[١] . ولم يلبث صلاح الدين أن انسحب عائدا الى مصر ليستعد لضربة أخرى يوجهها ضد الصليبيين فى ميناء ايلة على خليج العقبة . ذلك أن صلاح الدين بنى عددا كبيرا من السفن وحمل أجزاءها مفككة على الجمال عبر سيناء حتى خليج العقبة ، وهناك ركبت السفن ، وأخذ صلاح الدين يهاجم أيله برا وبحرا فى نهاية ديسمبر سنة ١١٧٠ ، حتى سقطت المدينة فى يده ، واقتيد رجال حاميتها الصليبية أسرى الى القاهرة[٢] .

وهكذا أخذ الصليبيون يشعرون يوما بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم . ومرة أخرى أدرك الملك عمورى أنه لا أمل فى الحصول على مساعدة سريعة من غرب أوربا ، فاتجه الى الدولة البيزنطية بوصفها القوة المسيحية الكبرى فى الشرق الأدنى . وفى مارس سنة ١١٧١ أبحر عمورى نفسه — ومعه جماعة من أمرائه — من عكا قاصدين القسطنطينية ، حيث اتفق الملك الصليبى مع الامبراطور مانويل كومنين على ارسال حملة مشتركة ضد مصر لاحتلالها وطرد صلاح الدين منها[٣] . على أنه حدث قبل أن يتخذ الطرفان الخطوات العملية لتنفيذ ذلك الاتفاق ، أن تم الانقلاب الخطير فى تاريخ الشرق الأدنى ، وأعنى به سقوط الخلافة الفاطمية . ذلك أن صلاح الدين أمر بالدعاء للخليفة العباسى فى القاهرة فى سبتمبر سنة ١١٧١ ، فكان ذلك ايذانا بسقوط الخلافة

---

(١) Guillaume de Tyr ; I, p.p. 973—975
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ جـ ١ ، ص ١٩٩

(٣) Guillaume de Tyr ; p. 980.

الفاطمية بعد حياة استمرت نحوا من قرنين من الزمان . ولم يلبث أن مات الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين (١٣ سبتمبر سنة ١١٧١) ؛ ثم مات نور الدين محمود فى دمشق فى مايو سنة ١١٧٤ ، مما مهد لقيام الدولة الأيوبية[١] .

واذا كنا نعتبر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية أهم النتائج السياسية الكبرى التى تمخضت عنها الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، فان هذه الحركة ذاتها دخلت دورا نشطا حافلا بالأحداث بقيام دولة بنى أيوب فى حكم مصر والشام .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

غرناطة وقصر الحمـــراء

مقدمة فى تاريخ المدينة والأهمية المعمارية للقصر

للدكتور محمد توفيق بلبع

مدرس الحضارة الاسلامية بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

تعتبر مدينة غرناطة من أهم وأشهر مدن الأندلس نظرا لتاريخها الحافل وما تحتويه من الآثار الاسلامية ، على رأسها « قصر الحمراء » (La Al-Hambra) الذى يعد بدوره من أعظم وأشهر المبانى التى خلفها المسلمون فى الشـــرق والغرب على السواء ، فهو بجانب ما يمثله من ضخامة الأسوار وكثرة الأبراج وقوة البناء وتعدد القاعات والابهاء وروعة الزخارف وتنوعها ، بجانب ذلك كله يمكن اعتباره سجلا تاريخيا لفترة من أزهى فترات التاريخ الاسلامى بالاندلس .

يطلق اسم غرناطه ـــ فى الوقت الحاضر ـــ على الاقليم وعاصمته ، وقد جاءت هذه التسمية القديمة ـــ فى أغلب الظن ـــ من الكلمة اللاتينيه جراناتوم (Granatum) وتعنى « ثمرة الرمان » نظرا لكثرة مزارعه فى هذه المنطقة [١] .

يقع هذا الاقليم الذى كان يعرف من قبل باسم « كورة البيرة » فى الجزء الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة ايبيريا ، على الجانب الأيسر من الحوض الخصيب لنهر الوادى الكبير (Guadalquivir) ويخترقه نهر « شانيل » (Genil) أحد راوفده الهامة .

لم تكن هذه المدينة الاسلامية العظيمة قبل الفتح العربى لاسبانيا سوى قرية صغيره قائمه الى الجنوب الشرقى من مدينة « البيرة » (Elvira) عاصمة

---

(١) يذكر صاحب معجم البلدان أن التسمية الصحيحة هى « أغرناطة » وانها أخذت هذا الاسم لحسنها . ياقوت الحموى ـــ معجم البلدان ج ٣ ص ٧٨٨ ، انظر أيضا : ابن الخطيب ـ الاحاطة ص ٩٩ ؛ نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٤١

الاقليم ، وكان ينزلها مع أهلها المسيحيين طائفه كبيرة من اليهود حتى عرفت عند بعض المؤرخين العرب باسم « اغرناطة اليهود » [١] .

أما تاريخ المدينة الاسلامى فيبدأ حوالى سنة ٩٥هـ (٧١٤م) اذ يرجع فتح هذا الاقليم وساحل اسبانيا الشرقى الى جهود عبد العزيز بن موسى [٢] الذى ولى أمر الأندلس بعد رحيل والده موسى بن نصير وطارق بن زياد ـ اللذان تمت على أيديهما أول وأهم مراحل فتح الأندلس ـ الى المشرق بناء على أمر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك .

وقد نزل ولاة « كورة البيرة » بعد الفتح الاسلامى لاسبانيا مدينة البيرة باعتبارها عاصمة لهذا الاقليم منذ زمن القوط ، واستمر الحال كذلك مدة طويلة من عصر الامارة حتى بنيت العاصمة « قسطلة » Castella بالقرب من البيرة قبل وقت قصير من وصول الأمير عبد الرحمن الأول (الداخل) مؤسس ملك الأمويين بالأندلس فى سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) [٣] فأصبحت الحاضرة الجديدة للكورة [٤] ، ولكنها لم تستمر طويلا اذ أخذ اسم « قسطلة » يختفى تدريجيا وحل محله اسم « غرناطة » [٥] ، وظلت غرناطة حتى نهاية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بمثابة « قرية كبيرة محصنة بسور قوى » ينزلها مع سكانها المسلمين مجموعة كبيرة من اليهود وأخرى من النصارى أقل عددا من سابقتها [٦] وكان يواجه هذه القرية الكبيرة المسورة على الجانب الأيسر من وادى «حدرة» (Darro) قلعة صغيرة قديمة شيدت على مرتفع من الأرض تشرف منه على

---

(١) عبد المنعم الحميرى ـ الروض العطار ص ٢٣

(٢) دكتور حسين مؤنس ـ فجر الأندلس ص ٧٧ ، ص ١١٢ ؛ دكتور السيد عبد العزيز ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١١٠ ـ بينما نلاحظ أن كلا من صاحب اخبار مجموعة وابن عذارى قد نسب فتح غرناطة والمناطق الشرقية من الأندلس الى جيوش طارق بن زياد . اخبار مجموعة ص ١٢ والبيان جـ ٢ ص ١٦

(٣) **Levi — Provençal, Historia de Espana T. IV Espana Musulmana, Trad de E. Garcia Gomez, pp. 220—221.**

(٤) ابن حيان ـ المقتبس ـ نشر الأدب ملشور ـ ص ٥٥

(٥) دكتور السيد عبد العزيز ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٥

(٦) **Levi — Provençal, Historia de Espana, T. IV, Espana Musulmana, Trad de E. Garcia Gomez, p. 221.**

الوادى عرفت « بالحمراء » نظرا للون الملاط واللبن القرمزى الذى استعمل فى بناء جدرانها ؛ وكانت هذه « القرية » وقلعتها « الحمراء » من أعمال كورة البيرة ، احدى كور الأندلس الواحدة والعشرين التى كانت تنقسم اليها البلاد من الناحية الادارية خلال حكم الأمويين [١] وقد لعبت « قلعة غرناطة » فى عصر أبو محمد عبد الله بن محمد سابع الأمراء الأمويين بالأندلس (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ = ٨٨٨ — ٩١٢ م) دورا هاما فى أحداث الفتنة التى نشبت بين العرب بزعامة سوار بن حمدون القيسى وبين أعدائهم من المولدين والعجم فى كورة البيرة ، اذ اتخذها سوار قاعدة وحصنا وملاذا له ولرجاله بعد أن انضم اليه عرب المناطق المجاورة ، فكانت قواتهم تخرج من غرناطة للقـاء جموع المولدين والعجم ومهاجمة معاقلهم ، وبذلك استطاع العرب كسر شوكتهم وتشتيت شملهم أكثر من مرة ، وفى احدى المعارك الكبيرة التى وقعت بين الفريقين وعرفت عند المؤرخين باسم « وقعة المدينة » تمكن العرب من وضع السيف فى رقاب المولدين وقتلوا منهم اثنى عشر ألفا [٢] ، وقد أشار الى هذا النصر الساحق سعيد بن جودى السعدى—صديق سوار والذى تولى رياسة العرب من بعده — فى قصيدة طويلة جاء فيها [٣] :

لقد سَلَّ سَـوَّارٌ عليكم مهندا
يَجُذُّ به الهـامات جذ المفاصلِ

به قتـل الله الذين تحزَّبوا
علينا وكانوا أهـل افك وباطلِ

---

(١) Levi — Provençal, Historia de Espana, T. V, Espana Musulmana, Trad. E. Garcia Gomez, p. 27.

(٢) ابن حيان — المقتبس ص ٥٦ — ٥٧ ؛ ابن الآبار — الحلة السيراء جـ ١ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، وقد أشار الى قوة سوار واشتداد سطوته فقال : « وغلظ أمره فاستبق حينئـذ الى حصن غرناطة بالقرب من مدينـة البيرة وصعد اليه فتبوأه دارا اجتمعت اليه فيه عرب كورة البيرة وكاتبته عرب النواحى الى حدود « قلعة رباح » وغيرها . . » .

أما ابن عذارى فقد ذكر أن قتلى المولدين فى هذه الموقعة قد بلغوا أحد عشر ألفا فقط — البيان جـ ٢ ص ٢٠٢

(٣) انظر هذه القصيدة الطويلة فى المقتبس لابن حيان ص ٥٧ — ٥٩ ؛ ابن الأبار — الحلة السيراء جـ ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

سما لبنى الحمـــراء اذ حان حينهم
بجمع كمثل الطـــود أرعن رافلِ

أدرتم رحى حرب فدارت عليكمُ
لحتف قد أفنـــاكم به الله عاجلِ

لقيتم لنا ملمـــومة مستجيرة
تجيد ضراب الهام تحت العواملِ

بها من بنى عدنان فتيـــانُ غارة
ومن آل قحطان كمثـــلِ الأجادلِ

يقودهم ليث هزبرٌ ضُـــبَارِمٌ
مِحَشُّ حـــروب ماجد غير خامل

وقد أشار الشاعر فى البيت الثالث من القصيدة الى قوات العرب التى كانت تتجمع فى قلعة غرناطة وتتخذها قاعدة لها فأطلق عليهم « بنى الأحمر » نسبة الى قلعتها الحمراء اللون .

وفى الفترة التالية — خلال حكم الخلفاء الأمويين — أخذت مدينة غرناطة تنمو وتتسع حتى أصبحت من بين مدن الأندلس الهامة .

وقد بلغت المدينة أولى مراحل مجدها وعظمتها ، باعتبارها مركزا وعاصمة للاقليم الذى تقع فيه ، فى عهد بنى زيرى — وهم من قبائل البربر التى تنسب الى صنهاجة — الذين وفدوا الى عدوة الأندلس ونزلوا فى هذه المنطقة وأقاموا فيها « مملكة غرناطة » التى لعبت دورا رئيسيا على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية فى عصر ملوك الطوائف — فكانت ندا قويا لمملكة بنى عباد فى أشبيلية وبنى ذى النون أصحاب طليطلة وبنى هـــود حكام الثغر الأعلى فى سرقسطة وبنى حمود الخلفاء فى مالقة والجزيرة ، وغيرهم من حكام الممالك التى قامت فى الأندلس بعد انفراط عقد الخلافة الأموية على أثر خلع هشام بن محمد المعتد بالله آخر خلفائهم فى قرطبة فى أواخر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م)[١] .

---

(١) Levi — Provençal, Historia de Espana, T. IV, Espana Musulmana, Trad. de E. Garcia Gomez, pp. 485—486.
=

وقد عبر بنو زيرى المضيق الى الأندلس على أثر نشوب نار الفتنة بين حماد بن بلكين بن زيرى صاحب القلعة المنسوبة اليه بالمغرب الأوسط وبين أعمامه من بنى زيرى – مما أدى بحماد الى قتل عمه ماكسن بن زيرى وولديه محسن وباديس سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١م) وعندئذ خشى عمه الآخر – زاوى – على نفسه وفر الى الأندلس مع أسرته وقد صحبه ابنا ماكسن الآخران حباسة وحبوس – ونزل هؤلاء البربر الفارين من افريقية على الحاجب المظفر عبد الملك ابن المنصور بن أبى عامر الذى استقبلهم استقبالا حافلا ، فأكرم وفادتهم وانتهز فرصة اضطراب الأمور والأحداث السائدة واصطنعهم لنفسه فاتخذهم بطانة لدولته وقوة يستند اليها فى تثبيت مركزه وتنفيذ سياسته [١] .

ولما اشتعلت نار الفتنة فى قرطبة سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م) بعد مقتل عبد الرحمن شنجول شقيق عبد الملك انضمت جموع البربر بزعامة زاوى بن زيرى ، الى جانب سليمان المستعين بالله ، وأخذوا له البيعة فى المسجد الجامع بقرطبة فى ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ (نوفمبر سنة ١٠٠٩م) [٢] . وظل زعيم صنهاجة على موقفه مؤيدا لسليمان ضد منافسه محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدى الذى قام ينافسه على الخلافة – فلما انتهى الأمر الى سليمان منح نصيره ومؤيده زاوى كورة البيرة ، فاستقر زعيم البربر مع رجاله بمدينة غرناطة « وأقام بها ملكا وأثل بها سلطانا لذويه فهو أول من مدن غرناطة وبناها وزادها تشييدا ومنعة » [٣] .

= انظر أيضا : دكتور السيد عبد العزيز – تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٣

وعن ملوك الطوائف انظر :

A. Prieto y vives, Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926, pp. 21—76.

وكذلك : يوسف أشباخ – تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين – الترجمة العربية ص ٢٦ – ٦١

(١) ابن الخطيب – الاحاطة ص ٤٤٠ ، ص ٥٢١ ؛ ابن عذارى – البيان جـ ١ ص ٣٦١

(٢) Levi — Provençal, Un texte arabe inédit sur L'historie de L'Espagne Musulman dans la second moitie du XIeme siecle, Al-Andalus Vol. III, Fasc. 2, p. 240.

انظر أيضا : ابن خلدون – كتاب العبر جـ ٦ ص ١٧٩

(٣) ابن الخطيب – الاحاطة ص ٥٢٢ ، أنظر أيضا : ابن خلدون – كتاب العبر – جـ ٦ ص ١٨٠

والى هذه الأسرة المغربية الأصل البربرية الجنس يرجع الفضل فى تمصير غرناطة واتساع رقعتها ، فقد بدأ زعيمها زاوى بن زيرى عملية البناء والتعمير فىموطنه الجديد مع مطلع القرن الخامس الهجرى تقريبا (الحادى عشر الميلادى) وقد شاركه فى ذلك رجاله وجنوده مع من انضم اليهم من قبائل البربر الأخرى التى كانت تنزل الأندلس خاصة بعد أن وصلت اليها أعداد كبيرة من سكان مدينة البيرة القديمة التى حاق بها الخراب والدمار فى سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) بسبب الحروب والفتن التى اجتاحت البلاد [١] الا أن مقام الأمير زيرى لم يطل فى امارته الجديدة ، فبعد سبع سنوات تقريبا راوده الحنين الى وطنه الأصلى لا سيما وأنه كان يخشى على نفسه من ازدياد أمر الفتنة وعدم استقرار الأحوال بالأندلس — فعبر البحر عائدا الى افريقية فى سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) فلقيه ابن عمه المعز بن باديس صاحب القيروان « بأحسن أحوال البر والتجلة وأنزله أرفع المنازل من الدولة وقدمه على الأعمام والقرابة وأسكنه بقصره [٢] » وكان زاوى قبل رحيله عن غرناطة قد استخلف على ملكه ابن أخيه حبوس بن ماكسن — وظل بنو زيرى منذ ذلك التاريخ يتوارثون حكم الاقليم حتى ظهور المرابطين فى المغرب وعبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس واستيلائه على غرناطة فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) [٣] — ثم قبض على آخر ملوكها عبد الله بن بلكين

---

(١) L. T. Balbas, Esquema demografico de la cuidad de Granada, Al-Andalus, Vol. XXI, Fasc. 1, p. 131.

(٢) ابن خلدون — العبر ج ٦ ص ١٨٠ ، انظر أيضـا : ابن الخطيب — الاحاطة ص ٥٢٥

Levi — Provençal, Un texte arabe inédit., Al-Andalus, Vol. III, Fasc. 2, p. 243.

(٣) دكتور السيد عبد العزيز — المغرب الكبير — العصر الاسلامى ص ٦٤٩ ، ابن الخطيب — الاحاطة — مخطوط مكتبة الاسكوريال الذى نشره ليفى بروفنسال فى مجلة :

Al-Andalus, Vol. IV Fasc. 1, p. 126.

ونلاحظ أن المؤرخين العرب قد اختلفوا فى كيفية استيلاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على غرناطة — فذكر بعضهم أن جيوشه وصلت الى مشارف المدينة بعد أن علم أن أميرها عبد الله بن بلكين قد تحالف سرا مع الفونس السادس ملك قشتالة وخصص له مبلغا من المال يدفعه للملك المسيحى كل سنة — فتقدمت جيوش المرابطين لوضع نهاية لهذا الحلف — فلما علم ملك غرناطة خشى قوة المرابطين فخرج مع والدته للقاء يوسف والترحيب به وصحبه الى المدينة فدخلتها جيوش الأمير المرابطى واستولت عليها دون قتال .

وقد ذكر ذلك ابن الخطيب فى الاحاطة كما رواها ليفى بروفنسال فى مجلة :

Al-Andalus, Vol. IV, Fasc I, p. 126.

=

الملقب بالمظفر بالله والناصر لدين الله وأخذه أسيرا الى اغمات فى بلاد المغرب . وعلى هذه الصورة انتهى ملك بنى زيرى من غرناطة وأصبحت المدينة منذ ذلك التاريخ مع اقليمها تكون جزءا هاما من أملاك المرابطين فى الأندلس شأنها شأن غيرها من مناطق اسبانيا الجنوبية .

ويرجع بناء السور الكبير الذى يدور حول مدينة غرناطة وقصبتها الى جهود كل من الأميرين حبوس بن ماكسن (٤١٦ — ٤٢٩ هـ = ١٠٢٥ — ١٠٣٨م) وابنه وخليفته باديس المظفر (٤٢٩—٤٦٧هـ=١٠٣٨ — ١٠٧٥م) [١] وعلى ذلك أصبحت غرناطة منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كبقية مدن الأندلس الاسلامية الهامة تضم داخل أسوارها القوية القصبة المنيعة والمناطق السكنية الأخرى .

استمرت مدينة غرناطة بعد ذلك تكبر ويزداد عمرانها حتى أصبحت فى عهد المرابطين والموحدين من بعدهم — (من أواخر القرن الخامس الى بداية القرن السابع الهجرى = الحادى عشر — الثالث عشر الميلادى) — من أهم وأكبر مدن الأندلس ، حتى لقد اتخذها الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف والى البلاد زمن شقيقه الأمير على بن يوسف مقرا له . ولعبت غرناطة فى هذه الفترة دورا هاما خلال الغارة المسلحة التى بدأها الفونســو الأول المحارب ضد أملاك المسلمين فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) واستمرت مدة خمسة عشر شهرا استطاع خلالها ملك أراجون بمعاونة المستعربين لاسيما نزلاء غرناطة منهم أن ينشر الذعر والخراب فى أملاك المسلمين ، كما تمكن من مهاجمة غرناطة وضرب الحصار عليها وكاد يقتحمها لولا قوة تحصيناتها وشجاعة المدافعين عنها والمدد الذى وصلهم من المغرب،مما اضطر المهاجمين الى رفع الحصار ومتابعة الحملة فى المناطق الأخرى الجنوبية ، حتى وصلت جيوشــهم الى مدينة « أرينسول » Arnisol جنوبى

= — انظر أيضا الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٤٢ — ١٤٣
— كذلك ذكر مثل هذه الرواية : يوسف أشباخ فى تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين — الترجمة العربية ص ٩٣
— بينما ذكر ابن خلدون أن يوسف اســتنزل صاحب غرناطة بعــد أن علم بتحالفه مع الملك المسيحى ضده وبذلك فتحت المدينة عنوة — العبر ج ٦ ص ١٨٧ انظر أيضا : السلاوى — الاستقصا ج ٢ ص ٤٨

(١) L. T. Balbas, Al-Andalus, Vol. XXI, Fasc. 1, p. 131.

غرناطة وعندها نشبت معركة كبيرة بين قوات ألفونســـو وجيوش الأمير تميم التى كانت تتعقبه وتتحين الفرصة للانقضاض عليه ، الا أن ملك أراجون استطاع أن ينتزع النصر فى النهاية من أعدائه الذين ألهتهم الغنائم بعد تفوقهم فى الضربة الأولى (صفر سنة ٥٢٠ = مارس سنة ١١٢٦) . وبعد هذا الانتصار واصلت الجيوش المسيحية تقدمها حتى ساحل البحر المتوسط قرب مدينة مالقه ومن هناك استدار الملك المنتصر وعاد الى مملكته فى الشمال دون أن يحقق شيئا اللهم الا تخريب المدن واحراق المزروعات ونشر الفوضى والذعر بين السكان المسلمين ، كما صحب معه فى العودة عدة آلاف من المستعربين الذين خشوا على أنفسهم نتيجة خياتهم للمسلمين ، كما طرد عدداً آخر منهم الى شمال افريقيا ونزلوا اقليمى مكناس وسلا [١] .

ومن ناحية أخرى فاننا نلاحظ أن أهمية غرناطة واتساع العمران فيها استمر فى زمن الموحدين باعتبارها قصبة من قصباتهم الهامة ؛ فقد بلغت مساحة المدينة المسورة فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة (الحادى عشر والثانى عشر للميلاد) ما يقرب من خمسة وسبعين هكتارا وكانت تضم أكثر من أربعة آلاف وأربعمائة منزل ، يقيم فيها أكثر من ست وعشرين ألف وأربعمائة نسمة[٢] .

وقد استمرت المدينة بعد ذلك فى النمو والزيادة فتضاعف عدد سكانها عدة مرات حتى بلغ ما يقرب من نصف مليون نسمة فى عهد ملوك بنى نصر ؛ بينما تقلص هذا العدد الى ثمانين ألف نسمة فقط بعد سقوط المدينة العظيمة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابلا فى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م)[٣] وهذا من غير شك يعطى صورة صادقة لما كانت عليه المدينة الاسلامية من الازدهار والتقدم . وكان ربض البيازين Albaicin الذى تشرف عليه قلعة الحمراء بواجهتها الشمالية من أهم أحيائها العربية وما زال هذا الربض قائما الى يومنا هذا يحمل اسمه الأول وطابعه الاســـلامى القديم بمنازله الصغيرة وشوارعه الضيقة .

---

(١) عن هذه الحملة العسكرية انظر كتاب الحلل الموشية « Al-Hulal Al Mawsiyya » الترجمة الاسبانية لأويتى ميراندا — ص ١٠٩ — ١١٥ « A. Huici Miranda »
انظر أيضا الاحاطة — ص ١١٤ وما بعدها .

(٢) L. Tarres Balbas, Al-Andalus, Vol. XXI, Fasc. 1 pp. 139—140.

(٣) The Encyclopaedia of Islam, Vol. II, p. 176.

فاذا كانت قرطبة قد نالت قصب السبق كعاصمة للأمويين بالأندلس لمدة تزيد على القرنين ونصف القرن ، وتبعتها أشبيلية لفترة أخرى تجاوزت المائة والستين عاما كحاضرة للبـــلاد زمن كل من المرابطين والموحدين ، فان مدينة غرناطة استمرت من بعدهما عاصمة لمملكة بنى نصر لفترة تتعدى المائتين والستين عاما ، بعد أن انحسر ملك المسلمين فى الأندلس داخل حدودها على أثر سقوط قرطبة عاصمة الخلافة الأموية سنة ٦٣٣ هـ (يونيو سنة ١٢٣٦م) ومن بعدها أشبيلية سنة ٦٤٦ هـ (نوفمبر ســـنة ١٢٤٨م) فى يدى فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون[١] ــ وبذلك حق لقاعدة المسلمين الجديدة وملاذهم بالأندلس أن تتيه على قرينتيها ، قائلة بلسان أحد أدباء الأندلس « أبو بحر صفوان بن ادريس » :

« لى المعقل الذى يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجرى الا تحته جياد الغيث السجوم ، فلا يلحقنى من معاند ضرر ولا حيف ، ولا يهتدى الىَّ خيال طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولا وفعلا ، فقد أفلح اليوم من استعلى . لى بطاح تقلدت من جداولها أسلاكا ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ، ومياه تسيل على أعطافى كأدمع العشاق ، وبرد نسيم يرددماء المستجير بالاتنشاق ، فحسنى لا يطمع فيه ولا يحتال .. فما لكم تعتزون لفخرى وتنتمون ، وتتأخرون فى ميدانى وتتقدمون ، تبرؤا الىَّ مما تزعمون ، ذلكم خـير لكم ان كنتم تعلمون »[٢] .

ولا شك أن حاضرة بنى الأحمر صادقة فيما ذهبت اليه من فخر وسمو وتيه على أقرانها من كبريات مدن الأندلس ، فموقعها ممتاز اذ تقع على سفح سلسلة جبال سيرانيفاد (Sierra Nevad) ــ « جبال الجليد » ، وتشرف من هذا المكان على الوادى الخصيب المتسع الممتد فى شمالها والذى وصفه الحميرى بأنه « أطيب البقاع نفعة وأكرم الأرضين تربة ولا يعدل به مكان غير غوطة دمشق وشارحة الفيوم »[٣] وتكسو هذه المساحات الواسعة البساتين الفيحاء وأشجار الفاكهة المختلفة ، كالتفــاح والرمان والتين والقسطل والكروم ، بجانب الخضر

(١) Pedro A. Bleye ; Manual de historia de Espana, T. I, pp. 677—679.

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦١

(٣) الحميرى : الروض المعطار ــ ص ٢٤

والحبوب لا سيما الحنطة والذرة ، كما تكثر به المواد الأفوية من العطور والطيب والعود وغيرها [١] . ومما يزيد من مكانة غرناطة وأهمية اقليمها أنه يوجد به مناجم للمعادن النفيسة والهامة كالذهب والفضة والحديدوالرصاص [٢] وغيرها ، وبجانب ذلك كله فقد اشتهرت هذه المنطقة بالمنسوجات الحريرية التى كان لها سوقا رائجة فى الأندلس والبلاد المجاورة بالاضافة الى الكتان « الذى يربو جيده على كتان النيل ويكثر حتى يصل الى أقاصى بلاد المسلمين » [٣] ومن هنا تأتى أهمية هذه الكورة الاقتصادية ، وغنى أهلها وافتخارهم بمكانتها وثروتها النباتية والطبيعية ، واعتدال مناخها وطيب نسيمها وحسن مقامها . وعلى ذلك فلا يذكر تاريخ اسبانيا الاسلامية الا ويقفز الى الأذهان اسم غرناطة ويلمع فى الخيال بريق حمرائها التى احتفظت بين يديها بشعلة العلم والفن وانتشر من فوق مناراتها نور المعرفة والحضارة العربيتين فى اسبانيا المسيحية ، بل وفى أوربا عامة ، قويا ساطعا وهاجا لحقبة طويلة من الزمن ، بعد أن انطفأ وخبت أضواؤه من فوق منابر قرطبة وأشبيلية وطليطلة وسرقسطة ، وغيرها من المدن الأندلسية المعروفة التى لعبت دورا هاما وبارزا فى تاريخ اسبانيا الاسلامية فى جميع فروع الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية والاقتصادية والفنية والعسكرية خلال القرون الثمانية التى استمر خلالها حكم العرب لهذه البلاد من أواخر القرن الأول الهجرى الى أواخر القرن التاسع (بداية القرن الثامن الميلادى الى أواخر القرن الخامس عشر) .

ويرجع ظهور مملكة غرناطة الى جهود رجل عربى طموح هو « محمد بن يوسف بن نصر » المعروف بابن الأحمر ، يتصل فى نسبة الأول بسعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد كبار صحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار . كان ابن الأحمر قوى الشخصية ، عالى الهمة ، كما كانت له مقدرة فائقة على مجابهة الأحداث والاستفادة منها كما يظهر من سيرته وتاريخ مملكته .

دخل أسلافه الأندلس مع جيوش الفتح واستقر مقامهم عند حصن أرجونة (Arjona) — (الى الشمال من غرناطة بالقرب من مدينة جيان Jaén) —

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ص ١٠٥ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١١٦

(٢) ابن الخطيب — الاحاطة ص ١٠٤ ، الحميرى — الروض المعطار ص ٢٤

(٣) الحميرى — الروض المعطار ص ٢٤ ، ابن الخطيب — الاحاطة — ص ١٠٥

ثم أخذت أسرة ابن نصر منذ ذلك الحين تتكاثر وتزداد عددا ، وتقوى مكانة حتى آلت زعامتها الى محمد هذا الذى عرف بالشيخ (١) .

وعندما ضعفت قبضة الموحدين على أملاكهم فى الأندلس فى مطلع القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) لا سيما بعد انتصار الفونسو الثامن (**Alfonso VIII**) ملك قشتالة وحلفائه من ملوك أسبانيا المسيحيين على محمد الناصر الخليفة الموحدى فى موقعة العقاب **Las Navas de Tolosa** سنة ٦٠٩ هـ (يوليو سنة ١٢١٢ م) (٢) ، وجـد عدد من كبار رجالات الأندلس الفرصة سانحة لشق عصا الطاعة على الموحدين ، فثاروا فى مناطق متعددة بالبلاد وحاولوا السيطرة على ما تحت أيديهم من أملاك الدولة والاستقلال بها عن السلطة المركزية فى مراكش عاصمة الخلافة الموحدية بالمغرب . وكان من بين هؤلاء الثوار محمد بن يوسف بن نصر الذى « طار اسمه فى الأندلس وآل ذلك أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم » (٣) فنصبه أهل أرجونة — مسقط رأسه — فى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) واليا عليهم ، ثم ما لبث أن دخلت فى حوزته أيضا مدينة جيان فى السنة التالية . ولما قتل أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود المتوكل على الله فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) الذى ثار بدوره على الموحدين فى مدينة مرسية واتخذها عاصمة لمملكته فى شرق الأندلس ، خشى أهل غرناطة — بعد مقتل أميرهم ابن هود — على مدينتهم من جيوش المسيحيين التى كانت فى تلك الأثناء تضغط بقوة على أملاك المسلمين فى محاولات شديدة ومتكررة لتمزيق وحدتها والاستيلاء عليها ، فاتصلوا بابن الأحمر أثناء وجوده فى جيان وبعثوا اليه ببيعتهم والدخول فى طاعته ، فاستجاب لرغبتهم وانتقل الى غرناطة واتخذها منذ ذلك الحين — فى سنة ٦٣٥ هـ — مقاما له وحاضرة لمملكته الجديدة (٤) .

---

(١) المقرى — نفح الطيب ج ١ ص ٤٢١

(٢) عن هذه الموقعة الكبيرة والحاسمة انظر :

A. Huici Miranda, Las Grandes Batallas de la Reconquista, pp. 253—278.

انظر أيضا — السلاوى — الاستقصاء ج ٢ ص ١٩٦ — ص ٢٠٠

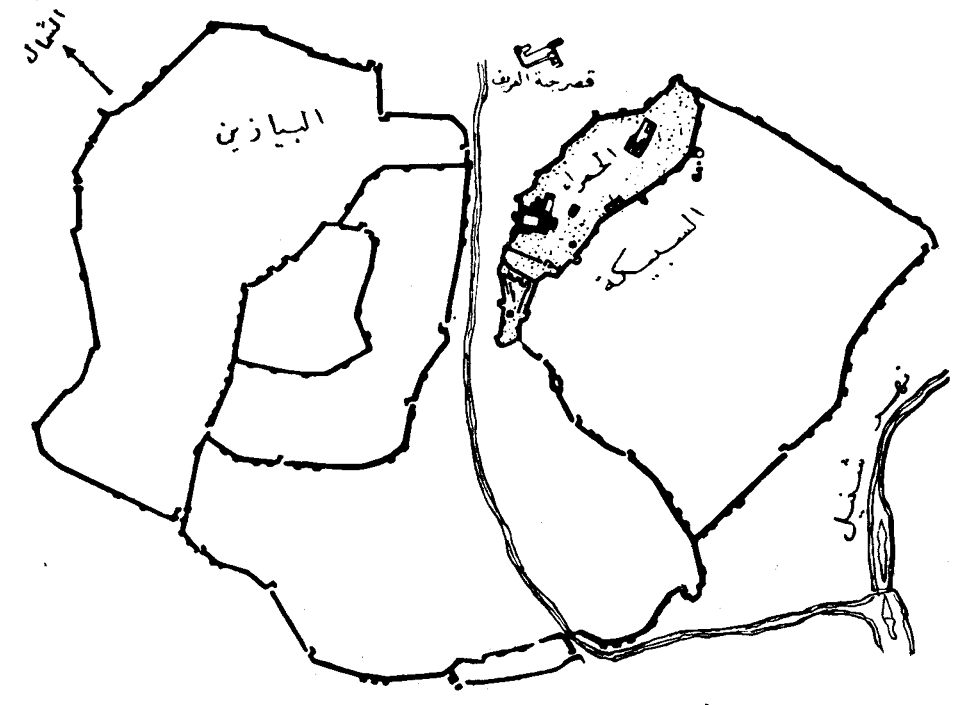
يوسف أشباخ — تاريخ الأندلس ص ٣٥٤ — ص ٣٧٣

(٣) المقرى — نفح الطيب — ج ١ ص ٢٠١

(٤) المرجع السابق — ج ١ ص ٤٢٢

انظر أيضا : ابن الخطيب — الاحاطة ص ١٤٧ — ١٤٨

ولم يتوان مؤسس مملكة غرناطة منذ وصوله الى مقره الجديد عن العمل بهمة ونشاط على تدعيم مركزه وتثبيت سلطانه وحماية نفسه وأسرته ضد أية محاولة من جانب أعدائه ومنافسيه للاطاحة به أو الثورة عليه ، فما وافت السنة التالية ٦٣٦ هـ (١٢٣٩ م) الا كان رأيه قد استقر على انشاء حصن يحتمى به ويلوذ اليه ، فركب من المدينة الى الأطلال المحيطة بها والمرتفعات القريبة منها يستكشف طبيعة أرضها ويختبر قوة مناعتها عله يجد من بينها مكانا يصلح لهذا الغرض ، فاستقر به المطاف فى نهـاية الأمر فى منطقة « السبيكة » فى الجانب الشمالى الشرقى من مدينة غرناطة (شكل ١) حيث كانت توجد أطلال احدى القلاع القديمة ، ووضع ابن الأحمر فى هذا الموضع المرتفع أساس حصنه الجديد « قصبة الحمراء » ثم أمر باقامة البناء والعمل على اتمامه بسرعة . ولم يغب عن ذهن هذا القائد المجرب توفير الماء اللازم لقصره فأمر بعمل سد على نهر حدرة (Darro) الذى كان يجرى فى الجهة الشمالية تحت أقدام التل الذى شيدت فوقه القلعة لتؤخذ منه المياه وترفع الى الحصن بواسطة سواقى . وقد أشار



موقع الحمراء بالنسبة إلى مدينة غرناطة
(شكل ١)

صاحب كتاب « البيان المغرب » الى ذلك بقوله : « وفيها (فى سنة ٦٣٦ هـ) ــ ركب أبو عبد الله بن الأحمر من غرناطة الى موضع الحمراء وأجال فيها نظره وخط أساس الحصن وجعل فيه من حفره وما تمت السنة الا والحصن مشيد البناء حصينه وقد جاءه من ماء الوادى برفع سد وحفر ساقية معينة [١] » وفى نفس الوقت الذى كان فيه العمل جاريا فى اقامة القلعة ، كان أمير غرناطة وحاكمها الجديد يوسع رقعة مملكته على حساب المدن والامارات الاسلامية المجاورة ، فضم اليه مدينتى مالقة وألمرية وأحوازهما ، وبذلك وصلت حدود دولته الى سواحل اسبانيا الجنوبية الشرقية ، كما شملت بعد ذلك فى سنة ٦٦٣ هـ مدينة لورقة من جهة الشرق [٢] .

ولم تفتر عزيمة محمد بن يوسف ولم يخلد الى الراحة والدعة ، بل استمر طيلة مدة حكمه التى امتدت الى ما يقرب من ست وثلاثين سـنة بعد دخوله غرناطة ، (٦٣٥ ــ ٦٧١ هـ =١٢٣٨ ــ ١٢٧٣ م) يقاتل لتحقيق مطامعه وأهدافه فى تأسيس مملكة قوية كبيرة ، مما دفعه الى خوض العديد من الحروب ، خاصة ضد بنى مرين أصحاب المغرب للاستيلاء على أملاكهم فى المناطق الجنوبية من اسبانيا . وقد استطاع الأمير الأندلسى أن ينتصر عليهم فى كثير من المعارك [٣] ، وبذلك ثبتت دعائم مملكته واستقر سلطانه وازداد نفوذه وذاعت شهرته فى المناطق المجاورة حتى وافاه الأجل فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) فخلفه ابنه وسميه محمد الثانى « الفقيه » (٦٧١ ــ ٧٠١ هـ = ١٢٧٣ ــ ١٣٠٢ م) الذى استكمل بناء القلعة (القصبة) واليه أيضا يرجع الفضل فى اتمام جانب كبير من أسـوار الحمراء [٤] . وتولى أمر المملكة من بعده ابنه أبى عبد الله محمد الثالث المخلوع (٧٠١ ــ ٧٠٨ هـ = ١٣٠٢ ــ ١٣٠٨ م) « وكان من أعظم أهل بيته صيتا

---

(١) ابن عذارى ــ البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب جـ ٤ ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣

انظر أيضا الترجمة الاسبانية لاويثى ميراندا .

A. Huici Miranda ; Al-Bayan Al-Mugrib Fi Ijtisar Ajbar Muluk Al-Andalus Wa Al-Magrib, Los Almohades, Tomo II, p. 125.

(٢) المقرى ــ نفح الطيب جـ ١ ص ٤٢٢

(٣) المرجع السابق ــ ص ٤٢٣

(٤) **Ars Hispaniae, Vol. IV, p. 84.**

وهمة »[١] ، كما اشتهر فى نفس الوقت بالغلظة والقسوة فى معاملة الرعية مما دفع أهل غرناطة للتآمر عليه واقصائه عن الحكم فى شوال سنة ٧٠٨ هـ وتنصيب أخيه أبى الجيوش نصر حاكما على البلاد . ولم يمكث محمد الثالث بعيدا عن الحكم مدة طويلة ودبرت له مؤامرة جديدة أودت بحياته حيث مات غريقا فى أوائل شوال سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) بعد سنتين تقريبا من خلعه[٢] .

والى هذا الأمير المخلوع يرجع الفضل فى بناء المسجد الجامع بالحمراء وتزيينه وتجميله، حتى وصفه الوزير الأديب ابن الخطيب «.. بالظرف والتنجيد والترقيش وفخامة العمد واحكام أنوار الفضة وابداع ثراها »[٣] . وقد ظل هذا المسجد قائما حتى النصف الثانى من القرن العاشر للهجرة (السادس عشر الميلادى) ، عندما أزيل فى زمن الامبراطور فيلب الثانى بن شارلكان ، وبنى مكانه كنيسة سانت ماريا الحالية Santa Maria[٤] كذلك بنى الأمير محمد الثالث (المخلوع) حماما بازاء المسجد وجعله وقفا عليه[٥] ، وقد تهدم هذا الحمام بدورة وظلت أطلاله فى مكانها أثرا باقيا تشهد على وجوده .

وقد تعاقب على حكم غرناطة بعد هؤلاء الثلاثة الأول ثمانية عشر سلطانا، تولى بعضهم أمر المملكة أكثر من مرة لصغر السن أو قلة الحيلة أو ضعف قبضتهم على البلاد ، بينما كان بعضهم الآخر على جانب كبير من الذكاء والقوة والسطوة والثروة ، حتى يمكننا أن نتخيل هذه الفترات المزدهرة اللامعة فى تاريخ غرناطة ، ومظاهر الغنى والجاه ، وصور النعمة السابغة الرائعة التى كان يحياها هؤلاء السلاطين ، نتخيل كل ذلك واضحا جليا فى مظاهر الطبيعة الفاتنة ممثلة فى بساتين الحمراء وحدائقها وخمائلها وكثرة قاعاتها وأبهائها التى تفنن المسلمون فى اخراجها ، وأبدعوا فى زخرفها وأفرطوا فى زينتها ، فغدت صورة صادقة لألوان

---

(١) ابن الخطيب ــ الاحاطة ــ ص ٥٥٢

(٢) المرجع السابق ص ٥٦٠ ــ ٥٦٢

(٣) المرجع السابق ص ٥٥٤ ــ ٥٥٥

انظر أيضا : محمد عبد الله عنان ــ الآثار الأندلسية الباقية ص ١٦٠ ، ص١٧٥

(٤) **L. Torres Balbas ; Cronologia de las construcciones de la Casa Real de la Alhambra, Al-Andalus, Vol. XXIV, Fasc. 2, p. 402.**

انظر أيضا : محمد عبد الله عنان ــ الآثار الأندلسية الباقية ص ١٧٦

(٥) ابن الخطيب ــ الاحاطة ــ ص ٥٥٥

الجمال التى كان يعبق بها جو هذا القصر المنيف ، والنعمـــة الموفورة والترف البالغ اللذين كان يتمتع بهما ملوك غرناطة .

وقد بلغت هذه المملكة ذروة مجدها الســياسى والحضارى وقمة نضجها الفكرى والأدبى خلال القرن الثامن من الهجرة (الرابع عشر الميلادى) خاصة فى سلطنة كل من أبى الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ ــ ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ ــ ١٣٥٤ م) « لباب هذا البيت وواسطه هذا العقد وطراز هذه الحلية [١] » ، وابنه محمد الخامس الغنى بالله الذى حكم على فترتين (٧٥٥ — ٧٦٠ هـ ، ٧٦٣ ــ ٧٩٣ هـ = ١٣٥٤ ــ ١٣٥٨ م ، ١٣٦٢ ــ ١٣٩١ م) . وقد وزر لهما لسان الدين بن الخطيب ، وهو الذى يعتبر بحق مثالا صادقا لعصر التقدم والازدهار فى تاريخ غرناطة ، بصورة خاصة ، وعلما من أعلام المسلمين فى الأندلس بصورة عامة ، حتى خصة الأديب والمؤرخ المغربى « أحمد بن محمد المقرى » الذى عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، بالجزء الأكبر من كتابه المعنون بـ « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » وهو مرجع من أهم المراجع فى تاريخ المسلمين السياسى والأدبى بالأندلس .

كان ابن الخطيب من غير شك ، عبقرية متشعبة النواحى « فهو طبيب ، وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول ، وهو مؤرخ بارع ، وهو أخيرا وزير وسياسى ثاقب النظر قوى الادراك » [٢] ، ترك آثاره واضحة فى مؤلفاته الضخمة المتعددة التى خلفها لنا ، والتى دار معظمها عن تاريخ مملكة غرناطة التى تقلد فى زمن أعظم سلاطينها أرفع مناصبها . ومن أشهر كتبه التى تجاوزت الخمسين مؤلفا كتاب الاحاطة فى اخبار غرناطة ، التـــاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى ، وهو مختصر لكتابه السابق (الاحاطة) ، اللمحة البدرية فى الدولة النصرية وهو كما يظهر من عنوانه يعالج تاريخ دولة بنى نصر ملوك غرناطة ، وكذلك كتبه : طرفة العصر فى تاريخ بنى نصر ، ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، بستان

---

(١) ابن الخطيب ــ الاحاطة ص ١٤٨

(٢) ابن الخطيب ــ الاحاطة ــ انظر المقدمة التى كتبها محقق الكتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان ص ٣١

الدول وهو كتاب عن السياسة ، السحر والشعر ، وهو كتاب حوى مجموعة من قصائد كبار الشعراء فى المشرق والمغرب على السواء أمثال : ابن نباتة وابن الرومى وابن المعتز والبحترى وابن عبدون وابن صمادح وابن هذيل وغيرهم . وكتابه عن الطب المعنون باسم : عمل من طب لمن حب [١] .

وقد جاءت كتابات ابن الخطيب فى « الاحاطة » عن العظمة والتقدم اللذين بلغتهما غرناطة ، صورة صادقة لعصره ، انطبعت مظاهرها على حياة الناس ، وطرق معيشتهم فى جميع النواحى السياسية والحربية والدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان الرخاء والثراء والترف والمتعة محور هذه الحياة التى بلغت من الافتنان والبذخ حدا بعيدا .

ولقد كانت المرأة فى كل زمان ومكان هى عنوان المجتمع ومرآته الرقيقة التى تعكس حياتها الخاصة والعامة معا ، درجة التقدم والحضارة التى وصل اليها هذا المجتمع والمدى الذى بلغه أفراده من رقة الشعور وتهذيب النفس والقدرة على الاحساس بالجمال وتذوق الفن فى صوره المتعددة . ومما يؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ الأديب ابن الخطيب عن نساء غرناطة اذ يقول :

« وحريمهم حريم جميل ، موصوف بالسحر وتنعم الجسوم واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب النشر وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، الا أن الطول يندر فيهن ، وقد بلغن من التفنن فى الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبغات ، والتنفيس بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن فى أشكال الحلى الى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ، ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفى لطفه ، بعزته وقدرته » [٢] .

وقد أبرز لنا هذا النص مدى تفنن نساء غرناطة فى استعمال أدوات الزينة المختلفة والحلى والمجوهرات النفيسة وأنواع الملابس الفاخرة التى اشتهر بها

---

(١) عن مؤلفات ابن الخطيب وأهميتها انظر : الاحاطة ـ المقدمة من ص ٦٨ الى ص ٧٨

(٢) الاحاطة ـ ص ١٤٤ ـ ١٤٥

الاقليم كالحرير والكتان ، وغيرها من مظاهر الغنى والترف والجمال التى تعبر عن سمو الفنون والصناعات وتؤكد مدى التقدم الذى بلغه أهل غرناطة فيها .

ومن ناحية أخرى ، لم يغفل ابن الخطيب فى كتاباته صفة الرجال من سكان غرناطة ، كما عدّد قبائلهم ، كذلك تحدث عن شجاعة جندها من العرب والبربر على السواء ، فوصف ملابسهم وأسلحتهم ودروعهم وتطورها حتى تساير ما كان عليه الحال فى جيوش أعدائهم ملوك أسبانيا المسيحيين ، وفى ذلك يقول : « وجندهم صنفان ، أندلسى وبربرى ، والأندلسى منها يقودهم رئيس من القرابة أو خصى من شيوخ الممالك ، وزيهم فى القديم شبه زى أقتالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج ، اسباغ الدروع ، وتعليق الترسة ، وحفا البيضات ، واتخاذ عُراض الأسنة ، وبشاعة قرابيس السروج ، واستركاب حملة الرايات خلفه ، كل منهم بصفة تختص بسلاحه ، وشهرة يعرف بها . ثم عدلوا الآن عن هذا الذى ذكرنا ، الى الجواش المختصرة ، والبيضات المرهفات ، والسروج العربية ، والبيب اللمطية ، والأسُل العطفية » .

كذلك يظهر بجلاء ثراء ملوك غرناطة وبذخهم وتقدم الصناعات المختلفة فى مملكتهم ، كصناعة الحلى والأوانى المنوعة وآلات الحرب والقتال التى كانت من ألزم الصناعات وأهمها بالنسبة الى ظروف المملكة وما انتهى اليه حال المسلمين فى الأندلس فى عصور المملكة الأخيرة ، يظهر ذلك كله واضحا فى حديث صاحب « نفح الطيب » عما كانت تضمه خزائن الحمراء بين جدرانها من النفائس والثروة والأسلحة عند استسلامها للملكين الكاثوليكيين فيقول :

« .. كانت خزانة هذه الدار النصرية مشتملة على كل نفيسة من الياقوت ، ويتيمة من الجوهر وفريدة من الزمرد وثمينة من الفيروزج ، وعلى كل واق من الدروع وحام من العدة وماض من الأسلحة وفاخر من الآلة ونادر من الأمتعة فمن عقود فذة وسلوك جمة وأقراط تفضل على قرطى مارية نفاسة فائقة وحسنا رائقا ، ومن سيوف شواذ فى الابداع ، غرائب فى الاعجاب ، منسوبات الصفائح فى الطبع ، خالصات الحلى من التبر ، ومن دروع مقدرة السرد ، ملاحمة النسج واقية للناس فى يوم الحرب ، مشهورة النسبة الى داود نبى الله ، ومن جواشن

سابغة اللبسة ، ذهبية الحلية ، هندية الضرب ، ديباجية الثوب ، ومن بيضات عسجدية الطرق، جوهرية التنفيذ ، زبرجدية التقسيم ، ياقوتية المركز ، ومن مناطق لجينية الصوغ عريضة الشكل مزججة الصفح ، ومن درق لمطية ، مصمته المسام ، لينة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ، ومن قسى ناصعة الصبغة ، هلالية الخلقة ، منعطفة الجوانب ، زارية الحواجب ، الى آلات فاخرة من أوتار نحاسية ، ومنابر بلورية ، وطيافير دمشقية ، وسبحات زجاجية ، وصحاف صينية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيرية ، وسوى ذلك ما لا يحيط به وصف ولا يستوفيه العد .. » [١]

وبالرغم من كل هذه النعمة والغنى والقوة ، فان غرناطة لم تستمر طويلا تنعم بالحياة المستقرة الهادئة لأن حرب الاسترداد La Riconquista التى تزعمتها مملكتا قشتالة وأراجون أخذت تزداد وتشتد على أطراف المملكة ، مما دفع جميع مسلمى الأندلس الى ترك مدنهم واللجوء الى أحواز العاصمة . وفى نفس الوقت بلغ التنافس والتنازع على النفوذ والسلطان بين أفراد البيت المالك أشده ، مما دفع بعضهم الى طلب العون والمساندة من الممالك المسيحية لتحقيق أطماعهم الشخصية ، ولكن أعداءهم كانوا « يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد » [٢] فاضطربت أحوال البلاد وكثرت المؤامرات وانحسرت حدود المملكة الواسعة فى آخر الأمر داخل أسوار عاصمتها ، فضربت جيوش الملكين المسيحيين عليها حصارا شديدا محكما فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ (ابريل سنة ١٤٩١ م) ، وكلما اشتد الحصار زادت نار الفتنة اشتعالا ، ووجد اليأس والقنوط طريقهما الى قلوب المسلمين نتيجة للجوع والغلاء . وفى النهاية تآمر السلطان أبو عبد الله محمد بن على بنفسه Boabdil على تسليم المدينة وقلعتها الحصينة ، فى مقابل شروط معينة أهمها : تأمين السكان وأموالهم ومتاعهم — اطلاق جميع الأسرى من أهل غرناطة المسلمين — ترك الحرية للمسلمين لمزاولة شعائرهم الدينية فى المساجد — عدم التعرض لهم اذا رغبوا فى العبور الى العدوة (المغرب) ؛ الى غير ذلك من الشروط [٣] .

(١) المقرى — نفح الطيب جـ ٦ ص ٢٥٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٤

(٣) عن هذه الشروط انظر المقرى — نفح الطيب جـ ٦ ص ٢٧٧ — ٢٧٨

وقد أرسلت هذه الشروط مع سفارة سرية الى ملك قشتالة الذى وافق عليها وطلب بدوره تقديم خمسمائة من كبار رجال المسلمين كرهائن ، فأجيب الى طلبه [1] فتقدمت قوة مسيحية نحو قصر الحمراء وتسللت الى داخله دون مقاومة . فتلقى السلطان أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) قائدها فى برج قمارش Torre de Comares وسلمه مفتاح القلعة فقط دون مفتاح المدينة [2] ـ فعاد القائد الى معسكر سيده الذى كان يبعد بحوالى اثنى عشر كيلومترا عن أسوار المدينة وصحبه والملكة ايزابلا الى الحمراء فدخلها فرناندو وايزابلا مع جيوشهما فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير سنة ١٤٩٢ م) فأقيمت مراسم احتفال تسليم المدينة ورفع العلم المسيحى والصليب بعد أن أنزل العلم الغرناطى فوق برج الحراسة Torre de la Vela الذى يتوسط مبنى القصبة القديمة باعتباره أكبر وأعلا أبراج الحمراء قاطبة . وبذلك انتهى آخر مظهر من مظاهر السيادة الاسلامية بالأندلس بعد أن ظلت ما يقرب من ثمانية قرون تخضع لحكم المسلمين الذين سطروا خلالها فى تاريخ هذه البلاد سجلا حافلا بالفخار والمجد والرفعة فى جميع فروع الحياة ومظاهر الحضارة المختلفة .

وبعد سبع سنوات من تسليم غرناطة واستقرار الحكم للمسيحيين ، نقض الملكان الكاثوليكيان شروط التسليم وألزموا المسلمين الذين ظلوا فى مدينتهم على اعتناق النصرانية مما دفع أهل البيازين للثورة على حكامهم ، ولكنهم أخذوا بشدة وقسوة شأنهم فى ذلك شأن جميع المسلمين ، مما اضطرهم فى النهاية الى الهروب والفرار لبلاد المغرب حيث نزلوا فاس وغيرها من المدن ، حتى خلت الأندلس بعد فترة آخرى من المسلمين [3] ، بينما ارتد المستعربون عن الاسلام وعادوا الى دين المسيحية ، وهم الذين عرفوا منذ زمن الدولة الأموية وعصر الطوائف بحقدهم على المسلمين وكيدهم لهم .

قصر الحمراء (La Alhambra)

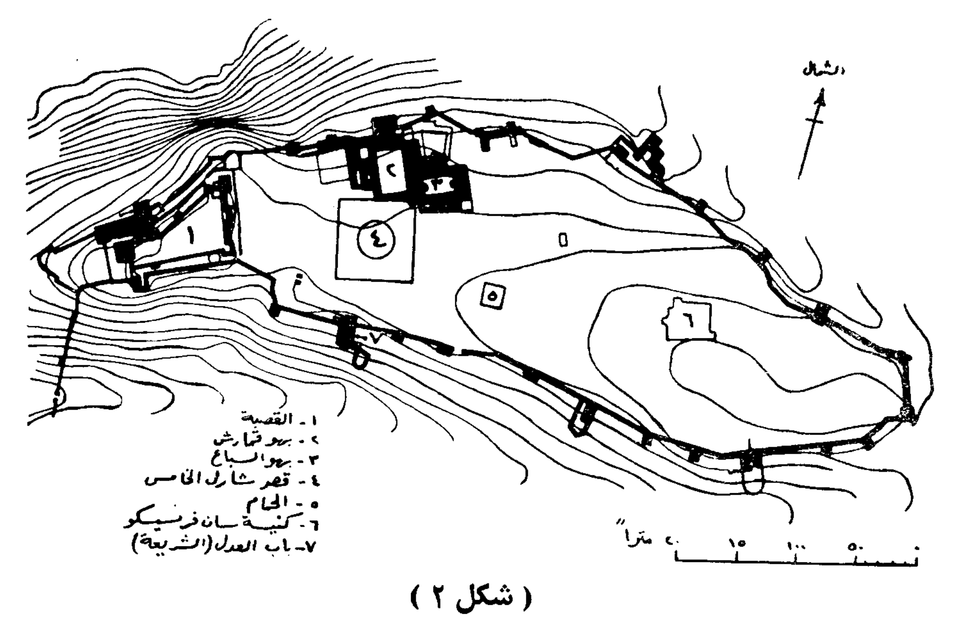
أما قصر الحمراء فهو دون منازع من أهم بل انه أعظم آثار المسلمين بالأندلس دارت حوله القصص ، وشهدت قاعاته ألوانا عده من العز والنعمة والجمال ، جنبا

(١) نفس المرجع جـ ٦ ص ٢٧٧

(٢) Al-Andalus, Vol. XX, Fasc. 2, p. 309.

(٣) المقرى ـ نفح الطيب ـ جـ ٦ ص ٢٧٩

الى جنب مع الحوادث والأحداث المثيرة . ويعرف هذا القصر اليوم فى اسبانيا والعالم أجمع باسم « الهامبرا » La Alhambra ويربض ذلك القصر بين سلسلة جبال الثلج « سيرا نيفادا » على ربوة مرتفعة شرقى غرناطة ، يشرف منها على ربض « البيازين » أشهر وأكبر أرباض العاصمة . ويعتبر هذا القصر — فى الحقيقة — بمثابة قلعة محصنه أو مدينة ملكية منيعة « Une sorte de ville royal dominant »[1] بالنظر الى أسواره الضخمة وأبراجه المتعددة ومرافقه المتنوعة (شكل ٢) .



(شكل ٢)

أسوار الحمراء الخارجية بأبراجها العديدة وأهم المبانى الداخلية
(نقلا عن تورس بلباس)

شيد هذا القصر على مساحة غير منتظمة — تكاد تكون بيضاوية الشكل ، يصل أقصى طولها من الغرب الى الشرق ٧٤٠ مترا بينما يبلغ أكبر اتساع لها ٢٢٠ مترا عند الوسط تقريبا[2] أى أنه يحتل مساحة ثلاثين (٣٠) دونما تقريبا عما فيه القصبة القديمة التى توجد فى أقصى الطرف الغربى .

(١) G. Marçais, Manuel d'Art Musulman, T. II, p. 534.

(٢) Ars Hispaniae, Vol. IV, p. 83.

ويعتبر قصر الحمراء سجلا لتاريخ أسرة بنى نصر ، ملوك غرناطة الذين امتد حكمهم على هذا الجزء من الأندلس الى أكثر من قرنيين ونصف من الزمان . وقد بدأ باقامة الجزء الغربى المعروف بالقصبة من هذه « المدينة » العظيمة السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر — مؤسس هذه الدولة — بعد دخوله غرناطة فى سنة ٦٣٥هـ كما مر بنا من قبل ، وأتمها من بعده آبنه محمد الثانى الذى حكم ما يقرب من ثلاثين سنة ، واليه ينسب أيضا بناء جانب كبير من الأسوار الممتدة إلى الشرق من القصبة حول « المدينة الكبيرة » ثم استكمل خلفاؤهما بقية الأسوار كما أقاموا الكثير من المنشآت والمرافق الداخلية كالمسجد والحمام وغيرهما .

أما المبانى الحربية الأخرى كالأسوار والأبراج والبوابات ، وكذلك المنشآت المدنية التى ما تزال تحتفظ بجلالها وروائع زخرفتها كالقاعات والأبهاء والحمامات والقباب ، فمعظمها يرجع الى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف الأول وولده وخليفته محمد الخامس الغنى بالله كما أوضحنا فى الصفحات السابقة ، واليهما أيضا يرجع الفضل فى أبراز عظمة الحمراء وفخامتها حتى أصبحت بحق صفوة ما أخرجته العمارة الاسلامية فى الأندلس .

ولم تقف أعمال البناء والاضافة والتقوية والترميم بعد هذينَ الملكين بل ظلت الحمراء طيلة عهود خلفائها تحظى بالعناية والرعاية والاهتمام من جميع السلاطين باعتبارها منزلهم ومركز السلطة فى المملكة ، وقد استمر ذلك الاهتمام حتى قبيل سقوطها فى أيدى الملكين الكاثوليكيين عندما أمر السلطان سعد المستعين بالله أبن على فى ولايته الثانية (٨٥٧ — ٨٦٦هـ — ١٤٥٣ — ١٤٦١م) بزيادة تحصين وتقوية بعض أبوابها الضخمة فى أسوارها الشمالية والجنوبية [١] .

وللوصـــول الى الحمراء — على الأقدام — لابد للزائر من قطع الطريق المنحدر المجهد الذى يصل بين أسفل الربوة وقمتها التى تنتصب فوقها القلعة بأسوارها وأبراجها وقبابها العديدة الرشيقة ، وينتهى هذا الطريق من أعلاه

---

(١) Ars Hispaniae, Vol. IV. p. 85.

عند باب الشريعة (أو باب العدل) (Puerta de la Justicia) (شكل ٣) الذى أنشأه السلطان أبو الحجاج يوسف الأول فى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) . ويعتبر هذا الباب المدخل الرئيسى الحالى للحمراء ، كما كان من أهم أبوابها القديمة أيضا . والمدخل داخل برج مربع ضخم تتقدمه فتحة معقودة بعقد « منفوخ متجاوز » يوصل الى الباب الذى يعلو عقده لوحة رخامية عليها سطران من الكتابة النسخية تتضمن اسم الباب واسم منشئه وتاريخ البناء مع بعض عبارات الدعاء [1] . والى عصر هذا السلطان أيضا — أبو الحجاج يوسف الأول —

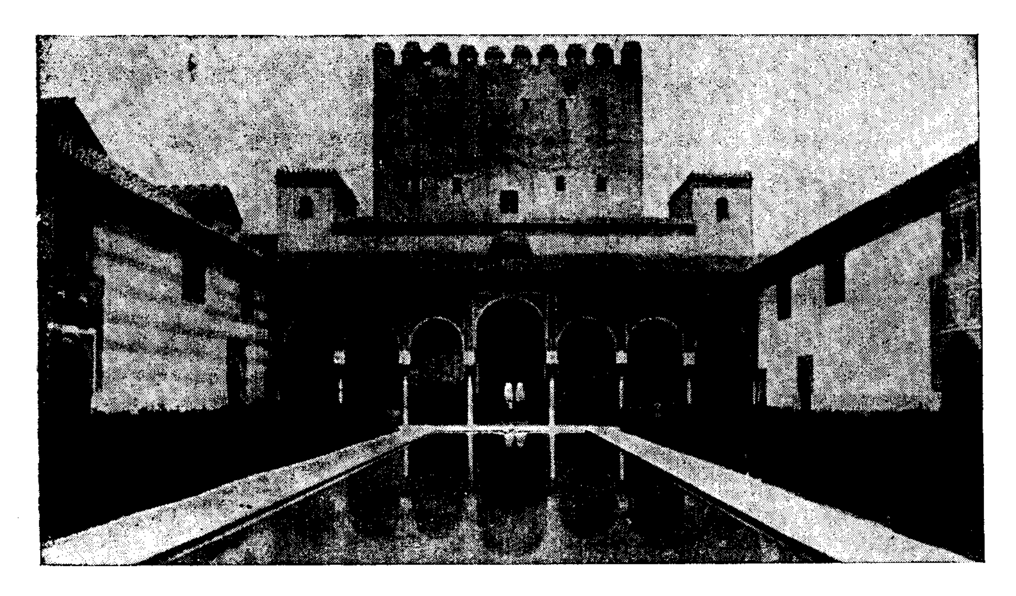


(شكل ٣)

باب العدل (الشريعة) المدخل الحالى للحمراء
(من تصوير المؤلف)

(١) محمد عبد الله عنان — الآثار الأندلسية الباقية — ص ١٥٦

يرجع بناء باب الغندور القائم فى السور الجنوبى والذى يعرف حاليا باسم (باب الطباق السبع) (Puerta de Siete Suelos) بالاضافة الى مجموعة من الأبراج التى تتخلل السور الشمالى وهى : برج المطرقة (Torre de la Machuca) — وبرج المتزين (Torre del Peinador) — وبرج القنديل (Torre del Candil) وبرج الأسيرة (Torre de la Cautiva) —وبرج قمارش (Torre de Comares)(١) الذى يعتبر جزءا من القصر العربى القديم (شكل ٤) وتعد قاعة هذا البرج



(شكل ٤)

بهو البركة (الريحان) وظهر المدخل المؤدى الى قاعة قمارش (أو قاعة السفراء) (نقلا عن تورس بلباس)

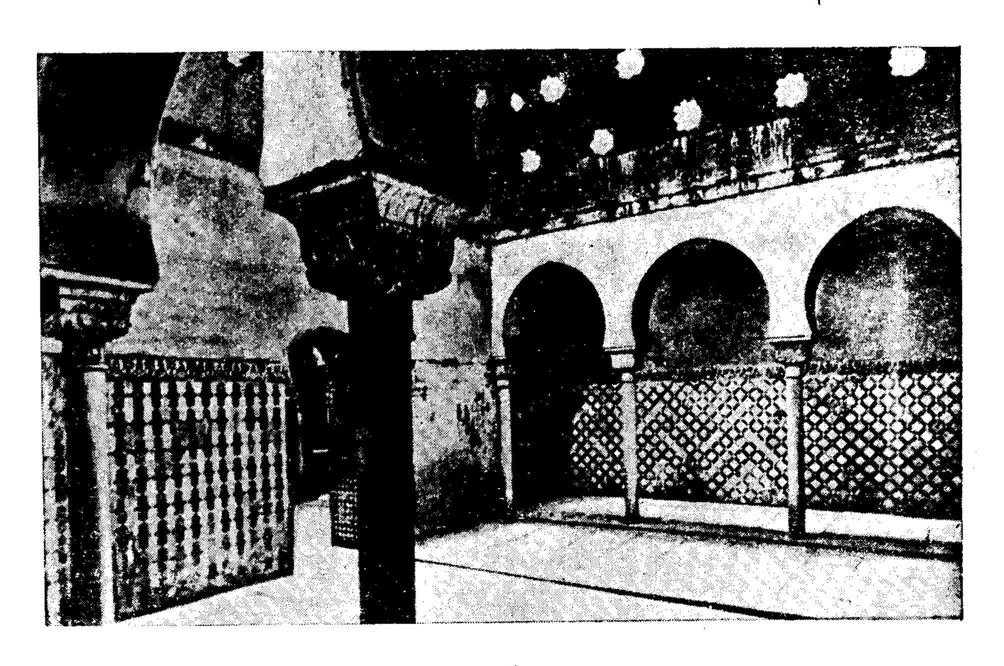
الأخير من أفخم وأكبر قاعات الحمراء لكثرة زخارفها وتنوعها ودقتها وجمالها — وهذه القاعة هى التى التقى فيها السلطان أبو عبد الله محمد آخر ملوك غرناطة بالملكين الكاثوليكيين لاتمام مراسم تسليم القصر والمدينة — كما أشرنا من قبل .

كذلك أقام هذا السلطان أبو الحجاج الحمام الملكى وكسا جدرانه الداخلية من أسفلها بالقيشانى الملون ، بينما جعل سقفه على شكل قبة تتخللها فتحات

---

(١) Al-Andalus, Vol. XXIV, Fasc. 2, pp. 403—404.

صغيرة تسمح بدخول الضوء وتسرب الهواء (شكل ٥) . وقد وجد فى احدى فتحات حجرة المياه الســـاخنة بهذا الحمام لوحة رخامية عليها كتابه شعرية تتضمن اسم السلطان [١].



(شكل ٥)

جانب داخلى من بناء الحمام الملكى
(نقلا عن تورس بلباس)

واذا دلف الزائر من باب الشريعة الى الحمراء فانه يجد نفسه فى حوش متسع ، الى يساره (جهة الغرب) توجد القصبة القديمة بأسوارها الحصينة الضخمة التى يسير فى محازاتها من الداخل ممر حجرى يرتفع الى قرب نهاية السور لتسهيل مهمة المدافعين فى اصطياد المهاجمين . فاذا اتجهنا الى اليمين (ناحية الشرق) فان الزائر عليه أن يقطع المسافة العرضية للحمراء حتى يصل الى قرب السور الشمالى حيث يوجد مدخل القصر العربى القديم .

وأهم الملاحظات التى تسترعى انتباه الزائر لهذا القصر أن تخطيطه ليس له محور معلوم أو نظام معين كما هو الحال فى بناء القصـــور ، كما أنه لا

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠٤

يتكون من عدة طوابق يعلو بعضها البعض كما يتبادر الى الذهن ولكنه فريد فى تخطيطه وتصميمه وبنائه اذ أنه يتكون من مجموعات من القاعات والأبهاء رصت بجانب بعضها البعض ، دون الالتزام بقاعدة ثابتة أو تخطيط منتظم واضح ، وربما كان ذلك راجعا الى طبيعة الأرض الجبلية التى شيد البناء عليها ، والتى فرضت على البناء عدم الالتزام بالتماثيل واتباع الأصول الهندسية المعروفة فى التخطيط والهندسة ، ولكن البنائين استطاعوا أن يتغلبوا على هذه الظروف الطبيعية ، بل استغلوها أحسن استغلال ، وجعلوا للقصر أجنحة متفرعة بصورة لم تؤثر على جمال اخراج المبانى ودقة تنسيقها ، مع العناية الفائقة بتزيينها وزخرفتها . ومن جهة أخرى فان من أهم مميزات هذا القصر أيضا استغلال المهندس والبناء للأبراج التى تتخلل الأسوار الشمالية بصورة خاصة ، القريبة والبعيدة من أجنحة القصر ، فقد استغلوها لزيادة عدد قاعاته فزخرفت هذه القاعات ، وأصبحت من أجمل وأعظم مبانى القصر ، كما هو الحال فى برج قمارش وبرج الأسيرة وبرج الأميرات (Torre de las Infantas) وغيرها .

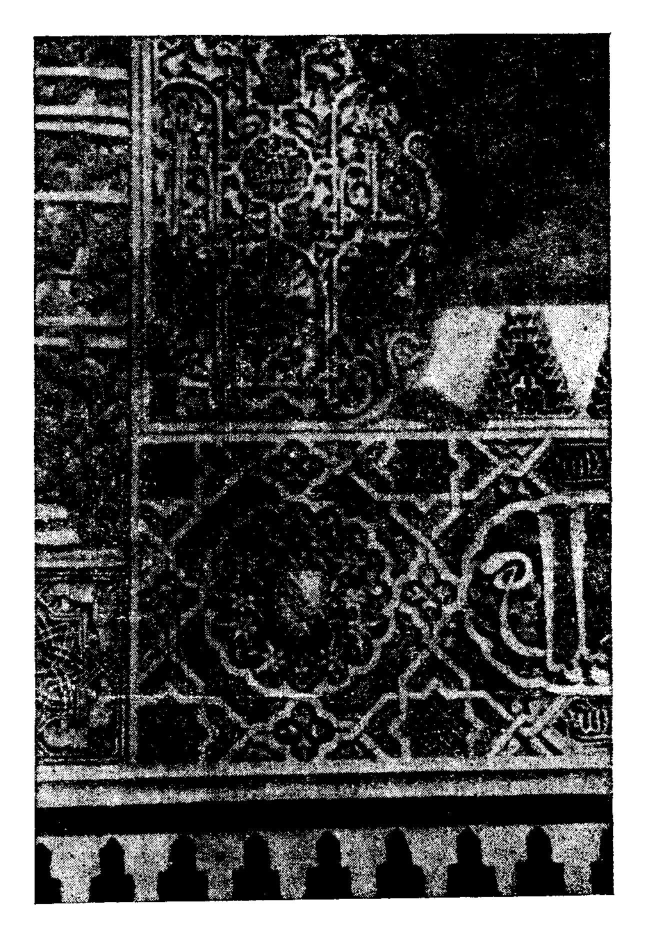
ولا يتسع المجال هنا للحديث بالوصف والتفصيل عن كل قاعات الحمراء وأبهائها ، ولكن يكفى أن نشير الى بعضها كمثال لنلمس مدى عظمة المبانى ودقة النقوش وتنوع الزخارف ورقتها ، وكلها تدل من غير شك على قمة ما بلغته حياة الترف والنعمة الموفورة والبذخ والافراط فى النفقات ، ومظاهر الجمال والمتعه التى كانت تشع فى أجواء هذا القصر الخالد ، فى عهد أولئك السلاطين الذين سطروا باحرف من نور صفحة من أجل صفحات الفن العربى وأروعها ، ستظل باقية فى سجل تاريخهم التليد ، شاهدا ودليلا على عظمة المسلمين وتقدمهم فى مجالى العمارة والفنون على السواء .

ومن أهم وأكبر أبهاء قصر الحمراء بهو الريحان أو بهو البركة كما يعرف حاليا عند الأسبان (Patio de los Arrayanes & de la Alberca) وهو البهو الذى يتقدم برج قمارش (أنظر شكل ٤) . وقد اكتسب اسمه من البركة الكبيرة التى تتوسطه والتى تحيط بها أشجار الريحان . وعلى جانبيه الشمالى والجنوبى رواقان يطل كل منها على البركة بسبعة عقود ترتكز على أعمدة رخامية رشيقة ، العقد الأوسط منها أكثر اتساعا وارتفاعا ، وقد نقشت

على واجهات العقود جميعا زخارف جصية جميلة . ويوصل الباب الذى يتوسط الرواق الشمالى الى قاعة قمارش التى تشغل أسفل البرج ، وهى من أعظم وأفخم قاعات القصر حتى أنه يقال أنه كان يوجد بها عرش السلطان يوسف الأول أبى الحجاج منشئها ، فكان يجتمع فيها برجال الدولة ويقابل بها الوافدين للقائه من البلاد الأخرى فاطلق عليها أيضا اسم قاعة السفراء (Sala de los Embajadores) وقد فتحت فى جدرانها الثلاثة الشرقية والغربية والشمالية عند مستوى الأرض ثلاث نوافذ كبيرة فى كل جدار ، كما كسيت جميع جدرانها الداخلية بزخارف نباتية وهندسية مختلفة مع أفاريز عديدة من الكتابات العربية بالخط النسخى البديع ، نقشت فوق أرضية من الزخرفة النباتية الرائعة المعروفة باسم التوريق (أرابسك Arabesco) تتضمن اسم السلطان أبى الحجاج يوسف الأول وعبارات الدعاء له مثل « عز لمولانا أبو الحجاج عز نصره » ، « الحمد لله على نعمة الاسلام » ، « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى الحجاج أمير المسلمين نصره الله » بالاضافة الى آيات عديدة من القرآن الكريم وأبيات من الشعر . كذلك نقشت بكثرة ظاهرة عبارة « ولا غالب الا الله » وهى شعار بنى نصر ، الذى لا يخلو منه حائط فى جميع انحاء القصر ، والتى أصبحت شعارا زخرفيا واسع الانتشار نلقاه فى المشرق والمغرب ، وفى المبانى الاسلامية وغير الاسلامية على السواء . (أنظر شكل ٦) . أما الأجزاء السفلى من الجدران فقد غطيت بالقاشانى الملون بمختلف الألوان ، كالأزرق والأبيض والأخضر والأحمر وغيرها ، بحيث تكون أشكالا زخرفية هندسية رائعة . وأما سقف القاعة فهو على شكل قبوة من الخشب نقشت بزخارف هندسية غاية فى الجمال والاتقان وما تزال الى الآن محتفظة برسومها ونقوشها وألوانها الأولى .

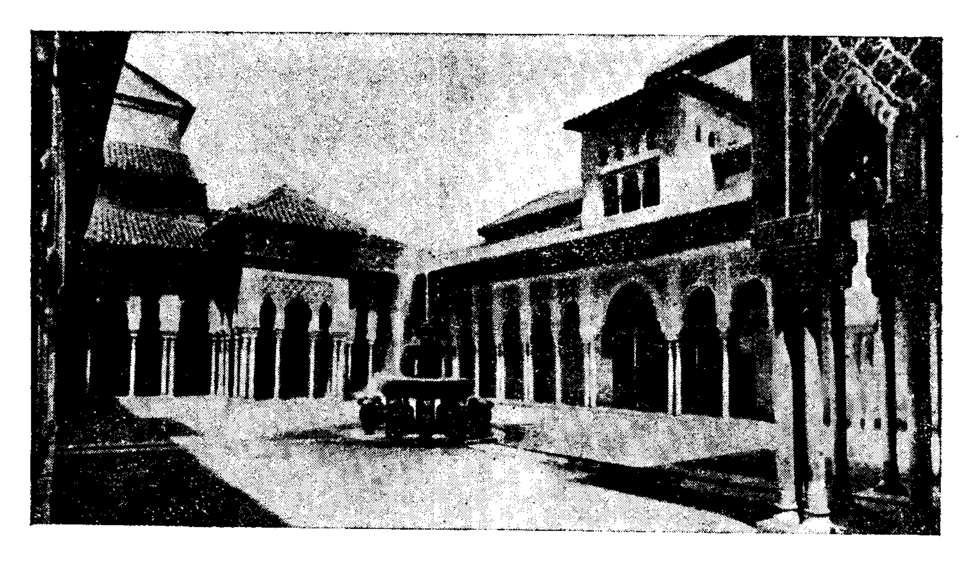
وفى الطرف الشرقى من مبانى القصر يوجد أشهر أبهاء الحمراء المعروفة ببهو السباع (Patio de los Liones) (شكل ٧) وهو من أعمال السلطان محمد الخامس الغنى بالله الذى شارك والدة أبو الحجاج يوسف الأول فى تجميل وتوسعة هذا القصر .

وقد اشتق بهو السباع اسمه من النافورة الكبيرة التى تتوسطه حيث يحيط بها اثنا عشر تمثالا من الرخام للسباع تفتح أفواهها ليتدفق منها الماء ، كما يجرى من فوقها وحولها بشكل يثير الاعجاب . ويزيد من جمال هذا البهو وروعة



(شكل ٦)

نماذج من الزخارف النباتية والهندسية من الجص ظهر فيها شعار بنى الأحمر « ولا غالب الا الله » .. وكذلك عبارة « عز لمولانا السلطان عبد الله »
(من تصوير المؤلف)



(شكل ٧)

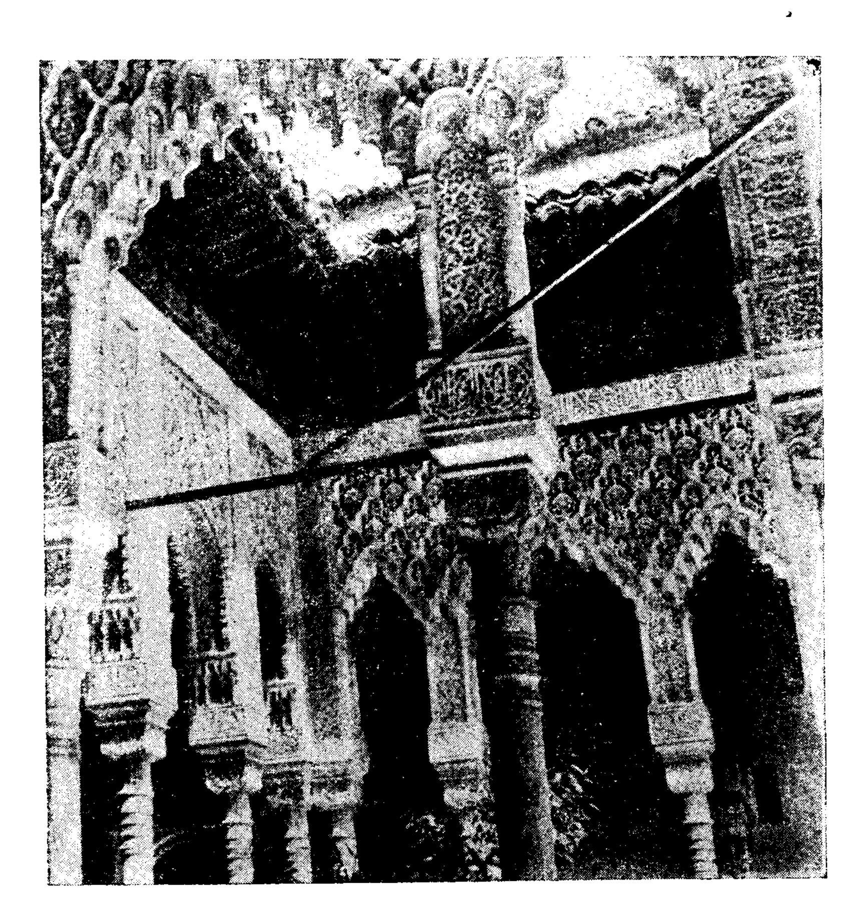
بهو السباع الذى يحيط به مجموعة من القاعات الهامة
(نقلا عن تورس بلباس)

تنسيقة ، الأروقه المحيطه به ، تطل عليه يعقود مختلفة الحجم والشكل والرسم ، تعددت أسنتها وطالت أطرافها ، وظهر منها المقوس والمنفوخ ، والمدبب المنكسر ، والذى يجمع بين هذين الشكلين ، وقامت تحتها الأعمدة الرخامية الأنيقة منفرده تارة ، ومزدوجة تارة أخرى . وما أحسب أن العمد فى العمارة كانت يوما أبدع مما نراها عليه فى هذه الأروقة المحيطه ببهو السباع ، فهى ممشوقه البدن ، رفيعة القوام ، والناظر اليها يخيل اليه أن رءوسها لن تقوى على حمل العقود ، وقد توجت هذه الرءوس بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، ثم ارتفعت فوقها الحدائر ، تحمل دعامات رشيقه ، التصقت بزواياها الأربعة عمد صغيرة تنبت منها العقود المقرنصة بدلاياتها كأنها لهيب يخرج من المواقد . (شكل ٨) .

هذه الزخارف المتناهية رقة واتقانا يزيدها جمالا تنوع ألوانها من أحمر فاتح وأزرق وأبيض ومذهب وأسود .

وتتبعنا هذه الروائع أينما حللنا بقاعة من قاعات القصر ، فاذا دلفنا مثلا الى قاعة الأختين (Sala de Dos Hermanas) القائمة فى منتصف الجدار الشمالى لبهو

السباع ــ وهى بدورها من عمل السلطان محمد الخامس الغنى بالله ــ شعرنا بفخامة البناء وثراء الزخرفة الى أقصى حد ، اذ يتدلى من السقف فى كل مكان حليه بهيه من المقرنصات والدلايات كانها أوكار فى الأشجار تتساقط كالأغصان، على عمد صغيرة رشيقة ملتصقة بالجدران .



(شكل ٨)

بعض الزخارف الجصية المختلفة : النباتية والهندسية والكتابية والمقرنصات والدلايات فى الأروقة المحيطة ببهو السباع ..

(نقلا عن تورس بلباس)

كذلك تملأ بقية البناء الزخارف المختلفة وأفاريز الكتابة التى تتضمن آيات من القرآن الكريم وعبارات الدعاء ، مع شعار الأسرة « ولا غالب الا الله »

بينما كسى الجزء الأسفل بمربعات من القاشانى الملون الجميل كما هو مشاهد فى جميع الجدران .

ويقابل قاعة الأختين على الجانب الآخر من بهو السباع قاعة أخرى تشبهها وان كانت أقل منها ثراءا فى زخارفها ، هى قاعة « بنى سراج » (Sala de Abencerrajes) وهى بدورها من عصر السلطان الغنى بالله .

تلك بعض النماذج لقاعات الحمراء وأبهائها تجلو علينا روائع البناء والفن الاسلاميين ، وتعكس لنا صورة صادقة لما كانت تتمتع به مملكه غرطانه من عظمة وثراء ومكانه سامية،أصبحت معها مركز اشعاع تغمر بأضوائها الساطعة وحضارتها المتقدمة المزدهرة فى مجالات العلم والأدب والفن والجمال كل ما خولها حتى غدت بحق القبس الذى أخذ منه العالم الغربى أيضا ، آخر مظاهر تطور الفنون الزخرفية الاسلامية حتى أخذت بلب الشاعر وسحرته وملكت عليه نفسه فأنشد قائلا :

غـــرناطة ما لهـــا نظـــير ما مصر ، ما الشام ، ما العراق
ما هى الا العـــروس تجلى وتلك جملة الصـــداق [١]

(١) المقرى ـ نفح الطيب ـ جـ ١ ص ١٤٢

مصادر ومراجع هذا البحث

(أ) العربية :

١ – ابن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى) – كتاب الحلة السيراء – جزءان – تحقيق : دكتور حسين مؤنس .
طبعة أولى – القاهرة : ١٩٦٣

٢ – ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد الشيبانى) – الكامل فى التاريخ – ٩ أجزاء .
القاهرة : ١٣٤٨ هـ

٣ – ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) – كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس – القسم الثالث – نشر الأب ملشور م. أنطونيه .
باريس : ١٩٣٧

٤ – ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله) – الاحاطة فى اخبار غرناطة تحقيق : الأستاذ محمد عبد الله عنان – المجلد الأول .
القاهرة : ١٩٥٥

٥ – ابن خلدون (عبد الرحمن) – كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر – ٧ أجزاء .
بولاق – ١٢٨٤ هـ (١٨٧٠ م)

٦ – ابن عذارى المراكشى – البيان المغرب فى أخبار المغرب – جزءان – مكتبة صادر .
بيروت ١٩٥٠
– والجزء الرابع بعنوان : البيان المغرب فى اخبار ملوك الأندلس والمغرب (مطبوعات معهد مولاى الحسن) .
تطوان ١٩٥٦

٧ – أشباخ (يوسف) – تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين – ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان – الطبعة الثانية .
القاهرة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٨ م)

٨ – حسين مؤنس – دكتور – فجر الأندلس – دراسة فى تاريخ الأندلس من الفتح الاسلامى الى قيام الدولة الأموية – طبعة أولى .
القاهرة ١٩٥٩

٩ – الحموى (يا قوت بن عبد الله) – كتاب معجم البلدان – الطبعة الأولى
ليبزج ١٨٦٨

١٠ – الحميرى (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) – صفة جزيرة الأندلس – منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار – نشره وصححه وعلق عليه : ا. ليفى بروفنسال
القاهرة ١٩٣٧

١١ ـ السلاوى (أبو العباس احمد بن خالد الناصرى) ـ كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ـ تحقيق : الأستاذ جعفر الناصرى والأستاذ محمد الناصرى ـ الجزء الثانى ـ الدولتان المرابطية والموحدية
الدار البيضاء : ١٩٥٤

١٢ ـ السيد عبد العزيز سالم ـ دكتور ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ـ من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة
دار المعارف ـ لبنان : ١٩٦٢
ـ تاريخ المغرب الكبير ـ ٣ ـ العصر الاسلامى
الدار القومية : ١٩٦٦

١٣ ـ عنان (محمد عبد الله) ـ الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ـ دراسة تاريخية أثرية ـ الطبعة الأولى
القاهرة : ١٩٥٦م (١٣٧٥ هـ)

١٤ ـ مجهول المؤلف ـ أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ـ نشر الأستاذ اميليو لافونتى الكنترا
مدريد : ١٨٦٧ م

(ب) الأجنبية :

1. Ars Hispaniae, Historia Universal del Arte Hispanico.
Vol. IV, Arte Almohade, Arte Nazari, Arte Mudéjar.
Por, Leopoldo Torres Balbàs, Madrid, 1949.

2. Bleye (Pedro Aguado).
Manual de Historia de Espàna.
Tomo I, Octava Ed. Madrid, 1958.

3. Coleccion de Cronicas Arabes de la Reconquista.
Tomo I, Al-Hulal Al Mawsiyya.
Trad Espan. Ambrosio Huicì Miranda. Tetuan, 1952.
Vol. III, Al-Bayan Al-Mugrib Fi Ijtisar Ajbar Muluk Al-Andalus Wa Al-Magrib.
Por, Ibn Idari Al-Marrakusi, Los Almohades, Toms, II.
Trad. Espan. A. Huici Miranda, Tetuan, 1954.

4. Historia de Espania.
Dirigida por, Ramon Menéndez Pidal.
— Tomo, IV, Espana Musulmana fasta la caìda del Califato de Cordoba (711—1031 de J.C.)
Por, E. Levi - Provençal.
Trad. Emilio Garcia Goméz.
Segunda edicion, Madrid, 1957.

— Tomo V, Instituciones y Vida Social E Intelectual.
Por, E. Levi - Provençal.
Trad. Emilio Garcia Goméz. Madrid, 1957.

5. Marçais, (Georges), Manuel d'Art Musulman.
L'Architecture Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile.
Tomo, II, Paris, 1927.

6. Ma. de Azcàrate (José), Monumentos Lspanoles.
Tomo, I, segunda Ed. Madrid, 1953.

7. Miranda (Ambrosio Huici), Las Grandes batallas de la Reconquista durante las Invasiones Africanas.
(Almoravides, Almohades y Benimerines). Madrid, 1956.

8. Vives (Antonio Prieto), Los Reyes de Taifas.
Madrid, 1926.

9. Al-Andalus, Rivista de la Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada.
— Vol. III, Fasc, 2, 1935.
— Vol. IV, Fasc, 1, 1936.
— Vol. XX, Fasc, 2, 1956.
— Vol. XXI, Fasc, 1, 1956.
— Vol. XXIV, Fasc, 2, 1959.

سكان ليبيا عند اليعقوبى

بحث قدم إلى مؤتمر الجامعة الليبية للتاريخ الليبي

(مارس ١٩٦٨)

إعـداد

الدكتور عبد القادر أحمد طليمات

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

تمهيد :

نقف اليوم أمام وصف لواحد من أقدم الجغرافيين المسلمين ، وهو اليعقوبى . المتوفى سنة ٢٨٤هـ ، صاحب كتاب « البلدان » لأنه يصور واقعا كان فى طريقه الى الاندثار . وكان هذا الواقع هو الأساس الذى رست عليه طبقات أخرى عربية أو مستعربة من السكان .

وهذه الصورة فى نظرنا نادرة القيمة عظيمة الشأن ، لأنها لاترد بعد ذلك فى القرون التالية .

وتحمل صورة اليعقوبى فى اعتبارنا ، صورة التحول الذى تعرضت له ليبيا منذ الفتح الاسلامى ، ولذلك نجد فى هذا الوصف صورة من السكان القدماء ، ومن العرب الداخلين الى ليبيا .

ولهذا السبب ، نريد أن نبين معالم هذه الصورة . وهى معالم جمعناها من أخبار كثيرة واردة لدى اليعقوبى ، وبذلنا فى جمعها وتصنيفها كل مانستطيع من جهد .

وبالرغم من أن هذه الصورة وردت عند اليعقوبى ـ وهو جغرافى معروف وكتابه مطبوع ـ الا أن جميع الدراسات الحديثة التى نشرت عن ليبيا ، أهملت معلومات اليعقوبى اهمالا تاما ، واقتصرت على أن تسجل : أن اقليم برقة سكانه

من « لواتة » ، وأن اقليم طرابلس سكانه من « هوارة » ، مهملة سكانهما من العرب كما أهملت اقليم فزان جملة وتفصيلا . كما أنها أهملت — أيضا — ذكر بطون لواتة ، وبطون هوارة ومنازل كل منهم بالنسبة للقبائل العربية .

وهذه الدراسة — على كل حال — دراسة محددة بحدود مصدرنا اليعقوبى ولايجب الاقتصار عليها . وانما يجب تتبع التغييرات السكانية من حيث انتشار العرب والبربر فى ليبيا التى طرأت بعد عصر اليعقوبى ، هذاالتغيير الذى أدى بها الى الاستعراب الكامل ، والذى أخذت ملامحه تظهر بشكل واضح فىعصر الادريسى (النصف الأول من القرن السادس الهجرى) .

واليعقوبى الذى اعتمدنا عليه فى هذه الدراسة ، هو المؤرخ الجغرافى أحمد ابن اسحاق بن جعفر — والمعروف أيضا بابن واضح .

ولد اليعقوبى فى بغداد فى عـام غير معروف من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)[١] ، ويبدو أنه لم يقم ببغداد أكثر من المدة التى أتم فيها دراسته العليا ، ثم انطلق منها سائحا رحالة الى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، لاشباع نزعة حبه لعلم أخبار البلدان ، وقد صرح هو بذلك فى مقدمة كتابه الجغرافى « البلدان » — الذى نعتمد عليه فى دراستنا هذه — حيث يقول : « انى عنيت فى عنفوان شبابى ، وعند احتيال سنى وحدة ذهنى بعلم أخبار البلدان ، ومسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ، ودام تغربى » . وبعد أن قضى لباناته من تلك الرحلة الطويلة ضم معلوماته عن البلاد التى زارها فى كتاب « البلدان » فى سنة ٢٧٨ هـ فى قول الدكتور نفيس أحمد[٢] .

وقد ذكر اليعقوبى مادة كتابه ومنهجه فى جمعها — وذلك فى مقدمة الكتاب — فقال : « فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان ، سألته عن وطنه ومصره ، فاذا ذكر لى محل داره ، وموضع قراره ، سألته عن بلده ذلك فى (نقط بالأصل) لدته (؟) منه ما هى ؟ وزرعه ما هو ؟ وساكنيه من هم من عرب أو عجم ؟ (نقط بالأصل) شرب أهله ؟ حتى أسأل عن لباسهم (نقط بالأصل) ودياتهم

(١) كذلك غير معروفة السنة التى توفى فيها ... فقد اختلف المؤرخون فيها ، فهى سنة ٢٨٤ هـ فى قول ، وبعد سنة ٢٩٢ فى قول آخر .

(٢) جهود الجغرافيين المسلمين ص ٤٥ (ترجمة فتحى عثمان) .

ومقالاتهم والغالبين عليه والمنزا (؟) (بياض بالأصل) مسافة ذلك البلد وما يقرب من البلدان وال (؟) (نقط بالأصل) لرواحل (؟) ثم أثبت كل ما يخبرنى به من أثق بصــدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقا كثيرا وعالمــا من الناس فى الموسم[١] وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب ؛ وكتبت أخبارهم ، ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلدا بلدا ، وجنَّد مصرا مصرا من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه ، وما يرتفع من أمواله . فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهرا طويلا ، وأضيف كل خبر الى بلده ، وكل ما أسمع من ثقاة أهل الأمصار الى ما تقدمت عندى من معرفته » ثم يعتذر اليعقوبى عن عدم توسعه فى المادة فيقول : « وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية ، ولا يبلغ البشر النهاية ، وليست شريعة لا بد من تمامها ، ولا دين لا يكمل الا بالاحاطة به . وقد يقول أهل العلم فى علم أهل الدين الذى هو الفقة : مختصر كتاب فلان الفقية ، ويقول أهل الآداب فى كتب الآداب مثل : اللغة والنحو والمغازى والأخبار والسير : مختصر كتاب كذا . فجعلنا هذا الكتاب مختصرا لأخبار البلدان ، فان وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا على مالم نضمنه كتابنا هذا ، فلم نقصــد أن يحيط بكل شىء . وقد قال الحكيم : ليس طلب العلم طمعا فى بلوغ قاصيته ، واستيلاء على نهايته ، ولكن معرفة مما لا يسع جهله ، ولا يحسن بالعاقل خلافه ، وقد ذكرت : أسماء الأمصار والأجناد والكور،وما فى كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ، ومن يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب ، وأجناس العجم ، ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر ، ومن فتحه من قادة جيوش الاسلام ، وتاريخ ذلك فى سنته وأوقاته ، ومبلغ خراجه ، وسهله ، وجبله ، وبره وبحره ، وهوائه فى شدة حره وبرده ، ومياهه وشربه » . وهكذا نجد اليعقوبى قد استوفى موضوعه الجغرافى من جميع جوانبه : المناخى ، والزراعى ، والسطحى ، والاقتصادى ، والسكانى ، وطعَّم هذه المادة الجغرافية ــ أحيانا بالمادة التاريخية الخبرية .

ومع أن مقدمة اليعقوبى لا تشير الى زيارته للمغرب ، فان المستشرق الروسى كراتشكوفسكى يقطع بأن اليعقوبى أقام مدة طويلة بمصر والمغرب ، دون أن

---

(١) أى فى موسم الحج .

يؤيد قوله هذا بدليل [١] . وسـواء أقام اليعقوبى فى المغرب مدة طويلة أو قصيرة ، وسواء زار المغرب أو لم يزره ، فان كتابه يعتبر فى رأينا أفضل كتاب جغرافى اعتنى صاحبه بالناحية السكانية فى هذا القطر الكبير ، فقد ذكر سكان كثير من المناطق وأجناسهم ، وقد استفاد منه كل من جاء بعده من الجغرافيين المسلمين القدامى .

ففيما يختص بليبيا ، عرفنا من اليعقوبى أن سكان ليبيا — فى عصره — من حدودها الشرقية مع مصر الى حدودها الغربية مع تونس . هم : من البربر ، ومن العرب ومن العجم القدم ، ومن الجند القدم والروم ، ومن أخلاط من الناس . وعندما يذكر البربر من لواتة يذكر بطونها ، وعندما يذكر العرب يذكرهم بقبائلهم أو ببطونهم كما يتبين ذلك بعد .

وعندما يتحدث اليعقوبى عن ليبيا يبدأ من حدودها الشرقية مع مصر ، ثم يسير مغربا حتى قابس التى تقع على الحدود الليبية التونسية . (عكس الأدريسى الذى يبدأ من الغرب الى الشرق) .

كذلك يقسـم العقوبى ليبيا الى ثلاثة أقاليم : برقة ، وطرابلس (وفى العقوبى أطرابلس) ، وفزان ، وسنتبع نحن هذا التقسيم فى دراستنا .

وطريقة اليعقوبى فى التعريف بجغرافية ليبيا ، أنه يذكر مدن وقرى وحصون كل اقليم ، والمسافة بين كل مكان وآخر ، والمقياس عنده هو « المرحلة » . ونحن لن نعن هنا بالمسافات ، وانما تنصب عنايتنا فقط بالسكان وأجناسهم ومناطق توزيعهم .

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على النسخة التى حققها M. J. De Goeje المطبوعة فى ليدن عام ١٨٩٢ .

وقد أثبتنا التوزيع السكانى — كما ذكره اليعقوبى — على خريطة مرفقة بهذا البحث . اعتمدنا فيها على الخريطة السياحية التى تصدرها شركة « أسو Esso » للبترول فى ليبيا .

---

(١) كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافى العربى : ١٩٥٨/١

برقــــة

يحدد اليعقوبى بداية ليبيا المتاخمة لحدود مصر الغربية « الرمادة » الواقعة غربى « الحمام » الحالية ، فيقول : انها أول منازل البربر ، ويصفها بأنها من كورة لوبية ، ويسكنها البربر والعرب والروم وأخلاط من الناس « وهى أول منازل البربر ، يسكنها قوم من مزاته وغيرهم من العجم القدم ، وبها قوم من العرب من : بلس ، وجهينة ، وبنى مدلج ، وأخـــلاط » ولعل العجم : القدم الذى يعنيهم اليعقوبى هم اليونانيون القدماء الذين هاجروا من بلاد اليونان الى ليبيا فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد وأقاموا أسرة « باطوس » فى القرن الخامس ق . م[1] .

أما من « العقبة » ـــ (وهى عقبة السلوم ، أو عقبة السلم) ـــ التى تلى « الرمادة » الى « جب الرمل » (وتشمل المنطقة : العقبة ، والقصر الأبيض . ومغاير رقيم ، وقصر الروم ، وجب الرمل) فهى « ديار البربر من : ماصلة بن لواتة ، وأخلاط من الناس » .

وبعد « جب الرمل » (غربا) يقع « وادى مخيل » ، والوادى — كما يصفه اليعقوبى — هو « منزل كالمدينة » وبه المسجد الجامع ، وبرك الماء ، وأسواق قائمة ، وحصن حصين . أما سكانه فهم « أخلاط من الناس » ، وانما « أكثرهم البربر من : ماصلة ، وزنارة ، ومصعوبة ، ومراوة ، وفطيطة » .

ومن « وادى مخيل » الى مدينـــة « برقة » (وهى المرج حاليا) مسافة ثلاث مراحل ، وهى — أيضا — من « ديار البربر من : مراوة ، ومفرطة ، ومصعوبة ، وزكودة ، وغيرهم من بطون لواتة » .

وأما « برقة » . فانه يتبين من كلام اليعقوبى عنها ، أنها اقليم كبير (ولاية) وله عاصمة تسمى « برقة » : « وفى دور المدينة والأرباط أخلاط من الناس » فانه انما يتحدث عن برقة (العاصمة) . ويؤكد هذا قوله أيضا : ولبرقة جبلان شرقى وغربى . أما حين يتحدث عن « برقة » ويقول : « ولبرقة أقاليم كثيرة »

---

(١) مصطفى كمال عبد العليم : دراسات فى تاريخ ليبيا القديم : ص ١٢١

وأن لها من المدن : برنيق وأجدابية ، وأن « تورغة »[1] الواقعة غربى سرت الحالية ، هى من أعمال برقة ، وأنها « آخر حد برقة » فانه انما يتحدث عن برقة (الاقليم) ، وعن حدود الاقليم الغربية بعد أن ذكر — كما أشرنا — حدوده الشرقية .

أما سكان برقة (العاصمة) . فهم « أخلاط من الناس ، وأكثر من بها جند قدم . وقد صار لهم الأولاد والأعقاب » . والراجح أن الجند القدم ، هم الفرق البيزنطية التى استقرت فى البلاد ، وتوارثوا الجندية ابنا عن أب .

أما الجبلان المحيطان بالعاصمة ، فأحدهما شرقى ، والآخر غربى ، وسكانهما من العرب وحدهم . فالجبل الشرقى سكانه من العرب من : الأزد ، ولخم ، وجذام ، وصدف من أهل اليمن . وأما الجبل الغربى ، فسكانه من غرب : غسان ، وجذام ، والأزد ، وتُجَيْب وغيرهم من بطون العرب — (وهذا استثناء من القاعدة التى ذكرها ابن خلدون ورددها كل الدراسين المحدثين ، من أن العرب لا ينزلون فى الجبال ، وانما ينزلون فى السهول) . أما قراها فيسكنها بطون من قبيلة لواتة البربرية : « زكودة ، ومفرطة ، وزنارة » .

وأما برقة (الاقليم) . فيقول اليعقوبى : « ولبرقة أقاليم كثيرة تسكنها هذه البطون من بربر لواتة ، وهى زكودة ، ومفرطة ، وزنارة . وأما مدنه فهما : برنيق (بنغازى الحالية) ، وأجدابية » .

فأما « برنيق » فهى على مرحلتين من برقة (العاصمة) ، وهى « مدينة على ساحل البحر ، ولها ميناء عجيب فى الاتفاق (الاتقان ؟) والجودة تحوز فيه المراكب » . وأما أهلها فهم : « من أبناء الروم القدم الذين كانوا أهلها قديما ، وقوم من البربر من : تحلالة ، وسوة ، ومسوسة ، ومغاغة ، وواهلة ، وجدانة » . ونحن نرجح أن أبناء الروم القدم الذين يعنيهم اليعقوبى ، هم من الجالية اليونانية القديمة التى قدمت الى البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وتركوا بها أعقابهم الى زمنه .

---

(١) يرسمها الأدريسى : تاورغا .

وأما « أجدابية » فان بينها وبين « برنيق » مرحلتان ، وبينها وبين برقة (العاصمة) أربع مراحل . ويصفها اليعقوبى بأنها « مدينة عليها حصن ، وفيها مسجد جامع ، وأسواق قائمة » أما سكانها فهم : « قوم من اليربر من : زنارة ، وواهلة ، ومسوسة ، وسوة ، وتحلالة ، وجدانة » ثم يقول : ان هؤلاء الأخيرين — أى جدانة — « هم الغالبون عليها « أى على المدينة . ويقول أيضا : ان لها أقاليم ، وساحل على البحر المالح ، على مقدار ستة أميال من المدينة ترسوبه المراكب » وأنها « آخر ديار لواتة من المدن » .

أما من أجدابية « الى مدينة « سرت » (وترسم أيضا : صرت بالصاد المهملة) — عن طريق الساحل — خمس مراحل : مرحلة منها من ديار « لواتة » . والمراحل الأخرى هى على الترتيب : الفاروج (وترسم أيضا : الفاروخ) وقصر العطش ، واليهودية ، وقصر العبادى » .

فأما المرحلة التى من ديار لواتة الى الفاروج ، فسكانها من مزاتة ، « وهم الغالبون عليها » . وأما سكان المراحل الأخرى — وأهل مدينة سرت أيضا — فهم من البربر من « منداسة ، ومحنحا ، وفنطاس وغيرهم ، وآخر منازلهم على مرحلتين من مدينة سرت بموضع يقال له « تورغة » وهو « آخر حد برقة » . ويقول اليعقوبى : ان مزاتة كلها اباضية . « على أنهم لا يفقهون ولا دين لهم » . وهذا السب من اليعقوبى - ناشىء عن المنافسات المذهبية ، والا فان الاباضية — فيما نعرف — أهل دين ومن أقدر المسلمين على نشر الاسلام ، وعلى التوسع فى الهجرة » .

ومن مدينة « سرت » الى ودان ، مما يلى القبلة ، أى جنوب سرت ، خمس مراحل وسكان هذه المنطقة « قوم مسلمون يدعون أنهم عرب من اليمن ، وأكثرهم من مزاتة ، وهم الغالبون عليها » .

ووراء « ودّان » - مما يلى القبلة أيضا بلد « زويلة » ، وسكانها » قوم مسلمون اباضية ، وبها أخلاط من أهل خراسان والبصرة والكوفة » ؟

ووراء « زويلة » على خمس عشرة مرحلة منها ــ مدينة يقال لها « كوار » وسكانها « قوم من سائر المسلمين من سائر الأحياء » ولكن « أكثرهم بربر » .

وبين « زويلة » ومدينـــة « كوار » ــ ومما يلى « زويلة » الى طريق « أوجلة » و « أجدابية » ــ قوم يقال لهم « لمطة » وهم « أشبه شيء بالبربر »، وقد تفيد هذه العبارة أن «لمطة» ليست من البربر الخلص أو الصرحاء ، والراجح أنهم بربر اختلطوا بغيرهم ، والراجح أيضا أن يكون اختلاطهم بالعرب بعد الفتح ، والمعروف أن « لمطة » نزلت ـ فيما بعد ـ ناحية « قابس » و « شط الجريد » .

طرابلس

يصف اليعقوبى طرابلس بأنها : « مدينة قديمة جليلة على ساحل البحر ، عامرة آهلة » . وأما سكانها ، فهم : « أخلاط من الناس » .

وتمتد طرابلس ــ بحسب تحديد اليعقوبى ــ من « تورغة » شرقا (وهى آخر أعمال برقة) حتى « قابس » غربا (وهى أول عمل تونس) .

ومن « تورغة » الى طرابلس ست مراحل ، (وتنقطع ديار مزاتة من تورغة . ويصير فى ديار هوارة) وتشمل المنطقة : « ورداسة » و « لبدة » . (وقد ذكر قدامة بن جعفر أربع مراحل من الست : رغوغا ، ورداسا ، المحتنى ، وادى الرمل ، الى طرابلس) .

فأما « ورداسة » فلم يذكر اليعقوبى عنها شيئا . وأما « لبدة » فانه يصفها بأنها : «حصن كالمدينة على ساحل البحر» . أما سكانها ــبحسب قول اليعقوبىــ فهم « هوارة » . ويقول : « ان هوارة يزعمون أنهم من البربر القدم . وأن مزاتة ولواتة كانوا منهم فانقطعوا عنهموفارقوا ديارهم وصاروا الى أرض برقة وغيرها، وتزعم هوارة أنهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم ، وبطون هوارة يتناسبون كما تتناسب العرب ، فمنهم : بنو اللهان ، ومليلة ، وورسطفة ؛ فبطون اللهان : بنور ورفلة . وبنو مسراتة » ، وذكر اليعقوبى بطنين آخرين من بطون اللهان ، ولكنهما جاءا مصحفين فى النسخة المطبوعة من كتاب اليعقوبى التى نستعملها ، وتعذر علينا تصحيحها . ويقول اليعقوبى : « ومنازل هوارة من آخر عمل « سرت » الى « طرابلس » . ويلاحظ فى هذا النص ثلاث ملاحظات :

الملاحظة الأولى :

قول اليعقوبى : « أن هوارة يزعمون أنهم من البربر القدم » . فنفهم من هذا التعبير أن المراد بالبربر القدم ، هم البربر الصرحاء الذين لم يختطلوا بغيرهم ، ونعتقد أن هذا الوضع يؤثر على لهجة هوارة البربرية بالنسبة للهجات البربرية الأخرى .

الملاحظة الثانية :

قوله : ان منازل هوارة تمتد من آخر عمل « سرت » الى طرابلس . فالمعروف أن مدينة « مسراتة » أو (مصراتة) المسماه باسم البطن اللهانى الهوارى ، تقع بين « سرت » و « طرابلس » التى هى الموطن القديم لهوارة .

الملاحظة الثالثة :

ذكر اليعقوبى زعمين متناقضين لأصل هوارة ، الزعم الأول : بأنهم ينسبون أنفسهم الى البربر القدم ، والزعم الآخر : أنهم ينسبون أنفسهم الى اليمن . وسبب هذا التناقض — فيما نرى — هو صدى من أصداء الاندماج التام المبنى على الحلف — طبقا للنظم القبلية — بين هوارة والقبائل العربية الحميرية الداخلة الى البلاد عند الفتح الاسلامى .

* * *

ومن طرابلس — على الجادة العظمى — الى المدينة « قابس » (أول عمل تونس) خمس مراحل « عامرة يسكنها قوم من البربر ، من : زناتة ، ولواته ، والأفارقة الأول » . (وهؤلاء الأفارقة ، يذكرهم ابن خرداذابه — المعاصر لليعقوبى — فى كتابه «المالك والممالك» . بأنهم «الأفارقة الاعاجم» . والراجح اذن أن يكونوا من الرومان الأول الذين نزلوا البلاد فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد واستوطنوها وتركوا سلالتهم بها) .

والمراحل من طرابلس الى « قابس » هى : ومله (هكذا بغير نقط) وصبرة — وهى منزل بها أصنام حجارة قديمة — وقصر بنى حبان ، ثم (اسم مصحف بالأصل) ثم الفاصلات ، ثم قابس .

وفى جنوب طرابلس ، توجد « أرض نفوسه » . وهى « متصلة من حد طرابلس مما يلى القبلة الى قريب من القيروان » . أما سكانها « فهم قبائل كثيرة وبطون شتى » ويقول اليعقوبى فى مناسبة أخرى ، ان سكانها (قوم عجم الألسن . اباضية كلهم) .

فـــزان

لقد ضن علينا اليعقوبى بالمعلومات الوافية عن سكان هذا الاقليم ، فقد اقتصر على القول بأن سكان فزان : « جنس يعرف بفزان » وهم « أخلاط من الناس ، لهم رئيس يطاع فيهم » . وأن بين سكانها وبين مزاته « حرب لاقح أبدا » . ويصف فزان بأنها « بلد واسع ومدينة عظيمة » .

* * *

وبعد ، فهذه هى الصورة التى عرضها اليعقوبى لسكان ليبيا فى عصره (القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى) .

وهى صورة يغلب فيها العنصر البربرى على العنصر العربى . حتى ليمكننا أن نعتبر وجود العرب وجودا جزئيا مغمورا فى وسط خضم كبير من قبائل البربر .

وكان أول البلاد استعرابا ، بحسب أخبار اليعقوبى ، هو اقليم برقة وهذا شىء طبيعى بحكم ظروف الفتح العربى لليبيا . فان الفتح بدأ — مع فتح مصر — من برقة وطرابلس ، أى من حـــدودها الشرقية المتاخمة لحدود مصر الغربية ، وكانت توجد فيه قبائل عربية كثيرة ، ولكنها أقل عددا من القبائل البربرية .

ونسجل أيضا ، أن الأكثرية العظمى من هؤلاء العرب . كانوا عرب الجنوب ، أى من القبائل اليمنية .

أما القبائل العربية المضرية . فان اليعقـــوبى لا يذكر منها من نزل برقة واتخذها وطنا ، لأن الموجود منهم كانوا قلة .

وكانت منازل العرب الأولى فى منطقـــة « الرمادة » الى « السلوم » ، وفى الجبل الواقع شرقى مدينة برقة ، وفى الجبل الواقع غربيها .

أما اقليم طرابلس ، فلم يذكر اليعقوبى نزول عرب به اطلاقا . الا ضمن عبارة « أخلاط من الناس » .

ومن هنا نرى ، أن الدم العربى اختلط بالدم البربرى أولا فى اقليم برقة بشكل واضح ، أما الاختلاط فى اقليم طرابلس وفى اقليم فزان فقد كان فى حكم المنعدم تقريبا .

ولكن يجب أن يلاحظ ، أن هذا الحكم القديم لا يمنع — على أية حال — من وجود العرب فى كل من أقاليم ليبيا الثلاثة ، لأن العرب كانوا جند الدولة وان شاركهم البربر فى ذلك منذ وقت مبكر جدا ، وكان وجود هؤلاء الجند العرب ثابتا بشكل واضح فى السواحل الشمالية حيث كان الرباط ، وكان البربر ينزلون عليهم ويختلطون بهم ، ويأخذون عنهم .

والخلاصة ، هى أن العرب كثروا أولا فى « برقة » وفى القسم الشمالى منها خاصة ، حتى فى منطقة الجبل الأخضر المحيط بالعاصمة « برقة » (المرج حاليا) .

أما فى اقليم طرابلس ، فكانوا فى حكم أخلاط من الناس . ولكن بعض البربر من مزاته النازلين بين « سرت » و « ودان » انتموا الى العرب اليمنيين وجعلوا أنفسهم فى حكم العرب .

ومع كل هذا ، يجب أن يلاحظ ، الى أن العرب — بصفة عامة — كانوا أقلية أيام اليعقوبى — (كما توضح ذلك الخريطة الملحقة بالبحث) — وكانوا يعيشون حول العواصم (برقة وطرابلس) ، بصرف النظر عن السهل والجبل ، لأن نزولهم كان يجب أن يقترن بمراكز التجمع الكبيرة الأساسية ، وهى المدن

أما البربر ، فقد كانوا فى برقة من زناتة ، احدى بطون البتر .

أما لواتة ، فكانت تنزل على حدودها (حدود برقة) ، وقد رأينا أن هذه المنازل تصل الى « تورغة » التى تقع بين « سرت » و « مصراطة » الحالية .

وأما هوارة ، وهم من البرانس ، فمنزلهم طرابلس ، وتمتد منازلهم من « توزعه » الى « قابس » شمالا ، والى « جبل نفوسة » جنوبا .

أما « فزان » ، فهم عنصر ثالث جديد ، قرين للبتر والبرانس .

وبعد . ،

فهذه الصورة السكانية ـ كما وردت عند اليعقوبى ـ ذات أهمية كبيرة بالنسبة لليبيا ، فى عصورها الاسـلامية الأولى ، فضلا عن أنها لا ترد عند الجغرافيين المسلمين ، سواء من كان منهم معاصرا له ، أو من جاء بعده .

المصادر :

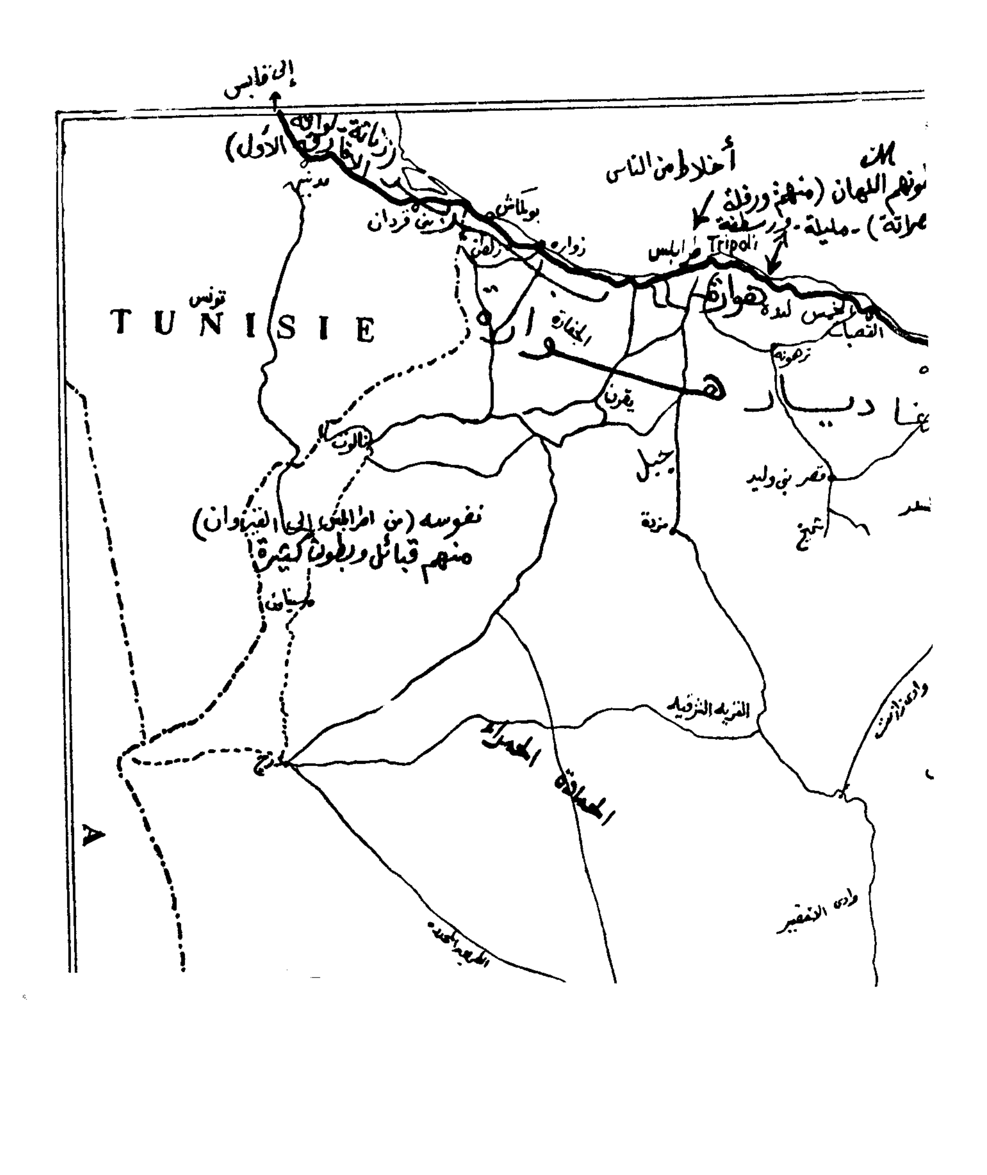
١ ـ كراتشكوفسكى : أغناطيوس يوليانو فتش .
ـ تاريخ الأدب الجغرافى العربى (ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة) .

٢ ـ مصطفى كمال عبد العليم (الدكتور) .
ـ دراسات فى تاريخ ليبيا القديم . (منشورات الجامعة الليبية ـ يناير سنة ١٩٦٦) .

٣ ـ نفيس أحمد .
ـ جهود الجغرافيين المسلمين . (ترجمة : فتحى عثمان ـ دار القلم بالقاهرة) .

٤ ـ اليعقوبى : أحمدبن اسحاق بن جعفر (ويعرف بابن واضح) .
ـ كتاب البلدان (تحقيق M. J. De Groeje ليدن ١٨٩٢) .





TUNISIE
Tripoli



المؤثرات السياسية للحرب العالمية الأولى

على إمارات الخليج العربى

للدكتور جمال زكريا قاسم

سنعنى فى هذه الدراسة بتتبع تأثيرات الحرب العالمية الأولى على امارات الخليج العربى ، تلك التأثيرات التى نجمت عن مؤثرات فعالة كان أبرزها محاولة بريطانيا فرض سيطرتها على امارات الخليج منتهزة فرصة اعلان الدولة العثمانية الحرب عليها كى تطيح بسيادتها على الأجزاء الشمالية من الخليج ، تلك السيادة التى كانت مقررة للدولة العثمانية بمقتضى الاتفاق الانجليزى ــ التركى الذى عقد بين الحكومتين فى ٢٩ يولية ١٩١٣ [١].

وعلى الرغم من أن بريطانيا قد نجحت فى اقصاء القوى الأوروبية وكذلك الدولة العثمانية من التطلع الى الخليج الا أن المجال لم يلبث أن ترك مفتوحا بالنسبة لعلاقاتها مع القوى المحلية ، حقيقة ان بريطانيا قد استطاعت فى السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى فى ربط هذه القوى بعجلة سياستها ، الا أن ظروف الحرب كانت العامل الفعال فى احكام هذه العلاقات ، ولذلك كان أهم ما يشغل اهتمام الحكومة البريطانية طيلة سنوات الحرب هو العمل على النفاذ الى هذه القوى وتوجيهها فى اتجاه سياسى موحد خدمة لمصالحها مما يترتب عليه فصلها التام عن أى تعاون مع أية دولة أجنبية وعلى وجه التحديد الدولة العثمانية التى كانت تحاول التأثير على هذه الامارات بثقلها الروحى تحت شعار حركة الجهاد الدينى .

ولما قامت الثورة العربية بزعامة الشريف حسين سعت الحكومة البريطانية للعمل على تأمين هذه الحركة وذلك بالحصول على تأييد الزعماء العرب فى الجزيرة

---

(١) انظر نص هذا الاتفاق فى كل من : Huerwitz, Diplomacy in the Near and Middle East vol I PP. 269 FF, Gooch and Temperley : British Documents on the Origins of the War vol X Part II P. 190 FF.

العربية والخليج العربى وفى أعقاب الحرب عملت على اقرار الهدوء فى علاقات الامارات العربية بعضها بالبعض الآخر وتم لها ذلك بالفعل بموجب سلسلة من التسويات خصصتها لتخطيط الحدود بين تلك الامارات .

وفى خلال الحرب اعدت الحكومة البريطانية دليلا خاصا للخليج والجزيرة العربية وضعه القسم الجغرافى فى ادارة المخابرات الحربية للامبرالية تحت اشراف جورج هوجارث[١] وهو احد الخبراء فى الشئون العربية وذلك لأن الحكومة البريطانية شعرت بالحاجة الى استعراض للأوضاع يكون أكثر شمولا من أى استعراض آخر وضع حتى ذلك الحين .. وقد وضــع المجلد الرئيسى لدليل الامبرالية فى متناول الرجال الرسميين فى عام ١٩١٦ وفى متناول الجمهور فى عام ١٩٢٠ وقسم الدليل شبه جزيرة العرب الى ثلاثة أقسام ، الأجزاء الداخلية وهى مستقلة من أقصاها الى أقصاها أما عن القسمين الغربى والشرقى فيخضعان فى معظمهما للحماية البريطانية وركز الدليل بصفة خاصة على الأجزاء الخارجة عن نطاق الحماية البريطانية مما يوضح النفوذ الذى حاولت الحكومة البريطانية أن تصــل اليه فى المناطق الداخلية وهى المناطق التى كانت لا تهتم بها عادة فى الماضى[٢] . وقد استطاعت الحكومة البريطانية أن تصل الى ذلك النفوذ لأنها لم تترك أميرا من أمراء العـــرب الا استمالته ، وعقدت محالفة معه وقد نجحت فى ذلك مع جميع الأمراء العرب تقريبا ولم يخرج من يدها سوى ابن الرشيد فى حائل والامام يحيى فى اليمن .. وعلى الرغم من أن المعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع الرؤساء العرب فى الخليج وسواحل الجزيرة العربية ظلت فى نطاقها السلبى أكثر من كونها ايجابية اذ أنها لم تفدها فى محاربة الدولة العثمانية الا أنها استفادت منها مع ذلك فى منع هذه الامارات ورؤسائها من الانضمام الى الأتراك وفى توطيد نفوذها السياسى على سواحل الجزيرة العربية بأسرها .

وعند نشوب الحرب وازدياد احتمــال دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب ألمانيا كانت أهم المشكلات التى واجهت الحكومة البريطانية الدفاع عن حقول البترول ومعامل التكرير البريطانية فى جنوب فارس وحمــاية خطوط

---

(١) CF The penetration of Arabia « A Record of Western Knowledge Concerning Arabian peninsula », London 1904 See also History of Arabia Oxford, 1922.

(٢) cf. British Admiralty, A Handbook of Arabia Vol I General

الانابيب الموصلة بينهما كما كان على الحكومة البريطانية تقديم حمايتها لشيوخ الخليج المتعاقدين معها والذين أصبحوا مهددين بابتلاع الدولة العثمانية لهم فى حالة دخولها الحرب ضـد بريطانيا وكان أكثر الامارات العربية تعرضا لهذه الأخطار الامارات الواقعة فى شمال الخليج وهى امارة المحمرة التى كان يحكمها الشيخ خزعل خان وعلى الرغم من أنه كان يمارس نفوذا فعليا فى امارته الا أنه كان يخضع للحكومة الفارسية من الناحية الاسمية وكذلك امارة الكويت التى كان يحكمها الشيخ مبارك بن الصـباح الذى كان لا يزال خاضعا للسيادة العثمانية من الناحية الاسمية وان كانت ظروف علاقته ببريطانيا جعلت من مشيخته امارة مستقلة تحت الحماية البريطانية[١] وقد تأكد وضعه هذا بصفة قاطعة بمقتضى التبليغ البريطانى[٢] الذى وجه اليه عقب اعلان الدولة العثمانية الحرب على بريطانيا مباشرة وسوف نشير اليه فيما بعد .

ومما يستلفت النظر أن بريطانيا لم تكن تخش على مركز الشيوخ الخاضعين لحمايتها فى جنوب الخليج بعكس شيوخ الامارات الواقعة فى الشمال لأن وضع الشيوخ الأول كان مؤمنا بتصاعد قوة عبد العزيز آل سعود امير نجد الذى أصبح بعد استيلائه على الاحساء فى عام ١٩١٣ يشكل قوة عازلة بين هؤلاء الشيوخ القابعين فى الجنوب وبين النفوذ العثمانى فى الشمال وان كانت حكومة الهند قد أضحت مع ذلك فى حالة قلق متزايد من احتمال توسعه فى الخليج على حساب هذه الامارات مما استوجب اقرار العلاقة بينها وبينه محافظة على الأوضاع الراهنة[٣] .

وقد لاحظ المراقبون السياسيون والعسكريون أن شيخى المحمرة والكويت يمكن أن يتعرضا أكثر من غيرهما للتهديد العثمانى الذى قد يؤدى الى ضياع النفوذ البريطانى أو التشكيك فيه على الأقل ولذلك رجح الرأى بضرورة ارسال حاميات عسكرية للتركز فى شمال الخليج خاصة وأن بريطانيا كانت تخشى من

(١) راجع فى ذلك الاتفاقية الانجليزية الكويتية ١٨٩٩ ، وكذلك الاتفاق الانجليزى التركى ١٩١٣ Cf. gooch and Temperley, op. cit. Vol X Part II P. 190.

(٢) cf. Huerwitz, op. cit. Vol II P. 4

(٣) Marlowe, The persian gulf in the Twentieth Century P. 44.

انتشار دعوى الجهاد التى أعلنها السلطان العثمانى مثيرا بذلك رعاياها المسلمين فى الهند والخليج العربى[١] .

والجدير بالذكر ان نشوب الحرب كان فرصة لبريطانيا لتدعيم نفوذها فى منطقة الخليج العربى ، ذلك النفوذ الذى حاولت تأكيده ونجحت فى ذلك الى حد كبير فى السنوات السابقة للحرب ، لقد تعرضت بريطانيا فى خلال هذه السنوات لمنافسات خارجية شديدة الوطأة من قبل الفرنسيين والألمان والروس [٢] واذا كانت بريطانيا قد استطاعت التخلص من روسيا بعد عقد تسوية ١٩٠٧ فانها ركزت جهودها بعد ذلك على التخلص من المنافسة الفرنسية وبخاصة فى سلطنة مسقط ... قد يكون حقيقة أن الاتفاق الودى ١٩٠٤ خفف الى حد كبير من اخطار المنافسة الانجليزية الفرنسية الا أن هذا التنافس استمر مع ذلك قائما الى الشهور القليلة التى سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى ومع ذلك فقد استطاعت انجلترا باقتراب الحرب القضـــاء على آخر نشاط فرنسى فى مسقط بوصولها الى اتفاق مع الحكومة الفرنسية كان يقضى بموافقتها على الغاء المعاهدة التى كانت تربطها بسلطنة مسقط والتى يرجع تاريخها الى عام ١٨٤٤ [٣] ومن المعروف أن هذه المعاهدة كانت تكأة للنشاط الفرنسى فى مسقط[٤] الذى ظهر بصفة خاصة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى فرنسة السفن العثمانية وفى تجارة الأسلحة[٥] ، واذا كانت المشكلة الأولى قد حلت بمقتضى التحكيم بلاهاى فى عام ١٩٠٥ [٦] فان تجارة الأسلحة استمرت

(١) Philip Graves, The life of sir Percy Cox P. 178.

(٢) راجع كتابنا « الخليج العربى » الباب الثالث التنافس الأوربى فى الخليج العربى .

(٣) راجع كتابنا « دولة بوسعيد فى عمان وزنجبار » العلاقات الخارجية لسعيد بن سلطان ، الفصل العاشر ص ٢٠٧

(٤) Rolandshay, India under Curzon and After vol. III P. 47

(٥) cf. Memorandum Grant of French Flags to Mascat Dhows P. 2 India Office political and secret library Confidential 8574 B. 134. See also Arms Traffic at Muskat B. 182.

(٦) راجع محكمة العدل الدولية بلاهاى يونيو ١٩٠٥ فى :
Revue de droit Internationale Tome 131, 1906 P. 145

قائمة الى أن ألغيت المعاهدةالفرنسيةـ المسقطية فى يناير١٩١٤[١] وقبلت الحكومة الفرنسية أن تسلم بالغائها نظير تعويض دفعته الحكومة الانجليزية للتجار الفرنسيين المشتغلين بتجارة الأسلحة . ومن المؤكد أن فرنسا قد أخذت بوجهة النظر الانجليزية فيما تشكله هذه التجارة من خطورة على مستعمراتها فى آسيا وافريقيا[٢] فضلا عن أن ظروف الحرب اقتضت نوعا من التضامن بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية ورضيت فرنسا أن تسلم أخيرا بنفوذ بريطانيا فى منطقة الخليج العربى . ومع ذلك فقد شهدت الفترة السابقة لاعلان الحرب كثرة المبعوثين السريين الذين توافدوا على الخليج والجزيرة العربية من انجليز وألمان وفرنسيين وروس وعثمانيين وغيرهم همهم البحث عن حلفاء ينضمون الى جانب دولهم عند قيام الحرب .

وعلى الرغم من أن النفوذ البريطانى فى شمال الخليج لم يكن بنفس الدرجة التى كان عليها فى الجنوب الا أن بريطانيا استطاعت فى السنوات السابقة لقيام الحرب التغلغل فى شمال الخليج وكان الرؤساء العرب وهم خزعل خان ومبارك بن الصباح وعبد العزيز آل سعود بالاضافة الى رؤساء العشائر العربية والفارسية فى جنوب فارس مهيئين للصداقة البريطانية ، وتمثل امارة المحمرة التى كان يحكمها الشيخ خزعل أهمية خاصة فأنابيب البترول التابعة لشركة النفط الانجليزية الفارسية تمر بأراضيها ، كما أن امارة الكويت تقع خلف خطوط الحملة التى تقرر ارسالها لاحتلال العراق ، كما وطدت بريطانيا علاقتها بالرؤساء الآخرين فى الجزيرة العربية والملاحظ أن بريطانيا ردت على اعلان الدولة العثمانية الجهاد الدينى بنشاط كبير لمحو أثره وتفادى خطره على موقف الحلفاء فاتصلت بواسطة رسلها الذين وزعتهم فى مختلف أنحاء الخليج والجزيرة العربية بكل من ابن سعود أمير نجد والشيخ مبارك حاكم الكويت والأمير الادريسى حاكم عسير والشيخ خزعل الذى وعدته بتعيينه واليا على البصرة والجدير بالذكر أن هؤلاء الرؤساء لم يكونوا بمعزل عن الحركة العربية التى اتخذت مركزها فى سوريا منذ عهد الاتحاديين من ذلك أن الشيخ مبارك بن الصباح كان مشتركا

---

(١) جان بيشون : بواعث الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأدنى ص ٢٧
(٢) جريدة المقطم العدد ٧٥٣٨ فى ١٩١٤/١/١٣

مع السيد طالب النقيب والشيخ خزعل حاكم المحمرة فى زعامة فرع « لحزب الحرية والائتلاف » وكان هذا معارضا لحزب الاتحاد والترقى . وقد تأسس هذا الفرع فى البصرة أثر ثورة الاتحاديين الذين اتهجوا سياسة تعسفية ترمى الى مركزية الحكم واضعاف سيطرة شيوخ الخليج وكان كل من شيوخ الكويت والمحمرة والبحرين وغيرهم يجدون فى السيد طالب النقيب خير من يتولى مصالحهم ضد تعسف الادارة العثمانية ازاء العناصر غير التركية . والواقع أن انتهاج مبارك سياسة عدائية ضد الدولة العثمانية كانت سببا مباشرا فى تأليب الاتحاديين لشيخ المنتفق سعدون باشا لأن مبارك لم يكن حائزا على ثقة عمال الدولة[١] وفى أثناء انشغال الدولة العثمانية بحرب البلقان فى عام ١٩١٣ ظهر نجاح زعماء حزب الحرية والائتلاف فى البصرة فى عقد مؤتمر عربى فى امارة المحمرة[٢] حضرة الشيخ خزعل والشيخ مبارك والسيد طالب النقيب ودار فى هذا المؤتمر البحث حول مستقبل العراق ووصل المجتمعون الى أن يبذل كل من الرؤساء جهده لتحقيق مطالب العراق فى الاستقلال ، وفيما يبدو أن هذا المؤتمر كان يهدف الى اقرار أحد من أولئك الزعماء بتولى حكم العراق [٣] ويبدو أن الحكومة البريطانية كانت تعلم بذلك ان لم يكن قد تم هذا تحت اشرافها وبتشجيع منها[٤] وقد نجد من المناسب أن نعرض لمؤتمر آخر اشترك فيه بعض أمراء العرب عقد حول ذلك الوقت أيضا على مقربة من الاحساء وعرف باسم مؤتمر جزيرة العرب وفيه تباحث مندوبو الرؤساء فى وسائل المحافظة على الأمارات العربية فى الخليج ومطالبة الدولة العثمانية بالاصلاح[٥] ولعل هذه الملامح التى أشرنا اليها تؤكد تماما أن امارات الخليج وخاصة الامارات الشمالية لم تكن بمعزل عن الحركة العربية التى ظهرت حول ذلك الوقت والتى كانت تطالب الدولة العثمانية بالاصلاح وتحقيق اللامركزية فى الحكم بل أن حركة الأمير عبد العزيز آل سعود اذا نظرنا اليها من وجهة الحركة العربية نجد أنها

---

(١) الريحانى ــ تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ١٨٤/١٨٩

(٢) دروزة ــ حول الحركة العربية الحديثة جـ ١ ص ٣٤

(٣) Ireland, Iraq P. 233

(٤) الشملان ــ من تاريخ الكويت ص ٢٧١

(٥) جريدة الاصلاح ــ مؤتمر جزيرة العرب بيروت العدد ١٩٨ : ١٩ تشرين الثانى ١٩١٣

كانت ترمى الى امتداد سيطرته على أنقاض السيطرة العثمانية المتداعية . وقد كتب عبد العزيز آل سعود الى شفيق كمالى باشا حاكم عسير يشرح له وجهة نظره فى تقسيم البلاد العربية الى دويلات مستقلة فى داخليتها على أن تكون فى نفس الوقت تابعة للدولة العثمانية وتحت سيادتها [١] .

ون هذا يتضح أن امارات الخليج العربى كانت متأثرة بدورها بتيار الحركة العربية مما حدا ببريطانيا الى العمل على احتضان هذه الحركة وتوجيهها الوجهة التى تريدها وتتفق مع مصلحتها خاصة فى هذه الظروف الملابسة لقيام الحرب وقد ركزت الحكومة البريطانية جهودها عند نشوب الحرب على ثلاثة رؤساء هم الشيخ مبارك والشيخ خزعل والسيد طالب النقيب وقد فشلت مفاوضاتها مع الأخير على الرغم من أنها وعدته بتعينه والياعلى البصرة لتمسكه بموقفه واصراره على عـــدم تأمين حملة العراق أما الأميرين الآخرين فلم تكن هناك صعوبة فى اجتذابهما للسياسة البريطانية اذ سبق أن وعدهم الانجليز بالاستقلال التام بالنسبة للدولة العثمانية أو فارس الا أن المشـــكلة كانت تتعلق بموقف رعاياهم وميل غالبيتهم للدولة العثمانية بدافع من شعورهم العاطفى لدولة الخلافة الاسلامية ذلك أن معظم العشائر فى جنوب فارس والعراق لم تقبل التعاون مع الانجليز كما تعرض شيخ الكويت والشيخ خزعل لردود فعل عنيفة من قبل الوطنيين الذين ساءهم انضمام شيوخهم الى جانب الانجليز .

وعلى الرغم من أن حركة الجهاد الدينى كانت تشكل خطورة كبيرة وكانت موضع حذر شديد من قبل المراقبين السياسيين من أمثال ايتشيسون الموكل بالشئون الخارجية من قبل حكومة الهند الا نأ السير برسى كوكس المقيم السياسى فى الخليج كان من رأية أنه يمكن التغلب على خطورة هذه الحركة باحكام السيطرة البريطانية على الخليج وباستغلال الخلافات المذهبية والسياسية القائمة بين فارس والدولة العثمانية فى منع وصول القوات العثمانية الى المقاطعات الفارسية فى الجنوب ولذلك نستطيع أن نقول ان الحملة البريطانية التى تقرر ارسالها الى

---

(١) انظر مذكراتى فى بلاد العرب لوالى البصرة شفيق كمالى باشا ــ نشرت تباعا فى جريدة الأهرام فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ العدد ١٤٥١٠ وما يلى ذلك .

شط العرب كانت فى أحد أهدافها تعمل على حصر تيار الجهاد الدينى الى جانب حماية آبار البترول فى مسجد سليمان[١] الواقعة فى اقليم الأهواز والتى يربطها خط أنابيب بعبدان خاصة وأن البحرية البريطانية بدأت فى استخدامه للوقود وأصبح من الضرورات الهامة لكسب الحرب . وقد رأت القيادة البريطانية أنه لابد من احتلال ولاية البصرة مع جزء من أراضى فارس بهدف تأمين تلك الآبار بل أن الخطة البريطانية لم تلبث بعد ذلك أن امتدت الى احتلال العراق بأكمله لمـا قدره الخبراء العسكريون من امكان الاتصال بروسيا عبر أراضى الدولة العثمانية والوقوف معها ضد احتمال التقدم الألمانى التركى فى الاتجاه الشرقى عبر فارس والقوقاز الى الهند وأفغانستان وأواسط آسيا ، ومن المعروف أن هزيمة الانجليز فى كوت الامارة فى عام ١٩١٧ قد عطـلت تحقيق هـذه الأهداف ولذلك استمرت منطقة الخليج العربى مدة طويلة مجالا مفتوحا للصراع الدولى وخاصة فى فارس ، وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت تثق فى الشيـخ خزعل الذى أعلن وقوفه الى جانبها وتنازل عن جزيرة عبادان[٢] لصالح شركة البترول الانجليزية الفارسية ، وعلى الرغم مما كانت تعلق عليه الحكومة البريطانية والشركة من أهمية بالغة فى المحافظة على الأوضاع الراهنة فى المنطقة الا أنها كانت مع ذلك تخشى من تأثر مركزه وكذلك مركز الشركة فى ناحيتين هامتين :

الأولى : احتمال تعرضه لعداء من قبائل البختيارى القاطنة فى جبال زاجروس الى الشمال الشرقى من خوزستـان[٣] ومن المعروف أن هذه القبائل كانت تسبب الكثير من القلق والمتاعب لشركة البترول الانجليزية الفارسية وكذلك تسبب الكثير من الاضطرابات للشيخ خزعل ولذلك أخذت صلات الانجليز تتوثق بهذه القبائل التى كانت على استعداد للتعاون دوما مع أية دولة تزودها بالمال والسلاح وتحول دون خضوعها للحكومة المركزية فى طهران .

والثانية : تعرض ممتلكاته وأعوانه لعدوان من قبل الدولة العثمانية بعد اعلانه صراحة موقفه . ولهذه الأسباب بدأت القيادة البريطانية ترى أنه لتأمين

---

(١) اكتشف البترول فى هذه المنطقة فى عام ١٩٠٨

(٢) جزيرة صغيرة تقع فى وسط شط العرب .

(٣) Philip Graves op. cit P. 175.

مركز بريطانيا فى شمال الخليج وجنوب فارس ينبغى لها أن تسيطر على البصرة . وفى نهاية سبتمبر ١٩١٤ وافقت حكومة المستر أسكويث Asquith على ارسال حملة هندية الى الخليج العربى وذلك استنادا على المذكرة التى قدمها السيرآرثر هرتزل A. Hirtzel [١] من قسم الشئون السياسية بوزارة الهند فى ٢ سبتمبر ١٩١٤ والتى أكد فيها أن الدولة العثمانية ستنضم الى دول الوسط وأن المسألة لا تعــدو أن تكون مسألة وقت قبل أن تعلن الدولة العثمانية موقفها بصراحة ، وركز هرتزل على أنه من الخطورة ترك شــمال الخليج دون أحكام السيطرة البريطانية لما قد يؤدى اليه ذلك من نجاح الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا فى اثارة مسلمى الهند ضد الأمبراطورية البريطانية[٢] .

كانت هذه هى الظروف التى أدت الى حملة العراق المشهورة التى يطلق عليها اسم Indian force Expedition والتى يرمز لها اختصارا I. F. E. وعهد بقيادة هذه الحملة الى الكولونيل ديلامين Delamin وكان على هذه الحملة أن تعسكر فى جزيرة عبادان . وكان وجود الحملة من شأنه ادخال الطمأنينة لدى الشيوخ المحليين وزعماء القبائل فى جنوب فارس والعراق بحصولهم على الحماية البريطانية فى حالة تعرضهم لهجوم عثمانى وقد وصلت حملة ديلامين بالفعل الى منطقة شط العرب فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ ، وعند وصولها فى ذلك التاريخ كانت الدولة العثمانية قد أعلنت الحرب على بريطانيا قبل ذلك بأيام قليلة ، وما أن أعلنت الحرب من جانب الدولة العثمانية حتى غادر القنصل البريطانى مدينة البصرة ملتجئا الى المحمرة التى اتخذت قاعدة من قواعد النفوذ البريطانى فى خلال سنوات الحرب العالمية الأولى[٣] .

من هذا يتضح أنحملة شط العرب كانت أمرا مقررا سواء أعلنت الدولة العثمانية الحرب أم لم تعلنها خاصة وأن النشاط الألمانى كان قد بلغ أقصى حد له فى جنوب فارس ، وقد رأت حكومة الهند أن تنتهز فرصــة اعلان الدولة

(١) انظر التقارير التى أعدها السير هرتزل والمستر باركر عن الأوضاع فى الخليج العربى فى الوثائق السياسية المتعلقة بأسباب الحرب العالمية الأولى المجلد العاشر الجزء الثانى ص ٧٠ وما بعدها .

(٢) Philip Graves, The Life of sin Percy cox P. 178

(٣) Marlowe, op. cit. P. 44

العثمانية الحرب حتى تستميل اليها بصراحة أكثر شيوخ الامارات العربية فى شمال الخليج وقد اتضح ذلك بصفة خاصة بالنسبة لامارة الكويت فعلى الرغم من أنه حين نشبت الحرب لم تكن الامارة ملزمة بموقف معين نجاه بريطانيا الا أن الموقف قد تغير باعلان الدولة العثمانية الحرب اذ ظهر فى الكويت شىء من العطف على الدولة العثمانية وكان لابد فى هذه الحالة أن تتخذ الحكومة البريطانية موقفا حاسما ووضح ذلك فى التبليغ البريطانى الذى وجهه المقيم السياسى البريطانى فى الخليج السيربرسى كوكس الى الشيخ مبارك بن الصباح حاكم الكويت وتضمن ذلك التبليغ أن يعمل بالتعاون مع مشايخ العرب الموالين لبريطانيا لهدف أساسى هو تحرير البصرة من السيطرة التركية ويهاجمون لذلك أم القصر وصفران وبوبيان ويعملون أيضا على منع الامدادات التركية من الوصول الى البصرة الى جانب تأمين المعدات البريطانية وحماية المقيمين فى البصرة وممتلكاتهم كما تعهدت الحكومة البريطانية من جانبها بتأمين شيخ الكويت ضد جميع الآثار التى يمكن أن تترتب على الهجوم الذى طلبت منه أن يقوم به فى صفوان وأم القصر وبوبيان الى جانب التعهد بعدم اعادة البصرة بعد تحريرها الى الحكومة التركية والاعتراف بأن مشيخة الكويت حكومة مستقلة تحت الحماية البريطانية[١] الى جانب ضمانها ابقاء حدائق وبساتين النخيل التى فى حيازته وحيازة خلفائه فى منطقة الفاو معفاة من الضرائب بصفة دائمة[٢] .

وعقب هذا التبليغ اخذ الشيخ مبارك يعبىء قواته من البدو الذى كان يملك عليهم تأثيرا خاصا ضد احتمال غزو تركى لامارته وعلى الرغم من أنه لم يشتبك فى عمليات عسكرية ايجابية الا أن قواته كانت مهمة فى تأمين ظهر القوات الهندية فى المراحل الأولى من حملة العراق[٣] ، كما ظل الشيخ رغم المعارضة

---

(١) على الرغم من أن التبليغ البريطانى كان مؤقتا بظروف الحرب وكان من المفروض أن تنتهى صفة الحماية البريطانية للكويت عقب زوال الظروف الداعية اليها فقد استمرت بريطانيا محتفظة بذلك الوضع حتى عام ١٩٦١

(٢) الواقع أن التعهد الذى قدمته الحكومة البريطانية لكل من شيخ الكويت وشيخ المحمرة باعفاء مزارع نخيلهم فى الفاو وشط العرب من الضرائب أصبح معرضا بعد ذلك للنقد الشديد لأن الحكومة الوطنية التى قامت فى العراق على انقاض الحكومة التركية اخذت تمارس سلطتها فى فرض الضرائب على هذه المزارع.

(٣) Merlowe, op. cit. P. 74.

الوطنية ثابتا فى مساندة الانجليز فى احتلالهم للبصرة وأبدل العلم العثمانى الذى كان يرفعه على امارته وعلى ظهر سفنه بعلم كويتى خاص استجابة لتعليمات الحكومة البريطانية حتى يمكن لقواتها أن تميز بين أعلام الكويت الصديقة وبين الأعلام العثمانية المعادية[١] وتبع التبليغ البريطانى الى الكويت تبليغ آخر أعلنه السيربرسى كوكس غداة وصول الحملة الى شط العرب للزعماء العرب القاطنين فى المنطقة فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ وذلك بهدف ايجاد جو مهيىء للحملة البريطانية التى كان عليها التقدم بعد ذلك من الفاو صوب البصرة بهدف احتلالها وقد جاء فى هذا التبليغ «ليكن معلوما لديكم أن الحكومة البريطانية اضطرت للدخول فى الحرب ضد الدولة العثمانية نتيجة لتحريض ألمانيا وقد اضطرت الحكومة البريطانية ازاء ذلك الى ارسال حملة الى شط العرب بغرض حماية تجارتها وأصدقائها وطرد القوات التركية المعتدية وليكن معلوما للجميع أن بريطانيا ليست فى نزاع مع السكان العرب القاطنين على شواطىء دجلة والفرات وعلى هؤلاء ألا يسمحوا للسفن التركية أن ترسو فى موانيهم وعليهم أيضا ألا يحملوا سلاحا لأنه من الصعب على القوات البريطانية أن تفرق بين العدو والصديق المسلح» . وكان من أثر التحركات العثمانية فى مقاطعة خوزستان والاهواز أن خشيت الحكومة البريطانية ما قد يترتب على ذلك من تهديد للمنشآت البترولية فى المنطقة فتقدمت فرقة من القوات الهندية من قارون الى الأهواز بهدف حماية هذه المستودعات من ناحية فضلا عن تقديم الحماية لشيخى الكويت والمحمرة والوقوف الى جانبهما ضد احتمال تقدم ألمانى تركى فى مياه الخليج ، وفيما يبدو أن الضغط العثمانى كان بالغا أشده لدرجة استنجد معها الشيخ خزعل بالمقيم السياسى فى الخليج فى رسالة بعثها اليه فى ١٠ نوفمبر ١٩١٤ كما كان على الحكومة البريطانية أن تعزز ضمانها بتقديم الحماية للزعماء العرب فى جنوب العراق ووعدهم بتخليصهم من الترك ومواصلة جهودها لطردهم من مقاطعات جنوب فارس الى جانب تقريرها احتلال ولاية البصرة .

---

(١) الفرحان : مختصر تاريخ الكويت ص ١٢٢ ، ويلاحظ أن الراية الكويتية الخاصة بدأت تستخدم منذ أن ضربت احدى المدرعات الحربية البريطانية سفينة كويتية لرفعها الراية العثمانية على اعتبار انها من سفن الأعداء .

وقد ثار الوطنيون على الشيخ خزعل حاكم المحمرة لشده أزر الانجليز ضد الدولة العثمانية وفيما يرجح لدينا أن العثمانيين كانوا هم المحرضين لثورة السادة التى واجهها الشيخ خزعل ابان نشوب الحرب ، ولما كان الشيخ مبارك ابن الصباح يخشى من احتمال انتقال الثورة الى بلاده فقد رأى أن يمد صديقه خزعل بمتطوعين من بلاده ولكن الكويتيين وقد علموا أنهم سيقاتلون اخوانهم أظهروا العصيان وجاهروا بالامتناع[1] ووضح أن دعوة الجهاد الدينى قد أثمرت ثمرتها فى الكويت لدرجة آثر معها مبارك أن يقابل الموقف بالهدوء فلم يجدمايعلل موقفه أمام قومه سوى تذكيرهم بالصداقة التى تربط بينه وبين الشيخ خزعل وأنه لم يقصد الا حمايته وحماية أسرته وأمواله من الثائرين عليه ومراعاة لعاطفة الصداقة وان كان قد تبع ذلك بتقرير ضريبة فادحة على الذين تزعموا هذا التمرد كما نفى المحرضين للثورة واستدعى نفرا منهم بحضور القنصل الانجليزى فى الكويت حيث واجههم بتأنيب شديد . وهكذا نكاد نلمح أن الشيخ مبارك قد واجه بوادر حركة عصيانية ان لم تكن بوادر ثورة وطنية حينما أعرب له الكثيرون من أنهم يعتبرون الخروج على الدولة العثمانية ارتدادا صريحا عن الاسلام[2] .

وكان من نتيجة التحركات العثمانية التى كان يقودها سامى بك قائد القوات العثمانية فى البصرة وتقدمه الى منطقة مواجهة للمحمرة فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٤ بهدف احتلالها وتقدم قوات عثمانية أخرى بهدف احتلال بعض المقاطعات الفارسية أن صممت القيادة البريطانية على ضرورة احتلال البصرة وهكذا بينما كان مقررا للحملة البريطانية ان تقتصر فى بداية الأمر على منطقة شط العرب عند رأس الخليج لم يلبث أن اتسعت منطقة عملياتها نتيجة للتحركات العثمانية المشار اليها ، وبالفعل تم للانجليز احتلال البصرة فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٤ وأذاع السيربرسى كوكس غداة احتلالها منشورا أكد فيه أن الامبراطورية تحوى عناصر مسلمة أكثر مما تحتويه الامبراطورية العثمانية المتداعية[3] « ويلاحظ أن الحملة

---

(١) عبد العزيز الرشيد ـ تاريخ الكويت ـ جـ ٢ طبعة بيروت ص ١٧٤

(٢) الشملان : تاريخ الكويت ص ١٧١

(٣) Graves, op. cit. P. 181.

الانجليزية لم تقتصر على احتلال البصرة وانما وجهت اهتمامها بعد ذلك الى احتلال بغداد ردا على التحركات العثمانية الألمانية اذ اتخذ الألمان من قنصليتهم فى بغداد محورا لنشاط دبلوماسى واسع المدى فى الشرق الأوسط وفى منطقة المحيط الهندى فأعدت الكثير من البعثات السرية للاتصال بالحكام وأهمها بعثة ارسلت الى فارس برئاسة وازماس Wasmass كان من أهم أهدافها الاتصال بأنصار الألمان وتنظيم حرب غير نظامية ضد الانجليز فى مناطق النفط فى جنوب فارس وكذلك فى سواحل الخليج التى يمكن أن يصل اليها النفوذ الألمانى . وعلى الرغم من أن فارس أعلنت حيادها فى الحرب الا أنها لم تكن فى مركز يسمح لها أن تؤكد أو تدافع عن هذا الحياد اذ أنها لم تستطع أن تتجنب نشاط الدول المتصارعة من الجانبين وكان الانجليز كثيرا ما يتهمون الدولة العثمانية بأنها لم تحترم حياد فارس فى حين أنهم لم يحترمواهم أنفسهم ذلك الحياد كما أصبح القسم الشمالى الغربى من فارس أرض قتال بين الروس والترك الروس من القوقاز والترك من آسيا الصغرى ونتيجة للنشاط الذى بذله واسماس أصبحت القبائل فى جنوب غربى فارس الى جانب ألمانيا حتى لقد أطلق على واسماس لقب « لورنس فارس » والحقيقة أن الألمان قد نجحوا فى سنوات ما قبل الحرب فى تعزيز مركزهم الاقتصادى واقامة علاقات اقتصادية مع فارس[1] وعندما نشبت الحرب كانوا فى مركز موائم للقيام بنشاط ضد الحلفاء وطالما كانت فارس محتفظة بحيادها فانهم احتفظوا — بعلاقاتهم الديبلوماسية والقنصلية وممثليهم التجاريين ولكن لم تلبث أن أخذت كل من روسيا وبريطانيا تهددان حياد فارس بعد نشوب الحرب وكذلك كانت تفعل الدولة العثمانية حليفة ألمانيا ، وحول نهاية سنة ١٩١٤ كانت البعثة الألمانية المشكلة من واسماس وبعض الألمان الآخرين قد استطاعت الوصول الى بغداد بهدف تخطيط بعض العمليات العسكرية فى فارس ، ومن أهم الخطط التى وضعت فى ذلك الوقت والتى لم يقدر لها أن تنفذ بفعل المراقبة البريطانية الشديدة الدخول الى أفغانستان عبر فارس ومن هناك محاولة تحريض الأمير حبيب الله أمير أفغانستان على الانضمام الى جانب ألمانيا لمهاجمة الهند ، والخطة الثانية محاولة اثارة الأكراد فى شمال فارس ضد الانجليز ،

---

(١) راجع النشاط الألمانى فى فارس والخليج العربى فى تاريخ الحرب العظمى — المجلد السادس جريدة المقتطف ص ٤٩٦ وما بعدها .

ومع ذلك فان أهم العمليات هى التى قادها واسماس بنفسه فى جنوب غرب فارس والتى كانت موجهة ضد مستودعات البترول والمصالح البريطانية فى بوشهر ،وكان واسماس يعتمدعلى المدة التىقضاها فى بوشهرحينما كانقنصلا لبلاده فىالسنوات السابقة للحرب فى الحصول على تأييد من جانب أنصاره العديدين من الفرس الذى تمكن بمساعدتهم بالفعل من الاستيلاء على المنشآت البريطانية فى شيراز ونجح فى حصار المقيمية البريطانية فى بوشهر كما نجح فى احتلال شيراز نفسها مما اضطر بريطانيا الى نقل جزء من قواتها العاملة فى العراق ، وقد علل البعض هزيمة كوت الامارة نتيجة لذلك ولاشك أن هزيمة الانجليز فى عام ١٩١٦ قد أثرت على مركزهم فى فارس فقد زحف العثمانيون شرقا الى خانقين وهددوا من جديد آبار مسجد سليمان وقابل الانجليز ذلك بارسال حملة أخرى عبر سهل قارون لحماية الآبار وهكذا ازدادت أعباء بريطانيا العسكرية ولم تكن ظروفها تسمح لها بفتح جبهة جديدة فى فارس ومن ثم لجأت حكومة الهند الى تكوين جيوش من الوطنيين يقودها ضباط انجليز وبالفعل استطاع السيربرسى سيكس Sykes [1] تكوين قوة كبيرة من الهنود والقبائل الفارسية والعربية التى انحازت الى الانجليز ولم تساير الحركات الاسلامية أو الوطنية ، تلك الحركات التى كانت تعطف على دولة الخلافة الاسلامية وحليفتها ألمانيا وقد عرفت هذه القوة باسم South Persia Rifles ، وبفضل نشاط سيكس أخذ مركز واسماس يتدهور تدهورا سريعا[2] واستطاعت بريطانيا خلال العامين المتبقيين من الحرب المحافظة على سيطرتها فى جنوب فارس والخليج العربى[3] .

ومن حيث تعامل بريطانيا مع رؤساء الخليج فقد حرصت بعد قيام الحرب مباشرة على جمع الرؤساء التابعين لها والزامهم بسياسة موحدة اذ أنها كانت تخشى خلال وقوع العمليات العسكرية فى شمال الخليج وشط العرب والبصرة من أن تستغل الدولة العثمانية العاطفة الدينية لجذب أولئك الرؤساء اليها بشكل

---

(١) للسير برسى سيكس كتاب معروف عن تاريخ فارس .
Cf. Sykes, History of Persia, London 1951 2 vols.

(٢) عقب هدنة ١٩١٨ هرب واسماس ولكن لم يلبث أن اعتقله الفرس واسلموه الى الانجليز الذين أرسلوه بدورهم الى المانيا انظر : **Marlowe op cit P. 44**

(٣) العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٢٣٩

قد يؤدى الى عرقلة خط سير الأساطيل البريطانية ونقل قواتها عن طريق الخليج أو افساد الحصار الذى قررت فرضه على الدولة العثمانية من المنافذ العربية ولذلك رأت أن تسبق الدولة العثمانية فى الاستفادة من أولئك الرؤساء الذين سبق لها أن تحالفت معهم ومعرفة موقفهم من الحرب حتى اذا ما وجدت منهم ميلا اليها جمعت كلمتهم تحت من تراه أكثر استعدادا على تأييدها ومساندتها ولذلك سارع اللورد هاردنج Hardinge نائب الملك فى الهند بالقيام برحلة الى الخليج العربى(١) والعمل على تنظيم اجتماع يضم كل من عبد العزيز آل سعود حاكم نجد والاحساء والشيخ خزعل خان حاكم امارة عربستان والشيخ عيسى بن خليفة حاكم البحرين والسيد تيمور بن فيصل سلطان مسقط فى ضيافة الشيخ مبارك بن الصباح بالكويت لتوسط المدينة وأهميتها فى العمليات العسكرية البريطـــانية فى منطقة الخليج وشط العرب(٢) وفيما يرجح أن ما ذهبت اليه حكومة الهند كان يهدف بالدرجة الأولى الى تأييد ظهر حملة العراق وقد عرف هذا الاجتماع باسم مؤتمر الكويت الأول تميزا له عن مؤتمر ثان عقد بالامارة فى العام التالى وسوف نشير اليه فيما بعد .. وتولى اللورد هاردنج بعد وصوله الى امارة الكويت فى يناير سنة ١٩١٥ رئاسة المؤتمر(٣) وحضر الاجتماع كل من السيربرسى كوكس الذى وفد من البصرة والقنصل الانجليزى فى الكويت والشيخ مبارك بن الصباح على أن مؤتمر الكويت الأول لم يسفر عن نتيجة ذات أهمية بالنســبة لحكومة الهند اذ لم يلب الدعوة من أمراء العرب الذين وجهت اليهم الدعوة لحضور هذا الاجتماع سوى الشيخ عيسى بن خليفة حاكم البحرين الذى أوفد ابنه حمد ليحضر المؤتمر نيابة عنه أما عبد العزيز آل سعود فعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تجد فى ذلك المؤتمر فرصة للاجتماع به الا أنه لم يلب الدعوة على الرغم من أن الشيخ مبارك قــد كلف من قبل

(١) عرض اللورد هاردنج رحلته التى قام بها فى الخليج العربى عقب نشوب الحرب العالمية الأولى ضمن مذكراته عن السنوات التى قضاها نائبا للملك فى الهند انظر :

Lord Hardinge, My Indian years, The Reminiscences of Lord Hardinge of the Pan-Khurst London 1945 PP. III — II4 see also old diplomacy London 1947.

(٢) حسين خزعل ـ تاريخ الكويت الســياسى جـ ٣ ص ٣١ انظر أيضا عبد العزيز الرشيد تاريخ الكويت جـ ٢ ص ١٧٢/١٧٣

(٣) CF. Lord Hardinge, my Indian Years PP. 113-114.

حكومة الهند أن يبذل كل ما فى وسعه لحثه على ضرورة الحضور وبالفعل أخذ مبارك فى الفترة التى سبقت انعقاد المؤتمر يلح عليه بالحضور الى الكويت ويحذره من أن يمنعه عن حضور المؤتمر أى مانع سيما ابن الرشيد فان الاشتغال بمحاربته قد يؤدى الى ارتفاع قيمة غريمه فى أعين الانجليز أو الأتراك ، ولكن فيما يبدو أن عبد العزيز كان مشغولا بالفعل بأمر ابن الرشيد لدرجة حالت بينه وبين حضور المؤتمر أو لعله فيما يعتقد البعض قد استاء من عقد المؤتمر فى الكويت اذ كان قد تولد بين مبارك وعبد العزيز شىء من التحاسد .

أما تيمور بن فيصل سلطان مسقط فلم يحضر الاجتماع بدوره لانشغاله بقمع الثورة الأباضية التى قامت ضد حكمه ، كذلك انشغل خزعل خان بقمع ثورة السادة فى بلاده أو لعله من ناحية أخرى قد استسلم للمعارضة الشعبية التى قامت ضد هذا المؤتمر .

وازاء هذه الظروف لم يجد اللورد هاردنج بدا من تأجيل المؤتمر الى وقت آخر غير أنه لم يشأ أن يفض الاجتماع دون استفادة فأراد أن يذكر الشيخ مبارك بفضل الحكومة البريطانية عليه وعلى رعيته وما نالته الامارة من الأمن والحماية أثناء الحرب وتمتعها دون سواها بالأرباح الطائلة . ويبدو أن مبارك قد أحس بالضغط الانجليزى الواقع على امارته نتيجة طبيعية للحرب ومن ثم دارجدل عنيف بينه وبين اللورد هاردنج أكد فيه مبارك أنه وقف مع الانجليز ضد العثمانيين فى امارته ولكنه اشار الى ما يقوم به المعتمدون البريطانيون من استفزازات ومحاولتهم التسلط على الامارة وقد طمأنه هاردنج بأنه ليس لحكومة الهند أية أطماع فى امارته وهى لم تأت الى الكويت الا لصد العثمانيين عنها على أنه اذا بدى من أحد معتمديها شيئا فما على الحاكم الا أن يرفع ذلك اليها .. والواقع أن زيارة اللورد هاردنج الى الكويت على الرغم من أنها لم تسفر عن شىء ذى بال الا أنها توضح لنا شدة اهتمام حكومة الهند بأمراء الخليج العربى فى ظروف الحرب .

والجدير بالذكر أنه حدث خلاف شديد فى الرأى فيما يختص بالسياسة التى تلتزمها بريطانيا بالنسبة لعلاقتها بأمراء العرب بين المكتب العربى فى القاهرة وبين حكومة الهند التى كانت مسئولة عن العلاقات الانجليزية العربية فى الجزيرة

العربية والخليج العربى ، ويرجع جانب كبير من هــذه الخلافات الى المنافســة التقليدية بين الحكومتين الى جانب اختلاف الشخصيات فضلا عن اختلاف اتجاه السياسية نفسها ، فالمكتب العربى كان يهدف الى توثيق العــلاقات الانجليزية العربية فى نطاق المنافسات بين القوى التى سيقدر لها أن تظهر فى أعقاب الحرب ولذلك اتجهت سياسات القائمين به نحو انشاء دولة عربية أو اتحاد كونفيدرالى بين الدول الخاضعة للحماية البريطانية يكون شـــأنه فى المقام الأول محاصرة الاطماع الفرنسية فى الليفانت وفى الدرجة الثانية المحافظة على خطوط المواصلات الأمبراطورية الى المحيط الهندى ، أما الحكومة الهندية وهى التى اعتادت أن تنظر الى العلاقات العربية فى نطاق أمن الهند فقط فقد كانت تفكر فى احكام سيطرتها على العراق وايجاد مجموعة من الشيوخ الخاضعين للحماية البريطانية تكون علاقتهم بحكومة الهند على غرار العلاقة التى تربط الحكومة الهندية بأمراء الهنود ، ولذلك كانت حكومة الهند تعارض بشدة المساعى التى كان يبذلها المكتب العربى فى القاهرة وتشجيعه شريف مكة على الثورة [١] ، وبعبارة أوضح نستطيع أن نقول أنه بينما كان المكتب العربى ينظر الى الخليج العربى والعراق باعتبارها حد أقصى لأمبراطورية بريطانية جديدة تحكم من القاهرة كانت حكومة الهند تنظر الى الخليج والعراق بمثابة حد غربى أقصى للأمبراطورية البريطانية التقليدية التى تحكم من نيودلهى .

وفى مارس ١٩١٥ عندما اشتدت وطأة القتال فى فرنسا وتلقى جيش الحلفاء ضربات شديدة من الألمان اضطر بسببها الى التقهقر رأت الحكومة البريطانية أن تحدد موقفها من القضية العربية وأن تضع سياسة معينة ازاء زعماء العرب فقررت عقد مؤتمر فى القاهرة يضم جميع الاخصائيين فى المســائل العربية — سواء القائمين بأمر المكتب العربى فى القاهرة أو موظفى الخليج التابعين لحكومة الهند — وفى ٢٣ مارس سنة ١٩١٥ وصل السير برسى كوكس الى القاهرة ليمثل رأى موظفى الخليج . وقد عقد الاجتماع برئاسة السير ريجنالد وينجت Wingate المندوب السامى فى مصر وبحضور كل من الجنرال كليتون والكوماندر هوجارث والماجور كورنوالوس وهم ممثلو المكتب العربى بالقاهرة ، والكولونيل سير بل ولسن ممثل الحكومة البريطانية فى الحجاز وكان السير برسى كوكس هو الممثل

---

(١) Marlowe, The Persian gulf in the 20th Century P. 49.

الوحيد لموظفى الخليج وحكومة الهند ولكن خبرته الواسعة ومعرفته بحقيقة الأوضاع فى الجزيرة العربية والمامه الدقيق بتفاصيلها ساعدته فى اقناع المجتمعين باستحالة تكوين اتحاد عربى تحت زعامة الشريف حسين وكان السير برسى كوكس من ناحيته يرى امكان التفاهم مع الأمير عبد العزيز تقديرا للمركز الذى صار اليه فى أواسط الجزيرة العربية وعلى سواحل الخليج العربى[١]، والحقيقة أن ابن سعود لم يصادف مشكلات تذكر حينما مال الى التعاون مع الانجليز فان ارتباط دولته بالحركة الوهابية جعلها منذ القدم خصما تقليديا للدولة العثمانية وهى ترفض زعامتها الروحية وفضلا عن ذلك فان ابن سعود كان مشتبكا فى صراعات مستمرة ضد آل الرشيد حلفاء العثمانيين فى نجد[٢] ، ولم يكن الأمير عبد العزيز بحاجة الى من يغريه بالتعاون مع الحلفاء وبعض الترك لأنه كان ناقما عليهم لما عاناه أسلافه من جورهم والتنكيل بهم وكان هو نفسه قد عانى منهم ومن مؤامراتهم . أما عن الدولة العثمانية فانها لم تضيع الفرصة من جانبها فطلبت عند نشوب الحرب مساعدة كلا من عبد العزيز آل سعود والأمير ابن الرشيد[٣] كما طلبت أن يمدها ابن سعود بمجاهدين يشتركون فى حرب قناة السويس وأن يساعدها أيضا فى صد هجمات الانجليز على العراق .وكانت بوادر عناية الانجليز بعبد العزيز قد بدأت قبل أشهر من قيام الحرب بوصول مبعوث بريطانيا يدعى الكابتن شكسبير Shakespeare وكان شكسبير موفدا الى نجد من قبل السير برسى كوكس المقيم البريطانى فى الخليج العربى بقصد التعرف على شخصية الامام عن كثب ومشاهدة ملكه العريض الذى أمتد حتى شمل معظم أواسط الجزيرة العربية . وقد بعث شكسبير الى حكومته بتقرير مفصل عن مشاهداته فى نجد وقد أكد فى هذا التقرير نجاح عبد العزيز فى السيطرة على القبائل وحجبها عن عوائدها المتوارثة واشاعة الأمن فى البلاد بعد أن كانت صحراء نجد موطنا للقتال والنهب[٤] .

---

(١) فون ميكوش ــ عبد العزيز ص ١٢٢/١٢٣

(٢) صلاح العقاد ــ التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٢٣٧

(٣) Graves, op. cit. P. 105.

(٤) صلاح الدين المختار ــ تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها ج ٢ ص ١٦٢

وعند نشوب الحرب مباشرة وجد عبد العزيز أن الفرصة قد سنحت له لتعزيز مركزه وأن يبرز شخصيته فى الجزيرة العربية والخليج فبعث عدة رسائل الى كل من الشريف حسين وابنه الرشيد وامام اليمن ومبارك بن الصباح يطلب منهم الاتفاق على رأى موحد أزاء الحرب الدائرة وأن يعقدوا اتفاقا للمذاكرة فيما قد يؤدى الى اتفاق عله ينقذ العرب من أهوالها أو تقرير التحالف مع الدولة التى تتعهد بصيانة وتعزيز المصالح العربية ومصلحتهم كأمراء[1] ولكن لم يصل الجميع الى اتفاق فيما بينهم فقد اقترح مبارك بن الصباح أن يقتصر الأمر على الاجتماع الذى يعقد فى امارته والذى سيحضره اللورد هاردنج أما امام اليمن فلم يرد على رسالة عبد العزيز اليه فى حين اكتفى الشريف حسين بايفاد ابنه الأمير عبد الله الى حدود نجد للتباحث فى الأمر مع رسول عبد العزيز ولكن الاثنين افترقا دون ان يصلا الى قرار ما أما عن بن الرشيد فقد أصر على موقفه المؤيد للدولة العثمانية وصارح عبد العزيز بأنه من رجال الدولة يحارب اذا حاربت ويصالح اذا صالحت .

والواقع أن الدولة العثمانية من ناحيتها لم تفقد الأمل فى امكانها استمالة الأمير عبد العزيز الى جانبها[2] على الرغم من اعتمادها على آل الرشيد اذ أرسلت وفدا عثمانيا يحمل الى الأمير عبد العزيز عشرة آلاف ليرة ذهبا وكان من بين أعضاء هذا الوفد السيد محمود شكرى الألوسى الذى طلب من عبد العزيز أن يتخذ جانب الدولة العثمانية ولكن عبد العزيز أفهمه أنه لا يمكنه مقاومة الانجليز فى الوقت الذى تقدمت فيه قواتهم صوب البصرة . وحاولت الدولة العثمانية استمالته اليها بوفد آخر برئاسة طالب النقيب ولكن الوفد لم يلبث أن فوجيء بعد وصوله الى الرياض باحتلال الانجليز للبصرة وتوسط الأمير له لدى الانجليز حتى أعادوه الى بلاده .

---

(١) زهرة فريث ـ الكويت كانت منزلى ص ٣١

(٢) كانت الدولة العثمانية عد اعترفت بالأمير عبد العزيز واليا على نجد ومتصرفية الاحساء وقد منحته لقب « باشا » راجع جريدة المقطم عدد ٧٦٨٢ فى ١٩١٤/٧/١ وكذلك : Philby, Arabia P. 393.

وعلى الرغم من أن عبد العزيز اتخذ جانب الانجليز كما يتضح ذلك من مواقفه المتعددة[١] وخاصة من معاهدة القيف التى عقدها مع بريطانيا والتى سوف نشير اليها فيما بعد الا أن موقفه فى الحرب كان أقرب ما يكون الى الحياد اذ رفض أن يشترك مع الانجليز فى محاربة العثمانيين فى العراق وفى نفس الوقت رفض أن يحارب الشريف حسين كما أراد الترك ، ويبدو أن عبد العزيز قد وجد أن من الأفضل ألا يوزع قواته قبل أن يقضى على منافسة آل الرشيد اذ ظل يعتبر الخطر على أسرته لا يزال يكمن فى حائل — والواقع أن الانجليز كانوا أسبق من غيرهم تعرفا على بواطن الأمور وعلى المشكلات التى كان يتعرض لها الأمير عبد العزيز فضلا عن أنهم كانوا يرون أن مصلحتهم قد تتفق فى بعض الأحيان مع مصلحته وعلى ذلك أوفد السير برسى كوكس ، الذى أصبح يشغل فى ذلك الوقت منصب الضابط السياسى لقوات حملة العراق الكولونيل شكسبير الوكيل البريطانى فى الكويت بقصد القيام برحلة داخل الجزيرة العربية[٢] بهدف الاتصال بالأمير عبد العزيز وذلك للحصول على ضمانات ودية لصالح الحلفاء وفى نفس الوقت لكى يمثل مصالح بريطانيا فى الرياض[٣] . وقد رأى الانجليز أن عبد العزيز قد يكون ذافائدة كبيرة بالنسبة اليهم فى حالة احتلالهم للبصرة اذ باستطاعته أن يجعل قبائل شمر ورئيسها ابن الرشيد والمنتفق ورئيسها عجمى السعدون مضطرة للبقاء على الحياد بدلا من تهديدها الجناح الأيسر للجيوش البريطانية عند تقدمها من الفاوالى الشمال ، وكان شكسبيرسفيرا مثاليا ذا ثقافة عسكرية وادراك وبداهة سياسية فى تعامله مع العرب ، كما كان مبعوثا اليها لابن سعود وربما كان خطأة الوحيد فى نظر فيلبى[٤] أنه لم (يتنازل) فى أن يرتدى الملابس العربية أثناء وجوده بين ظهرانى البدو فى الجزيرة العربية .

---

(١) راجع ذلك فى الكتاب الأسود — لم يذكر اسم المؤلف ص ٨/٧

(٢) cf. Carruthers, Captain shakespeare Last Journey, Geographical Journal vol LIX-May-June 1922 pp. 521-525.

(٣) Armstrong, Lord of Arabia, P. 105

(٤) Philby, Arabia PP. 234-235.

ولم يكن قصد الانجليز اكتساب مساعدة ابن سعود فقط بل فى نفس الوقت الهاؤه عن التفكير فى متابعة التوسع فى الخليج من ناحية واضعاف قوة الترك من ناحية أخرى (١) وقد عرض شكسبير على ابن سعود ان يعاون الجيش الانجليزى فى الهجوم على البصرة (٢) لكن ابن سعود وقد أدرك خطورة هذه المغامرة رفض الاجابة على طلب شكسبير وأوضح له كما أوضح للسيربرسى كوكس أنه من طرف الانجليز وأنه يود من صميم قلبه تحرير البصرة من الحكم التركى لكنه يود أن تعقد بينه وبين انجلترا معاهدة صريحة محدودة الشروط والأهداف كى يستطيع القيام بعمل حاسم وقد بدأت المفاوضات بينه وبين شكسبير عدة أسابيع دون أن تؤدى الى نتيجة الى أن وضع الترك أنفسهم حدا للموقف بتأليب ابن الرشيد للهجوم على ابن سعود .

وقد عبر شكسبير الذى استطاع خلال اقامته القصيرة أن يتفهم مشاكل ابن سعود فى رسالة له الى برسى كوكس مؤرخة فى ١٦ يناير ١٩١٥ عن القلق المتزايد الذى أخذ ينتاب الأمير ولكنه فى نفس الوقت أكد شعوره الموالى للانجليز وعواطفه الودية تجاه الحلفاء وأنه يطالب بعقد معاهدة بينه وبينهم لأن موقفه غير المحدد قد يسبب له حرجا بالغا اذ قد يضطر فى هذه الحالة الى اتخاذ موقف قد يكون فى صالح تركيا (٣) .

ولم يكد ينقض وقت طويل على وصول شكسبير الى الرياض حتى كانت الحرب المتوقعة بين حايل والرياض قد بدأها ابن الرشيد بالفعل بوحى من أصدقائه الأتراك ، وبالفعل وصلت القوات التابعة لآل الرشيد الى الحدود السعودية فى أواخر يناير سنة ١٩١٥ بعد أن تلقى ابن الرشيد مساعدة الترك وكتب ابن سعود الى ابن الرشيد يذكره بما بينهما من عهد ومصالحة فأجابه « انى من رجال الدولة وليس لى صلح معك الا اذا رضيت الدولة بذلك » وأعد عبد العزيز

---

(١) بيربى — جزيرة العرب ص ٥١

(٢) كان شكسبير مزودا بتعليمات من برسى كوكس بأن يستغل طموح عبد العزيز فيجعله يعلن الحرب على تركيا على أن تتعهد بريطانيا بمساعدته اذا ما قام بهجوم على الشام أو العراق لتحرير الحرب من سيطرة الترك .

cf. Canning, Franco British Rivalry

(٣) شركة الزيت العربية الأمريكية — عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى ص ٩١/٩٢ انظر أيضا : Graves, op. cit. P. 189.

ابن سعود الترتيبات اللازمة واتخذ الخطط لمقاومة هجمات ابن الرشيد وقد رافق شكسبير مضيفه فى هذه الحملة ويبدو أن اصرار شكسبير على الاشتراك فى الحرب كان بقصد الوقوف بالذات على المقدرة الحربية التى تتمتع بها القوات السعودية وبالفعل اشترك شكسبير فى المعركة التى نشبت بين قوات الاميرين فى موقع قريب من زلفى ولدينا تصريح أدلى به الأمير عبد العزيز وفيه ما يؤكد اشتراك شكسبير فى الحرب بأمر من حكومته وقد اقتطف ويلسن جزءا من هذا التصريح فى كتابه عن الولاءات Loyalties ذكر فيه ابن سعود : « لقد حاربنا ضد ابن الرشيد فى أرطاوى وتلت ذلك معركة كبيرة يا للخسارة .. ان صديقنا المخلص والشخص النادر الذى ينمى لنا الخير قد أصيب من بعيد ومات ... وكنا قد ألححنا عليه ليتركنا قبل القتال ولكنه أصر على أن يخوضه قائلا ان أوامرى أن اكون معكم وفى ذهابى مخالفة لشرفى وأوامرى ويجب أن أبقى بالطبع ... أرجو ابلاغ أسفى لحكومة جلالة الملك »[1] .

وقد عرفت المعركة التى وقعت بين عبد العزيز وآل الرشيد بمعركة أجراب وقد بدأت بتفوق ظاهر لقوات ابن سعود وكان النصر حليف المشاة السعوديين فى أحد الجناحين بينما كانت الغلبة لفرسان جبل شمر فى جناح آخر اما شكسبير فقد أصيب برصاصة أودت بحياته حيث كان باعتباره ضابطا سابقا فى المدفعية يشرف على اطلاق القنابل من مدفع للميدان غنمته القوات السعودية وضع قيد الاستعمال فى المعركة[2] . وقد أطلق الفرسان من العجمان صيحة الانهزام فانكشف جناح ابن سعود الأيسر وأغارت عشائر ابن الرشيد عليه فاندحر الجناح والنتيجة فوز البدو من كلا الفريقين وهربهم بالذى غنموه وعاد ابن سعود بقواته الى الرياض كما عاد ابن الرشيد بقواته الى حايل كل منهما يدعى النصر لنفسه وبعد بضعة أشهر من هذه المعركة وقع الأميران صلحا فيما بينهما وان كان ذلك صلحا اسميا اذ أن الصراع لم يتوقف بينهما[3] .

---

(١) التحكيم لتسوية النزاع الاقليمى بين مسقط وابو ظبى وبين المملكة العربية السعودية ج ١ الأساس ص ٣٧٣ انظر أيضا : Wilson, Loyalties P. 31

(٢) الجدير بالذكر أن اسم الكابتن شكسبير لا يزال راسخا فى أذهان السعوديين عونه فى سبيل الهدف الذى كانوا يحاربون من أجله .
انظر زهرة فريث ــ الكويت كانت منزلى ص ٣١/٣٢

(٣) صلاح الدين المختار ــ تاريخ المملكة العربية السعودية ــ فى ماضيها وحاضرها ج ٢ ص ١٦٩

وكان موت شكسبير فى يناير ١٩١٥ كارثة لبلاده كما كان خسارة لابن سعود اذ ظل الأخير متجهما فى خيامه لايكاد يؤثر فى التطورات الجارية فى الأنحاء الأخرى من شبه الجزيرة العربية والتى جعلته الآن فى مركز ثانوى فى السياسة العربية ، هذا علاوة على أنها زادت أعداءه وضخمت قوتهم ويبرز من هؤلاء أمير حايل ابن الرشيد الذى انحاز الى الأتراك وكان أهم من غيره اذا ما قورن بالشريف حسين فى الحجاز أو الزعماء الآخرين من حلفاء الانجليز وزاد الأمر سوءاً أن السير برسى كوكس لم يكن مستعدا أن يجازف بحياة أحد من ضباطه فى مهالك الصحراء . ولكن كوكس لم يلبث أن أخذ يقدر مركز الأمير عبد العزيز وبدأت بينهما اتصالات وعلاقات ساهم ممثل ابن سعود فى البصرة المدعو عبد اللطيف بن قنديل فى تعزيزها وفى ديسمبر ١٩١٥ طلب كوكس من حكومته أن تفوضه فى عقد معاهدة مع ابن سعود ، وعلى أثر موافقة الحكومة البريطانية على ذلك بدأ كوكس يعمل على تنظيم مقابلة بينه وبين الأمير حيث أبحر من البصرة الى ميناء العقير وتمت المقابلة بالفعل فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ وكان اجتماع العقير أول مرة يلاقى فيها ابن سعود السيربرسى كوكس وكانا قبل ذلك قد دخلا فى مفاوضات ومراسلات كثيرة [١] وفيما يبدو أن كلا منهما قد أعجب بشخصية الآخر ، وبعد أحاديث ودية وتأكيدات من عبد العزيز بحرصه الشديد على حماية المصالح البريطانية وأن الولاة الذين يعينون من قبله فى الهفوف والقطيف لديهم التعليمات بحماية هذه المصـــالح [٢] وقع الاثنان على معاهدة تنظيم العلاقات فيما بينهما فى بلدة دارين بالقرب من القطيف [٣] وقد نصت هذه المعاهدة على اعتراف بريطانيا باستقلال ابن سعود وضمان حرية بلاده ضد أى اعتداء خارجى قد يقع عليها شريطة أن تكون حدودها حسب ما تتمخض عنه الحرب وذلك فى مقابل تعهد ابن ســـعود ألا يهاجم المحميات البريطانية فى الخليج وتضمنت

(١) راجع كتابنا الخليج العربى الفصل الثامن ص ٢٩٧ . نجد وعلاقتها ببريطانيا والدولة العثمانية على عهد الأمير عبد العزيز آل سعود ١٩٠٢/١٩١٤ ، انظر أيضا : Graves, op. cit. P. 198.

(٢) cf. The Book of Admiralty general vol I P. 303.

(٣) يشير بعض الكتاب الى هذه المعاهدة احيانا باسم معاهدة القطيف وقد وقع السير برسى كوكس هذه المعاهدة فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ وصدقت عليها حكومة الهند فى ١٨ يوليو سنة ١٩١٦ Cf. Foreign office-Persian gulf No 67 P. 96

المعاهدة كذلك نصا يقضى بعدم نقل ملكية الأراضى الى أية دولة أجنبية وعلى منع اقامة علاقات سياسية مع أية دولة أجنبية فيما عدا بريطانيا . ولم يبد عبد العزيز أية معارضة على نص المادة السادسة من المعاهدة التى تطرقت الى المشيخات المحمية والتى تعهد فيها كما تعهد آباؤه من قبل أن يتحاشى الاعتداء على الكويت والبحرين ومشايخ قطر وسواحل عمان المشمولة بحماية الحكومة البريطانية ولها صلات مع الحكومة المذكورة وأن لا يتدخل فى شئونها على أن تحدد حدود هذه الأقطار فيما بعد . وفيما يقال أن السيربرسى كوكس انتهز فرصة اجتماعية بالأمير عبد العزيز ليعرض عليه مسألة الخلافة ولكن عبد العزيز كان من بعد النظر بحيث خشى أن تجره هذه المسألة الى عداء من قبل الأمراء العرب فأشار بعرضها على الشريف حسين فان له من النسب ما يؤهله للوصول الى ذلك المنصب(١) .

وقد يكون من المناسب أن نحلل هنا أهمية تلك المعاهدة بالنسبة لكل من الأمير عبد العزيز والحكومة البريطانية فبالنسبة لبريطانيا نستطيع أن نجمل أهمية تلك المعاهدة على النحو التالى :

أولا : ان عقد معاهدة مع الأمير عبد العزيز يمكن أن يؤدى الى سلامة المواصلات البريطانية الى العراق كما يمكن لعبد العزيز بارتباطه مع بريطانيا أن يقف ضد الاتجاه الموالى للترك من خلفاء الشيخ مبارك على الرغم من تعهده فى هذه المعاهدة بعدم الاعتداء على امارة الكويت ولا على غيرها من الامارات المرتبطة ببريطانيا(٢) .

ثانيا : ان اجتذاب الحكومة البريطانية لابن سعود الى جانبها يجعلها تضمن عدم عداءه لشريف مكة الحسين بن على الذى كان قد أصبح منوطا به القيام بدورهام لصالح بريطانيا(٣) خاصة وأن عبد العزيز لم يكن صديقا للشريف حسين بعد أن قامت بينهما الكثير من الصراعات(٤) .

---

(١) جمال الغزى — ميثاق الوحدة لجزيرة العرب الفتاة ص ١٠١/١٠٢
(٢) انظر أيضا صلاح المختار تاريخ المملكة العربية السعودية جـ ٢ ص ١٧١
Graves, op. cit. P. 197.
(٣) Marlowe, op. cit. P. 48.
(٤) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ص ٣٠٩

ثالثا : رغبة حكومة الهند فى ايجاد علاقات من الصداقة مع الأمير عبد العزيز تحقيقا لمصالح ملحة من أهمها التقاء حدود الأمير مع مقاطعات قبيلة عنيز القاطنة على حدود العراق وكان يحكم هذه القبيلة الشيخ فهد صديق ابن سعود ولاشك أن هذه الصداقة يمكن أن تستغلها حكومة الهند فى التأثير على الشيخ ليقف الى جانبها أو يبقى على حياده على الأقل مما يؤدى الى حماية خطوط مواصلاتها الى العراق فضلا عن أن مساعدة ابن سعود لبريطانيا ستكون بمثابة قوة نفوذ لها فى هذه المنطقة .

رابعا : وكان من أهم الدوافع لعقد هذه المعاهدة المخاوف الشديدة التى أبداها حكام الساحل العمانى نتيجة لعودة ظهور الخطر السعودى عقب استيلاء الأمير عبد العزيز على الاحساء فى عام ١٩١٣ ، وكان من الطبيعى أن تعمل بريطانيا على ازالة هذه المخاوف وتبادر الى تأمين مركز الشيوخ الخاضعين لحمايتها فى الساحل الجنوبى للخليج . وحسب المصادر السعودية كان شيخ أبو ظبى الهناوى حمدان ابن زايد هو وحده تقريبا الذى أبدى تلك المخاوف فبدأ على الفور فى تدعيم قوته بالحصول على كميات ضخمة من الذخيرة والسلاح ولكنه سرعان ما تحول الى صداقة السعوديين اذ كتب رسالة الى الأمير عبد العزيز فى عام ١٩١٧ يقول فيها « أين بعض أهل المقاصد الذين كانت رغبتهم الوحيدة التفريق بين الأصدقاء أولى الاتحاد خصوصا بيننا وبينكم ... ويمضى فى القول بأن الذى يقع منه الضرر لآل سعود فهيهات أن يكن له عندنا ملجأ أبدا ومازلنا حاسبين أنفسنا واياكم شركاء فى السراء والضراء » . كما كتب اليه رسالة أخرى فى مارس ١٩٢٠ أكد فيها الوحدة القائمة بينهما وذهب فى ولائه الى حد قوله أنه للأمير بن سعود فى هذه الأطراف « عينا باصرة لكم بخالص النصح والاجتهاد لمافيه مصالحكم مثل ما أن الأخ الشيخ عبد الله بن جلوى فى ناحية بلدكم الحسا قائما بالاجتهاد فى أوامر جنابك فنحن كذلك أن شاء الله فى هذا الطرف الشرقى قائمين بالاجتهاد لما فيه مصالح الجميع مثل ماتظنوا وزيادة وشركاء فى الخير وضده كعضو بغير مفصل والفرق معدوم مدى الحياة والقلوب شواهد على ذلك» وكانت هاتان الرسالتان اجابة على الرسائل التى بعث بها اليه الأمير

---

(١) انظر الوثائق السعودية جـ ١ ص ٣٠٨/٣٠٧ ونص الرسالتين فى الملحق ٣ ، ٤ من المجلد الثانى ص ٣٧٩

السعودى ، ومما يستلفت النظر فى رسالتى الشيخ أبو ظبى أنهما مليئتان بكثير من عبارات الولاء لابن سعود وقد اعتبرتهم الحكومة السعودية بمثابة أدلة دامغة لتبعية شيخ أبو ظبى لحكومة نجد ولكن من المشكوك فيه أن شيخ أبو ظبى كان يقصد بما يقوله تبعيته المطلقة لابن سعود وانما العبارات المستخدمة فى الرسالتين ليست الا أسلوبا شائعا لدى شيخ امارة صغيرة عندما يوجه خطابه الى أمير كبير — مثل الأمير عبد العزيز — الذى كان يمتلك القسم الكبير من أراضى شبه الجزيرة العربية[1] .

خامسا : ينبغى أن نلاحظ أنه قبل نشوب الحرب كان احتمال عقد معاهدة رسمية مع ابن سعود قد طرح جانبا لأن الحكومة البريطانية كانت تفضل تهدئه العلاقات مع الدولة العثمانية ولكن بدخول الدولة العثمانية الحرب فقد هذا السبب وجاهته ومن هنا سارع برسى كوكس بعقد هذه المعاهدة[2]

وأما أهمية عقد المعاهدة مع بريطانيا بالنسبة للأمير عبد العزيز فيمكن أن نبرزها على الوجه الآتى : .

أولا : الملاحظ أن الأمير عبد العزيز فى الفترة السابقة لعقد المعاهدة كان دائم الحذر يتسقط جمع المعلومات السياسية السرية الخطيرة التى كانت تدور على مسرح السياسة العربية من ذلك أنه علم أن المعتمد البريطانى فى عدن « الجنرال شو » قد اتصل بالادريسى الذى كان قد وضع يده على عسير وشرع يفاوضه فى عقد معاهدة بينه وبين الحكومة البريطانية وأن هذه المعاهدة قد وقعت بالفعل وصودق عليها من قبل اللورد هاردنج نائب الملك فى الهند وعقب ابرام هذه المعاهدة فى ٣٠ ابريل ١٩١٥ أعلن الادريسى الحرب على الأتراك وكان أول أمير عربى ينحاز الى الانجليز وقد عرفت هذه المعاهدة باسم معاهدة جيزان وبعد عقد هذه المعاهدة تغير الموقف فى جزيرة العرب اذ تقدم الانجليز بعد احتلالهم البصرة حتى بلدة قرنة وأصبحوا بذلك سادة على الخليج بلا منازع كذلك كانت حامياتهم البحرية المحتشدة فى البحرين قادرة على انزال

(١) للعلاقة بين ابن سعود وزعماء الساحل العمانى المهادن انظر :
Major Clarence Mann, Abuthabee, Birth of an Sheikhdom, Beirut, 1964

(٢) **cf. British Relations with Wahabees, ind. Off. Political and External files vol. 37**

قوات تستطيع بها احتلال سواحل الاحساء وتفرض الحصار على ابن سعود فتحرمه من كل امداد يصل اليه من أى طريق وبمعنى آخر أن عبد العزيز وجد نفسه مطوقا بالنفوذ الانجليزى شـمالا وجنوبا بالاضافة الى تطويق أصدقاء الانجليز له فى كل من الكويت وعسير والحجاز وبالتالى لم يعد يمتلك حرية الاختيار فى سياسته أزاء بريطانيا فرأى أنه من الأسلم أن يعمل على كسب صداقتها فكان عقده لهذه المعاهدة[١] .

ثانيا : كان الأمير عبد العزيز يرغب فى عقد معاهدة مع بريطانيا يضمن بها موقفه من الشريف حسين خاصة بعدما توقعه من ان تؤثر صـداقة بريطانيا للشريف حسين فى مركزه فضلا عن توتره أزاء الصراع الذى كان لم يحسم بعد بينه وبين غريمة ابن الرشيد فى حائل[٢] وكان ضمان بريطانيا لمركز عبد العزيز ومنحه مساعدات مادية وعينية أكثر مما يتوق اليه فى ذلك الوقت على الرغم من أن هذه المعاهـدة كانت محطة بقدره فهى لم تنظر اليـه الا على أنه واحد من شيوخ الخليج الخاضعين لحمايتها والمرتبطين معها بمعاهدات مانعة Exclusive Treatie فالمعروف أن معاهدة القطيف كانت تشـمل معظم المواد التى ذكرت فى المعاهدات المانعة التى عقدتها بريطانيا مع شيوخ الخليج مثل عدم التنازل وعدم التأجير أو الرهن لأى قسم من أراضيه الا بموافقة الحكومة البريطانية وكذلك عدم الاتصال بالحكومات الأجنبية وبالاضافة الى ذلك وردت فى المعاهدة بعض المواد التى لم ترد فى المعاهدات المانعة الأخرى نتيجة لظروف الحرب مثل حماية ابن سعود من أى اعتداء يقع عليه من قبل دولة أخرى .

ثالثا : هناك فائدة أخرى بالنسبة لعبد العزيز ساعدت على الحاجة فى عقد هـذه المعاهدة من ذلك أنه كان يخشى أن تحتل انجلترا — بالنظر لظروف الحرب — موانى نجد والاحساء باعتبارها من ممتلكات الدولة العثمانية ولذلك كان يحرص على عقد معاهدة تعترف له فيها بريطانيا بأن هذه البلاد قد أضحت بلاده وأنه مستقل فيها[٣] .

---

(١) صلاح المختار ــ تاريخ المملكة العربية السعودية ، فى ماضيها وحاضرها جـ ٢ ص ٣٧٩

(٢) Marlowe, op. cit. P. 44

(٣) محمد رشيد رضا ــ الوهابيون والحجاز ص ٧٤/٧٣

ويمكن أن نخلص من ذلك كله أن الأمير عبد العزيز كان أكثر تقديرا لقوة الانجليز فى الخليج وعلاقتهم مع مشايخه وشدة صولتهم فى الهند وقوة أساطيلهم ومقدار خطرها على الاحساء التى ضمها حديثا الى ممتلكاته وامكانهم حرمانه منها [١] .

وعلى الرغم من أن عبد العزيز لم يكن يقصد بتوقيعه على هذه الاتفاقية أكثر من الانتفاع بظروف الحرب فى تقرير مساعدة سنوية له الا ان موافقة مستشارى الامير على توقيع هذه المعاهدة برغم ذلك قد اعتبره الكثيرون جهلا منهم بما كان يجرى فى العالم الخارجى وعدم مقدرتهم على الاستفادة من الفرص التى توالت فى ذلك الحين فى تقرير مركز يتفق والمكانة التى وصل اليها ابن سعود ومدى تأثيره الايجابى فى هذا الركن من العالم خلال الحرب . ولذلك ما كاد عبد العزيز يتوسع فى ممتلكاته حتى طلب بنفسه تعديل معاهدة القطيف تعديلا يتفق مع المركز الذى وصل اليه فى الجزيرة العربية وبالفعل عدلت معاهدة دارين بمعاهدة جديدة أبرمت فى جدة عام ١٩٢٧ بعد أن أصبح الأمير سلطانا على كل من نجد والحجاز واعترفت له الحكومة البريطانية فى هذه المعاهدة بالاستقلال التام ومخابرة الدول والاتفاق معها حسب ما تمليه عليه مصلحة بلاده بعد ما كان محروما من هذا الحق فى معاهدة القطيف [٢] .

والجدير بالذكر أن معاهدة القطيف لم تشجب الاتفاق الانجليزى التركى الذى سبق أن وقعته بريطانيا مع الدولة العثمانية فى يوليو سنة ١٩١٣ اذأصرت بريطانيا على الزام عبد العزيز بهذه الاتفاقية التى لم يصادق عليها باعتباره وريثا للأمبراطورية العثمانية فى هذه المنطقة من الخليج . ومما يستلفت النظر فى اجتماع العقير أن السير برسى كوكس لم يشر الى المفاوضات والمراسلات التى كانت دائرة فى تلك الآونة بين مكماهون والشريف حسين والمهم أن عبد العزيز قد استفاد من توقيع معاهدة القطيف فى امداد بريطانيا له بالسلاح الذى كان فى حاجة ملحة اليه لمقاتلة العجمان وآل الرشيد فبالاضافة الى المساعدات النقدية

---

(١) Philiby, Sa'udi Arabia PP. 234-235

(٢) حافظ وهبة ـ شبه جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٢٥٧

التىقدرت بعشرين ألف جنيها انجلىزيا والمساعدات العينية الأخرى التى قدرت بألف بندقية سهلت له بريطانيا استيراد الذخيرة لحسابه الخاص من البحرين حتى يستطيع أن يفى بحاجات الحملة التى سيرها فى ذلك الحين ضد قبائل العجمان الذين حاربهم واضطرهم للجوء الى الكويت (١) وكان من نتائج توقيع معاهدة القطيف أن توسط السير برسى كوكس بين عبد العزيز وسالم بن الصباح اذ قبل آل السعود أن يوقف استعداده العسكرى ضد العجمان شريطة أن يطردهم الشيخ سالم من بلاده (٢) وذلك أن شيخ الكويت كان يود توسيع امارته على حساب مناطق العجمان فى الجنوب فساعدهم على الثورة ضد ابن سعود بتوزيع الأسلحة عليهم وحثهم على الثورة مما جعل مركز الأمير ابن سعود حرجا من كل جانب فابن الرشيد يعد العدة لمداهمة نجد والشريف حسين فى الحجاز يعمل على اضعافه والشيخ سالم فى الكويت يشجع القبائل الثائرة ضده . والجدير بالذكر أن موقف عبد العزيز فى الحرب العالمية الأولى قد تعرض لجدل عنيف ولاختلاف وجهة نظر الكتاب الذين عرضوا لهذا الموضوع فهناك من اعتبره التزم جانب الانجليز وهناك من اعتبره قد وقف على الحياد وفى تقديرنا أن عبد العزيز انحاز فعلا للانجليز على الرغم من أنه لم يكن حليفا رسميا لهم اذ أنه من الناحية القانونية لم يخرج من موقف الحياد طيلة سنوات الحرب اذا ما قارناه مثلا بالشريف حسين الذى صار حليفا رسميا للانجليز . ويرى السير ريدر بولارد Bullard أن عبد العزيز انحاز للانجليز منذ أن أكد للمبعوث البريطانى شكسبير أنه ملتزم جانب بريطانيا وقلبه ملىء بالسرور من تلك الفرصة التى استوجبت تأسيس علاقات جديدة صحيحة بينه وبين بريطانيا وهكذا دخل عبد العزيز فى قائمة الأمراء الذين ساعدوا انجلترا خلال الحرب وأن الاخلاص الذى ساند به الانجليز طوال الحرب ليعبر عنه السير ريدر بولارد بقوله : « لقد كانت مساعدة عبد العزيز قيمة ولوكان تسلم مقدارا أكبر من السلاح لكان حليفا أكثر نفعا » .

وقد يكون من المناسب ونحن بصدد تحليلنا لمعاهدة القطيف أن نعرض لأهم ما اشتملت عليه المعاهدة .

---

(١) Dickson, Kuwait and Her Neighbours P. 244

(٢) صلاح المختار ـ تاريخ المملكة العربية السعودية جـ ٢ ص ١٧٦

أولا : اعتراف الحكومة البريطانية بابن سعود وخلفائه كحكام مستقلين اذ نصت المادة الأولى : « . . . . . الدولة البهية الانكليزية أكيدا تعترف وتقر بأن النجد والحسا والقطيف والجبيل ومايليها وحدودها التى سنتذاكر بها وستتعين بعد حين وبنادرها على شواطىء خليج فارس هى من ممالك ابن سعود وممالك أجداده السابقين منه فبهذه الوسيلة تعترف بابن سعود المشار اليه حاكما مستقلا على الممالك المذكورة ورئيسا مطلقا على عشايره وبعده أولاده وأعقابه بالوراثة ».

ثانيا : تقرير المساعدة البريطانية لابن سعود ضد أى عدوان أجنبى .

ثالثا : اشراف بريطانيا على علاقة ابن سعود الخارجية .

رابعا : تعهد من قبل الأمير ألا يتنازل عن ممتلكاته الى أية دولة أجنبية .

اذ جاء فى نص المادة الثالثة من المعاهدة على ألا يتدخل الأمير فى مكاتبات أو اتفاقات مع أية دولة أخرى كما نصت المادة الرابعة على أن يتبع مشورة بريطانيا بشرط ألا تكون ضارة بمصالحه .

خامسا : وعد من الأمير بأن يترك طرق الحج مفتوحة .

سادسا : عدم الاعتداء على شيوخ الكويت والبحرين ــ قطر ــ المشيخات المهادنة : ــ والجدير بالذكر أن معاهدة القطيف وان عنيت بالحدود الشرقية لممتلكات الأمير عبد العزيز الا أنها لم تلتفت الى الحدود الغربية بدليل أنها لم تحوى فى شروطها أى التزام من قبل الأمير بعدم الاعتداء على الشريف حسين الأمر الذى ترك الفرصة سانحة له لتوجيه نشاطه فى الحدود الغربية لممتلكاته (٢) .

وقد أصبح عبد العزيز بعد توقيع هذه المعاهدة فى مصاف أمراء الخليج المرتبطين بمعاهدات مع بريطانيا . وفى العام التالى ١٩١٦ أخذت العلاقات تتوثق بينه وبين الحكومة البريطانية التى كانت تعول كثيرا على صداقته وفى سبتمبر ١٩١٦ تسلم السير برسى كوكس رسالة من ابن سعود يطلب مقابلة ثانية وفيما يبدو أن عبد العزيز كان أكثر الحاحا فى هذا الطلب اذ فى نهاية عام ١٩١٥ توفى

---

(١) انظر نص معاهدة القطيف فى شبه جزيرة العرب فى القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ص ٣٣٤

(٢) Phiby, Sa'udi Arabia, PP. 272-273 London, 1955

الشيخ مبارك ، وعلى الرغم من أن تلك الوفاة كانت تبشر بحسن العلاقات بينه وبين الكويت خاصة بعد أن شهدت الشهور الأخيرة من حياة مبارك تحاسدا وقلقا من جانب الشيخ الذى أخذ يساوره فى شيخوخته قلق عنيف من طموح رجل دربه بنفسه على شئون السياسة الا أن خليفته الشيخ جابر لم يعمر طويلا ولم يؤد حكمه الى نتائج ملموسة فيما يتعلق بالخطر الذى كان يتعرض له الأمير السعودى من جراء وجود اللاجئين العجمان فى الكويت وما أن خلفه الشيخ سالم بن الصباح وقد عرف بعدائه الشـديد لابن سعود حتى اتجه فى سياسته نحو اظهار عدائه السافر للرياض وبالاضافة الى هذا الموقف من جانب الكويت كان الأمير سعود فى وضع لا يحسد عليه بسبب النزاع القائم فعلا أو الذى كان متوقعا حدوثه بين نجد وبين الحجاز وآل الرشيد فى حائل[1] ولهذا نراه يلح فى طلب مقابلة السير برسى كوكس حتى يطلعه على حقيقة الوضع الذى صار اليه وقد اختيرت العقير مكانا للاجتماع وبالفعل وصل كوكس الى سواحل قطر وتمت المقابلة فيما بينهما فى ميناء العقير فى سنة ١٩١٦ وكان الاجتماع فى ظاهره من أجل البحث فى الوسائل التى تمكن ابن سعود من السير قدما فى حملته الهجومية التى كان ينوى القيام بها ضد ابن الرشيد وقد أوضح عبد العـزيز للسير برسى كوكس فشله فى ايقاع الضربة القاضية بغريمه بسبب حروبه المستمرة ضد آل العجمان وأنه لا يستطيع أن يواصل الحرب فى جبهتين فى آن واحد .

وقد عنى اجتماع العقير الثانى بمناقشة الطرق والوسائل التى تمكن عبد العزيز من تجهيز حملة قوية ضد ابن الرشيد وعلى الرغم من أن الاجتماع انصب على هذا الموضوع فى معظمه الا أن عبد العزيز حاول استغلال الفرصة لمعرفة موقف الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالتدابير التى اتخذتها مع الشريف حسين خصوصا بعد اعلانه لأمراء الجزيرة العربية والخليج أن الانجليز قد اعترفوا به ملكا على العرب . وقد أعطى السير برسى كوكس تأكيـدات مشددة لابن سعود أن استقلاله لن يمس بأى وجه من الوجوه .

(١) من المعروف أن عبد العزيز بن سعود لم يستطع التخلص من آل الرشيد الا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى ٢ نوفمبر ــ انظر حافظ وهبة : خمسون عاما من جزيرة العرب ص ٢٨

وبالاضافة الى ذلك تناول اجتماع العقير علاقات ابن سعود بشيخ الكويت ، والحصار الذى فرضته بريطانيا على موانى الكويت لمنع تسرب مواد الحرب والسلع الغذائية من الكويت ووصولها الى الأتراك العثمانيين فى بادية الشام وقد طلب الماجور هاملتون مبعوث حكومة الهند مرافقا للسير برسى كوكس من ابن سعود يعاونه فى توثيق الحصار وقد أكد له الأمير أنه على الرغم من وعده بالمساعدة الفعالة فى هذا الشأن الا أنه لايسعه اتهام حاكم الكويت بأنه هو الذى يساعد حركات التهريب الى الأتراك كما اتهمه باتفاقه السرى مع الأتراك وأنه من الخير لبريطانيا أن توقف التهريب من منابعه الرئيسية بالكويت بدلا من أن تطلب الى ابن سعود تضيق الخناق على المهربين بعد أن ينفذوا الى الصحارى الشاسعة . وقد دعى السير برسى كوكس الأمير عبد العزيز ليأخذ مكانه فى الاجتماع الذى قررت الحكومة البريطانية أن تعقده فى الكويت بين الأمراء العرب الذين اتخذوا جانب بريطانيا فى الحرب لخلع الأوسمة عليهم وقد عرف هذا المؤتمر باسم مؤتمر الكويت الثانى تمييزا له عن المؤتمر الأول السابق اشارتنا اليه . ولم يكن القصد من المؤتمر مجرد اجتماع دورى لحكام الجزيرة العربية والخليج وانما كانت الحكومة البريطانية تنظر الى مؤتمر الكويت نظرة أكثر عمقا ذلك أنه بعد أن أعلن الشريف حسين ثورته حرصت الحكومة البريطانية على عقد هذا المؤتمر الذى اشترك فيه الأمراء العرب كى تتحقق من حسن نواياهم نحوها من ناحية وحثهم على شد أزر الشريف حسين وتأييد ثورته من ناحية أخرى وقد عقد هذا المؤتمر بالفعل فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٦ .

وقد حضر مؤتمر الكويت الى جانب عبد العزيز وجابر بن الصباح والشيخ خزعل خان أكثر من مائة من رؤساء العشائر العربية فى جنوب الأحساء وجنوب العراق وعهد الى السير برسى كوكس برئاسة المؤتمر حيث افتتحه بكلمة أظهر فيها حسن نوايا بريطانيا تجاه العرب ورغبتها فى استعادتهم لمجدهم الغابر وحرصها على جمع كلمتهم ليكونوا كتلة متماسكة تستطيع صد أى اعتداء خارجى يقع على بلادهم ثم وجه خطابه بعد ذلك الى الأمير ابن سعود مستحثا اياه مساعدة الحلفاء ثم تطرق الى موضوع الخلافة ووجوب انتقالها الى العرب وأجاب عبد العزيز على خطاب كوكس ببغضه الصريح للأتراك ولكنه أشار بالنسبة لموضوع الخلافة — كما سبق أن أعلن لهاردنج — باسنادها الى الشريف حسين .

ثم أعقبه الشيخ خزعل فأيد الوحدة العربية واستعداد العرب لمعاونة بريطانيا ، أما الشيخ جابر حاكم الكويت فقد تردد فى موقفه اذ كان يتنازعه موقفه المؤيد للأتراك باعتبارهم مسلمين وموقفه المؤيد لما يتخذه العرب من اتجاهات يجمعون عليها . ولم يجد فى نهاية الأمر بدا من أن يعلن . . . أننا عرب فاذا ما اجتمعت كلمة العرب على شيء فاننا له من الطائعين ، ويبدو أنه تعرض للضغط الانجليزى عليه لكى يعلن موقفه هذا .

وقد تناقلت الروايات بعض ما دار فى المجلس من أحاديث فابن سعود قال أنه عدو للترك وهم له أعداء وأنه سيطاردهم ولو وحده لأنه لايذكر لهم سوى الشر له ولآبائه من قبل فقد قتلوا منهم ومثلوا ببعضهم أشنع تمثيل وضرب خزعل أيضا على هذا الوتر . أما الشيخ جابر وقد عرف بميوله الدينية المحافظة فقد أبى أن يساير الأميرين وأعلن موقفه المؤيد للأتراك العثمانيين باعتبارهم مسلمين [١] وقد بذل السير برسى كوكس جهودا كبيرة فى التخفيف من الشعور الموالى للأنجليز والذى لاحظه بالنسبة للشيخ جابر اذ حرص ألا يفض المؤتمر حتى يقسم كل من ابن سعود وجابر وخزعل بتحالفهم مع بريطانيا ضد العثمانيين [٢] وانتهى المؤتمر بتقليد السير برسى كوكس كلا من الأميرين عبد العزيز والشيخ جابر نجمة وسام الهند وقد أبلغ الشريف حسين نتائج مؤتمر الكويت الثانى فاستحسنه وقوى عزمه به وطلب من الحكومة البريطانية ابلاغ الأمراء شكره وتهانيه كما أبرق الى عبد العزيز بواسطة برسى كوكس يشكره على ما دار فى المؤتمر ويحثه على الاتحاد وجمع كلمة العرب ويوصيه بمراعاة جيرانه من أمراء الجزيرة العربية والأحسان اليهم وعلى الأخص أمير الكويت .

وبعد انتهاء المؤتمر وصل كل من عبد العزيز والشيخ خزعل الى البصرة فى ٢٦ نوفمبر ١٩١٦ بدعوة من السير برسى كوكس حيث أنعم كوكس على الأمير عبد العزيز بسيف مرصع وقد نزل الأمير ضيفا عليه وعلى القائد العام لقوات جيش العراق وكانت هذه أول مرة يسافر فيها عبد العزيز خارج الجزيرة العربية وقد تأثر لدى رؤيته لذلك العدد الوافر من المعدات الحربية وربما أثر فى نفسيته

---

(١) عبد العزيز الرشيد ـ تاريخ الكويت جـ ٢ ص ١٩٨

(٢) Graves, op. cit. P. 213

أن تكون امرأة واحدة من أعظم مضيفيه وهى جرتردبل[1] وفى اجتماع البصرة تم الاتفاق على أن يتسلم شهريا خمسة آلاف جنيها مع أربعة رشاشات وثلاثة آلاف بندقية مع كميات ضخمة من الذخيرة تكفى لتجهيز ما يقرب من أربعة آلاف مقاتل لمحاربة ابن الرشيد ومهاجمته فى عاصـــمته[2] كما حرص برسى كوكس أن يعقد اجتماعا بينه وبين الأمير عبد العزيز والشيخ فهد حاكم عنيزه وكان هذا الاجتماع بهدف استغلال الحكومة البريطانية لحليفها عبد العزيز بغية التوسط بينها وبين الشيخ فهد ويبدو بالفعل أن مساعدة عبد العزيز لبريطانيا لدى حاكم عنيزه كانت على درجة كبيرة من الأهمية بحيث قررت حكومة الهند أن تزيد الاعانة السنوية التى كانت تصرفها له الى ٦٠,٠٠٠ جنيها ثم رفعتها بعد ذلك الى ١٠٠,٠٠٠جنيه ومن المحتمل أنيكون ذلك قد تم عن طريق اتفاقية جديدة .

والأمر الذى لا شك فيه أن اجتماعات العقير والكويت والبصرة أدت الى تحسن موقف الحكومة البريطانية خاصة بعد أن تم الاتفاق مع الشيخ فهد الذى كان يسيطر على الطريق الصحراوى بين دمشق وبغداد بحماية المواصلات بين الهند وبين المناطق التى وصل اليها النفوذ البريطانى فى العراق . وقد استمرت حكومة الهند فى توطيد علاقاتها بالأمراء العرب بايفادها البعثات المتتالية لدى كل من الشريف حسين والأمير عبد العزيز (١٩١٧) وكان الغرض من ذلك أزالة أسباب الجفوة بين الحليفين الرئيسيين لبريطانيا فى الجزيرة العربية . وبفضل تلك الجهود استطاعت بريطانيا طيلة سنوات الحرب أن تحمى الأمارات العربية فى الخليج وأن توفر لها جانب الحماية من اطماع عبد العزيز بن سعود برا ونشاط المدرعات الألمانية التى حالت بينها وبين الدخول الى مياه الخليج بفضل التعزيزات البريطانية القوية اذ كان من المعروف نشاط الغواصات الألمانية فى منطقة المحيط الهندى مما يدلل على احكام بريطانيا سيطرتها على الخليج خلال الحرب رسالة بعث بها اللورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية الى السير برسى كوكس فى ٢٢ يناير سنة ١٩١٧ جاء فيها : « . . . لقد قمتم بكل (نبل) بالمهمة التى وكلتها اليكم منذ ثمانية عشر عاما . . . لقد جعلت من نفسك

---

(١) فيلبى ــ تاريخ نجد ودعــوة الشيخ عبد الوهاب الســلفية مترجم ص ٣١٩ ــ بيروت .

(٢) Philby, Sa'udi Arabia, P. 274

ملكا على الخليج وعندما تنتهى الحرب فسوف نعزز تلك المملكة ونعمل على ألا يقوم أحد بانتزاع هذا التاج منكم »[١] .

ومما يغنينا عن التعليق على هذه الفقرة من الرسالة أن هـذا كان تصريحا من وزير الخارجية البريطانية الى الموظف البريطانى المسئول فى الدرجة الأولى عن معالجة الشئون السياسية والعسكرية فى العراق والخليج العربى .

وفى خلال الحرب العالمية الأولى وصلت العلاقات السعودية الكويتية الى درجة كبيرة من التوتر وبدأت منذ أواخر أيام مبارك على الرغم من الصداقة الشديدة التى كانت تربط بين الحاكمين[٢]. اذ اتضح من تصرفات مبارك أنه لم يكن مطمئنا الى تضخم قوة الأمير عبد العزيز خاصة بعد استيلائه على القصيم وعنيزة ثم الاحســاء وخشى مبارك على أمارته من جراء التوســع السعودى [٣]. وسرعان ما تكشفت لعبد العزيز نوايا مبارك ويقال أن الموقف بدأ يتوتر بين الأميرين فى أعقاب معركة اجراب عندما غنم ابن الرشيد حقيبة أوراق عبد العزيز وكان بداخلها رسالة سبق للشيخ مبارك أن بعث بها الى الأمير عبد العزيز آل سعود يحرضه فيها على كل من ابن الرشيد والحكومة العثمانية ويؤكد فى رسالته أن الدولة العثمانية ذاهبة لا محالة وأن الغلبة فى ميدان الحرب سيكون لخصومها الانجليز ويخبره أيضا بعزمه الأغارة على شمر . وبطبيعة الحال أثر هذا فى علاقة مبارك بابن سعود اذ أن مبارك لم يغفر لعبد العزيز اهماله المراسلات السرية التى كانت تدور فيما بينهما حتى اتهمه بأنه عمد الى تسليم تلك الرســالة لآل الرشــيد ليوقع بينه وبينهم[٤] ثم كانت الحادثة الثانية التى أدت الى زيادة التوتر بين الأميرين وهى تلقى عبد العزيز

---

(١) Graves, op. cit. P. 231

(٢) تعود هذه الصداقة الى أيام استضافة آل صباح للأسرة السعودية فى الكويت وكان الشيخ مبارك يلقب عبد العزيز بولده كما كان الأمير عبد العزيز يلقب مبارك بالوالد وكثيرا ما كان كل أمير يغض الطرف عن أخطاء الأمير الآخر استجابة لدواعى المصلحة المشتركة فيما بينهما .

(٣) جمال زكريا قاسم — الخليج العربى — دراسة لتاريخ الأمارات العربية ص ٢٢٨

(٤) عبد العزيز الرشيد — تاريخ الكويت جـ ٢ ص ١٨٢

رسالة من مبارك يطلب منه فيها تأديب قبائل العجمان الذين أغاروا على أمارته ونهبوا مواشي عشائره ولكن عبد العزيز كان بعيد النظر اذ اعتذر عن تنفيذ ما جاء برسالة مبارك لخوفه أن يلجأ اليه العجمان بعد محاربته لهم فينقلب بذلك عليه غير أنه بعد معركة اجراب بدأ عبد العزيز يواجه ثورة العجمان فى الاحساء وعندما تحرك لقمع ثورتهم رحل العجمان الى جهات قطر وهنا طلب ابن سعود النجدة من مبارك ولكن الأخير لم يسعفه وانما تعمد الابطاء الى أن أرسل له أخيرا مددا على رأسه ابنه وولى عهده الشيخ سالم الصباح . وفيما يبدو أن الشيخ مبارك حينما تأخر عن ارسال المدد كان يتوقع أن تنهار قوى ابن السعود خاصة وأن ابن الرشيد انتهز فرص صراع عبد العزيز ضد العجمان لينقض الصلح الذى وقع بين الأميرين بعد معركة اجراب ولكن عبدالعزيز تمكن من السيطرة على الموقف فقمع ثورة العجمان بسرعة فائقة حتى لا يشغل نفسه بالقتال فى جهتين فى آن واحد . ولم يلبث أن اتضح لعبد العزيز أن مبارك لم يكن ينوى ارسال ابنه اليه رغبة فى مساعدته وانما لمراقبة الموقف اذ جاء فى التعليمات التى زود بهـا مبارك ابنه سالم « . . . . لقد أرسلتك مراقبا لا مقاتلا ... اذا غلبهم ابن سعود فنحن معهم واذا هم غلبوه فلا تساعدهم عليه » . وفى نوفمبر ١٩١٥ عزم عبد العزيز على مهاجمة العجمان وآل صباح معا خاصـة وأن العجمان ارتحلوا الى الكويت حيث وجدوا فيها سـوقا لبيع منهوباتهم التى استولوا عليها من أهالى الاحساء ومنحهم حكام الكويت حق اللجوء السياسى فى بلادهم . ولا شك أن الموقف الذى وقفه مبارك من قضية العجمان كان مسارا للاستياء الشديد من قبل الأمير عبد العزيز(١) . وبينما كان ابن سعود يعد العدة لتسوية حسابه مع مبارك تلقى نبأ وفاته فآثر التراجع وكتب الى الشيخ جابر يعزيه فى وفاة والده وينصحه بعدم السير على سياسته . على أن الحكومة البريطانية أبدت توجسها من وفاة مبارك وتوليه جابر لميوله الدينية من ناحية ولضـعفه من ناحية أخرى وما يترتب على ذلك من عدم مقدرته على السيطرة على الموقف فى بلاده بعد ارتفاع المعارضة الوطنية ضد الانجليز وبالفعل اضطر جابر أن ينحاز الى زعماء قومه ولكن لم يلبث أن

---

(١) صلاح المختار — تاريخ المملكة العربية السعودية جـ ٢ ص ١٦٨ حافظ وهبة .

واجه ضغطا من قبل حكومة الهند ويتضح ذلك فى الرسالة التى بعث بها اليه نائب الملك فى الهند اللورد شلسفد الذى عاصر ولايته[١] مهنئا له وصوله الى حكم الامارة ومؤكدا أن الحكومة البريطانية تلتزم له بما سبق أن التزمت به لوالده بشرط أن يلتزم بنفس الالتزامات لـدى الحكومة البريطانية واقترح السير برسى كوكس لدى حكومة الهند أن تمنحه وسام نجمة الهند من درجة فارس ووافقت الحكومة مبدئيا على ذلك وبالفعل أهدته النيشان العالى S. A. C. I. وان كان تقليده لذلك الوسام لم يتم الا حينما عقد مؤتمر الكويت الثانى على نحو ما أشرنا . ومع ذلك فلا نستطيع أن نحكم على طبيعة العلاقات التى قامت بين جابر والحكومة البريطانية ولا بينه وبين ابن سعود لأن جابر لم يعمر فى الحكم الا شهورا قليلة ولكن العلاقات لم تلبث أن ظهرت واضحة فى عهد الشيخ سالم بن الصباح[٢] . وساعد عبد العزيز بن سعود على محاولة تحقيق أطماعه فى الكويت ، الموقف الذى وقفه سالم واتجاهه الموالى للأتراك مما أعطى الفرصة للأمير عبد العزيز أن يواصل أطماعه وهو مطمئن الى تجاوز الحكومة البريطانية عن أعماله نظرا للموقف المشار اليه ومع ذلك فان عبد العزيز لم يستطيع أن ينال التأييد البريطانى المطلق فالمعروف أن السياسة البريطانية كانت تحول دون التوسع السعودى فى امارات الخليج العربى .

ومما يستلفت النظر أن العلاقات المتدهورة بين نجد والكويت كانت تعنى بصفة خاصة الحكومة البريطانية والمندوب السامى البريطانى فى بغداد لأن توتر العلاقات من شأنه أن يخلق اضطرابا قد يسهل عمليات التهريب التى كانت تقوم بها العشائر البدوية من سلاح وذخيرة ومواد غذائية عبر الطرق الصحراوية المتجهة الى معسكرات الأتراك العثمانيين فى بادية الشام ولما كانت قبائل العجمان هى التى تقوم بأعمال التهريب هذه فقد تلاقت وجهة نظر عبد العزيز بن سعود مع وجهة نظر الحاكم المدنى فى بغداد لاتخاذ اجراءات ضد هذه القبائل التى كانت تحتمى بأمارة الكويت وهكذا استطاع عبد العزيز أن يجد مساندة من بريطانيا فى التخلص من ثورات هـذه القبائل عليه واحتمائهم المتوصل بامارة

(١) حسين خزعل ـ تاريخ الكويت السياسى جـ ٣ ص ١٧ ـ ١٨ شبه جزيرة العرب ص ٢٥٨

(٢) حسين خزعل ـ تاريخ الكويت السياسى جـ ٣ ص ١٢/١٣

الكويت . وكان هناك موضوعات أخرى عنى ببحثها كل من عبد العزيز بن سعود والمندوب السامى البريطانى فى بغداد بهدف تهدئة العلاقات بين نجد والكويت أهمها تحديد قيمة الضرائب الجمركية التى تفرض فى الكويت والبحرين على البضائع المصدرة الى نجد الى جانب امكانية وضع عملة معدنية صغيرة لتوفى باحتياجات المعاملات التجارية بين البلدين .

ومن ناحية أخرى كان موقف سالم المؤيد للأتراك موضع قلق الانجليز المتزايد ، خاصة وقد عرف عنه تزمته الشديد ، وتغلب الطباع البدوية عليه وقد زعم بعض الكتاب أن سالما كان يعتقد أن الحكومة البريطانية تمالىء ابن سعود عليه مما جعله ينحاز الى الأتراك فى الحرب العالمية الأولى . وقابلت الحكومة البريطانية موقف سالم بتشديد الرقابة البحرية حتى أصبحت الكويت فى حالة حصار تقريبا . وكان الهدف من ذلك منع وصـــول التجارة المهربة وأسلحة الحرب إلى الأتراك العثمانيين فى الشام ، كما تم فى عهد سالم انشاء الخط البرقى بين الكويت والعراق . وكان الحصار الانجليزى لأمارة الكويت سببا فى سخط الأهالى الذين يشتغل معظمهم بالتجارة ، مما اضطر بريطانيا فى نهاية الأمر الى وعد التجار بالتعويض عما لحقهم من خسائر فادحة بسبب عمليات الحصار . وبدأت عمليات الحصار فى بداية عام ١٩١٧ بالحصار البحرى لموانى الكويت وبحصار بعض المراكز التجارية الواقعة على الطريق بين الكويت والعراق والمعروف أن تجارة التهريب كانب تجد أرباحا طائلة ، ذلك أن ندرة المؤن واختفائها فى سوريا وارتفاع أسعار المواد الغذائية أوجد سوقا رائجة للمهربين ، اذ كانوا ينقلون البضائع المهربة عبر الصحراء الى دمشق من العراق وموانى الخليج العربى ، وكانت هذه المؤن بدورها تأتى من الهند . وكان الشيخ سالم يغض البصر عن هذه العمليات التى تجرى داخل بلاده ، وكان بطبيعة الحال يستفيد من فرض الضرائب . وعلى الرغم من أن ابن ســعود كان مسئولا بدوره عن عمليات التهريب هذه ، اذ كان تجار القصيم وغيرهم ينقلون بضائعهم الى حائل ومن هناك تنقل الى الأتراك ، الا أنه ألقى بالمسئولية الأولى على سالم فى ضرورة ايقاف عمليات التهريب من منابعها ، وكان ذلك فى نقاش بينه وبين السير برسى كوكس أثناء اجتماعهما الثانى فى العقير عام ١٩١٦ (١) .

---

(١) Philby, Sa'udi Arabia, P. 274

والواقع أن تجار الكويت نشطوا فى تسيير تجارتهم الى نجد والحجاز والشام والعراق والآستانة ، وقد سارت التجارة الى تلك الجهات فى الوقت الذى كان فيه الحصار البحرى مفروضا على سوريا ، مما اضطر حكومة الهند أن تنزل قواتها فى الكويت بهدف احكام عمليات الحصار ، وان كان هذا الاجراء مؤقتا ، اذ لم يلبث أن انسحبت القوات الانجليزية من الكويت عقب توقيع الهدنة مع تركيا فى نفس العام .

وقد يكون من المناسب أن نعرض بشىء من التفصيل لظروف هذه الأزمة التى وقعت بين بريطانيا والكويت والتى حاول عبد العزيز أن يستفيد من وقوعها فى تحقيق مشروعاته الخاصة ، ذلك أنه بعد انسـحاب الجيوش العثمانية من البصرة أخذت القوات البريطانية تطاردها فى القرنة والشعيبة ثم العمارة والناصرية ولم تكتف الحكومة البريطانية بذلك وانما ضربت الحصر البحرى على الدولة العثمانية ، ولما كانت عشائر البادية تعتمد على ما تكتاله من البصرة والكويت ، لذلك رأت الحكومة البريطانية أن تراقب الطرق البرية أيضا حتى لا يصل منها شىء الى الدولة العثمانية ولا الى العشائر الموالية لها ، فأسندت أمر مراقبة اكتيال عشائر البادية وتزويدها بالأطعمة الى عهدة أحد ضباطها العسكريين ليقف بنفسـه على كيفية خروج القوافل منها ، وبالفعل طلب الوكيل السياسى فى الكويت من الشيخ سالم بعدم السماح بسفر القوافل الموجودة فى ذلك الوقت فى الكويت والتى كانت تابعة لأهالى زلفى وبريدة حتى وصول الكابتن سميث Cole Smith .

وقد أخذت الحكومة البريطانية تعمل فى تشديد قبضتها على الكويت خاصة وأن الأمارة كانت من أهم الأماكن التى تقصدها قوافل التجارة بغرض الاكتيال . وقد لاحظ الماجور هاملتون Hamilton الوكيل السياسى فى الكويت أن جميع الأموال التى تخرج من الكويت بواسطة القوافل يتجه بها أصحابها الى ناحية ابن الرشيد فى حائل . وأصدر السير برسى كوكس تعليماته الى الوكيل السياسى بمراقبة القبائل التى تفد الى الكويت بغرض الاكتيال والتأثير لدى شيخ الكويت بهدف منع هذه القبائل من الدخول الى الكويت[١] وفى مارس ١٩١٨ وصل

(١) حسين خزعل ــ تاريخ الكويت السياسى جـ ٣ ص ٢٠

جون فيلبى من الحجاز الى أطراف العراق وراح يجوب البادية وفى قافلته عدد كثير من الجمال وكان يحمل أكياسا من الذهب والفضة واستخدمها فى اغراء فريق من شيوخ العشائر للعمل لحساب القوات الانجليزية ، ومن بين الزعماء الذى نجح فيلبى استمالتهم ضارى بن طوالة شيخ عشائر شمر العراق [١] . والسبب فىهذه الأعمال التى قامت بها الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت يرجع الى تقديرها أن وصول الامدادات الى القوات العثمانية من الكويت والبصرة ونجد مما يؤخر فى انتصار الحلفاء واتبعت حكومة الهند المراقبة البرية ، التى لم تستطيع السيطرة عليها ، بفرض الحصار البحرى على الكويت بعد استمرار وصول المؤن الى الأتراك فى دمشق عن طريق الصحراء ، وفى يوليه ١٩١٨ وجهت حكومة الهند تحذيرا الى الشيخ سالم بأن الضمانات التى قدمت له ولأسلافه من قبل والصداقة والحماية والمساعدة التى تقوم بها بالنسبة لأمارة الكويت لا يمكن أن تستمر ، مالم يكن قائما بالمسئولية التامة فى منع الأعمال غير المشروعة التى يقوم بها رعاياه أو غيرهم فى داخل ممتلكاته ، والتى قد يكون من شأنها أن تتعارض مع مصلحة الحكومة البريطانية [٢] .

ولا شك أن التحذير البريطانى الذى وجه الى الشيخ سالم كان نتيجة للنشاط المعادى الذى أحست الحكومة البريطانية به [٣] . والجدير بالذكر أن الموقف الذى اتخذه سالم من حيث تغاضيه عن حركات تهريب الأسلحة والمؤن الى العثمانيين ، كان تعاطفا منه قبل الوطنيين من ناحية ، فضلا عن أنه كان لميوله الدينية يكره الانجليز ، ويفضل الانحياز الى الدولة العثمانية باعتبارها مركز الخلافة الاسلامية [٤] ، وهكذا تميز عهد سالم بذلك الصدام الذى وقع بينه وبين ابن سعود من ناحية ، والحكومة البريطانية من ناحية أخرى ، نتيجة انحيازه الى الأطراف المعادية لها ، اذ أن الشيخ سالم انحاز الى جانب الدولة العثمانية ضد الانجليز ، كما انحاز الى آل الرشيد ضد عبد العزيز بن سعود [٥] . وقد

(١) صلاح الدين مختار ــ تاريخ المملكة العربية السعودية جـ ٢ ص ١٩٥

(٢) Dikson, Kuwait and Her Neighbours P. 234

(٣) Dickson, Op. Cit. P. 234.

(٤) الفرحان ــ مختصر تاريخ الكويت ص ١٣٣

(٥) Dickson, Op. Cit. PP. 243-244

حاولت الحكومة البريطانية استخدام مساعيها لدى الشيخ سالم ، مستعينة فى ذلك بشتى وسائل الضغط السياسى ، اذ أبلغ المستر بل Bell المقيم السياسى فى الخليج ، الشيخ سالم بأن الحكومة البريطانية ترغب فى تعيين موظفين من قبلها فى الكويت للاشراف على ما يخرج من الامارة من سلع الى الجهات المعادية لها [1]. ولكن سالم رفض هذا الطلب مبررا موقفه بأن الكويت ليست معادية لانجلترا حتى تضرب بهذا النطاق من الحصار ، فضلا عن أنه من المحافظين على المصالح البريطانية وأن أية قافلة لا تخرج من الكويت الا بعد حصولها على ترخيص من الوكيل البريطانى .

وأخيرا أكد سالم أنه لا يجوز للحكومة البريطانية القاء المسئولية على امارته فيما يصل الى دول الأعداء من سلع ، اذ لا مانع من أن تكون هذه السلع مرسلة من نجد أو من سواها . ولكن (بل) أصر على موقفه وهدده بتعرض الامارة الى قذف المدفعية البريطانية مالم يقبل مطالب الحكومة البريطانية ، ولم يجد سالم مايتعلل به ازاء هذا التهديد السافر ، الا مراجعة زعماء آل صباح ، الذين رفضوا بدورهم مطالب المقيم البريطانى . غير أنه لدى وصول أنباء هذه الأزمة الى السيربرسى كوكس ، لم يوافق على تصعيدها . اذ كانت ظروف الحرب لا تحتمل اثارة موقف حرج فى ذلك الوقت ، ولذلك اتخذ كوكس موقفا ملاينا اذ أرسل للشيخ سالم رسالة ودية يرجوه فيها قبول مااقترحته الحكومة البريطانية بضرورة تعيين لجنة اشراف فى الكويت ، بعد أن قطع له التعهدات المؤكدة بأن تلك الهيئة التى تنوى الحكومة البريطانية ارسالها ، هيئة مؤقتة الى انتهاء الحرب . كما أبلغه أن حكومته سوف تعوضه عن الأضرار المادية التى يمكن أن تلحق به وبتجار الكويت من جراء عمليات الحصار الاقتصادى ، ولم يجد الشيخ سالم بدا من الموافقة ، وبالفعل أرسلت الى الكويت لجنة برئاسة الكابتن أمكلم الذى عين مأمورا للحصار وأشرك معـه موظفين من سكان الكويت ، حيث أقيمت عدة مراكز فى المنافذ المختلفة التى يمكن أن تخرج منها القوافل ، ولا شك أن الكويت أصيبت من جراء ذلك بعجز اقتصادى بالغ ، اذ وصل التضييق على معاملاتها التجارية الى حد أن المؤن الضرورية لم تصل الى الكويت من الهند الا

---

(١) cf. Montogue Pell, Britain and The Persian gulf, Journal of the United Empire Vol VI

بمقدار ، وألزم كل تاجر أن يحمل وثيقة خاصة به ، وكاد التضييق يصل الى تفتيش المنازل واحصاء الأموال والمؤن . وفيما يبدو أن الحكومة البريطانية قدرت ما أصبحت تعانيه الكويت من ضائقة مالية، اذ دفعت للشيخ سالم وللتجار الكويتيين الذين أضيروا من عمليات المراقبة تعويضا ماليا بلغ ٤٨٧ ألف روبية ، كما أهدت الشيخ سالم نيشانا من درجة فارس قلده اياه المستر « بل » الذى كان قد هدده فى بداية الأزمة .

والجدير بالذكر أن الخلاف الذى قام بين نجد والكويت ، وان كان قد ظهر واضحا خلال سنوات الحرب ، الا أن ذلك الخلاف لم يلبث أن استفحل خطره فى أعقاب الحرب . وقد سبق الاشارة أن ابن سعود حاول انتهاز فرصة الحرب لتحقيق أطماعه التوسعية فى الكويت مستفيدا بوقوع الأزمة بين سالم والحكومة البريطانية ، والحقيقة أن عبد العزيز بن سعود قد وجد من بعض الساسة الانجليز من كان مستعدا لمسايرته فى ذلك ، اذ أن المنازعات السعودية الكويتية سببت لبريطانيا الكثير من الازعاج ، بدرجة خشيت منها على مركزها خلال سنوات الحرب ، ولما كان سالم معاديا لها فقد اقترح جون فيلبى — من قسم الشئون السياسية بوزارة الهند — على حكومته الخلاص من هذه المشكلة المعقدة بضم الكويت الى ممتلكات ابن سعود فى نجد مدافعا عن نظريته بأنها منفذ طبيعى لداخل الجزيرة العربية بيد أن الحكومة البريطانية لم توافق على هذا الاقتراح ، فلا شك أن احتمال تدفق البترول فى الكويت جعلها تصر على وجوب احترام ابن سعود لسيادة الكويت وحدودها التى سبق للحكومة البريطانية أن تعهدت بحمايتها [٣] .

وعلى الرغم من أن عبد العزيز قد اضطر خلال سنوات الحرب أن يلتزم بتعليمات الحكومة البريطانية فى التخلى عن مشروعاته التوسعية فى الخليج ، الا أنه أخذ يتحلل فى أعقاب الحرب من القيود التى فرضتها عليه بريطانيا فى معاهدة القطيف ، وقد ساعده على ذلك أن الحكومة البريطانية أخذت بدورها تتحلل

---

(١) عبد العزيز الرشيد — تاريخ الكويت ج ٢ ص ٢٠٢/٢٠٤ طبعة بيروت
(٢) عبد الله فيلبى — تاريخ نجد (مترجم) ص ٥٦/٥٧
(٣) عبد الله فيليبى — تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب السلفية (مترجم ص ٥٦/٥٧) .

من التزاماتها المادية قبله . وكان توقف الحكومة البريطانية عن دفع الرواتب السنوية لابن سعود ضربة قوية وجهت اليه على الرغم من أنه كان يدرك أن الحكومة البريطانية لم تكن على استعداد فى أن تستمر فى مساعدته . ومع ذلك فقد كان توقف حكومة الهند عن الدفع فرصة لابن سعود لكى ينقض اتفاقية القطيف ، وبالتالى يعمل على التوسع فى الحدود الشرقية لمتلكاته ، مبررا ذلك بحاجته المستمرة الى المال ، وقد صرح بقوله : « . . . . اننى حتى الآن (١٩١٩) كنت مقيدا بالتزام خاص وهو ألا أزعج الحكومة البريطانية بأية سياسة أتبعها ، وطالما كنت أتسلم منها مساعدة مالية ، فان علىّ أن أتقيد بشروطها ، أما وقد شعرت بأنها مضطرة الى التوقف عن دفع المساعدة المالية الى ، فانه يحق لى فيما أعتقد أن أتبع السياسة التى أريدها ، وأن أعمل على تقرير مصيرى بالطريق الذى أراه . . ! ! [١] »

ولعل ذلك يفسر لنا ما قام به إبن سعود من توسعات اقليمية فى الحجاز وعمان ومشارف الكويت ، حتى استطاع أن يوجد لنفسه كيانا أكثر قوة ، مما كان عليه من قبل ولم تجد الحكومة البريطانية فى نهاية الأمر سوى الموافقة على تعديل معاهدة القطيف بمعاهدة أخرى تتفق والمركز الذى وصل اليه فى الجزيرة العربية [٢] . واستعان عبد العزيز آل سعود فى توسعاته الاقليمية نحو الشرق ، بتحريضه لأتباعه من الاخوان على غزو الكويت ، وبالفعل اشتبك شيخ الكويت سالم بن الصباح ، فى معارك طاحنة ضد الاخوان النجديين ، وبدأت الغزوات بمهاجمة فيصل الدويش معسكر سالم بن الصباح فى حمض ١٩١٩ وفى العام التالى هاجم الاخوان الجهرة ، ونظرا لأهميتها العسكرية اذ أنها مدخل هام للكويت ، فقد وصل اليها سالم بنفسه ، ولكن الاخوان تمكنوا من محاصرته وكادوا يقضون عليه لولا نفاذ ذخيرتهم وقد خسرت الكويت من المهمات والذخائر والابل ، ما لا تقل قيمته عن ٣٠,٠٠٠ جنيه .

والواقع أن معركتى حمض والجهرة كانتا على جانب كبير من الأهمية لما ترتب عليهما تدخل الحكومة البريطانية فى الصراع السعودى الكويتى الذى اتخذ

---

(١) cf. Comment of Sir Percy cox to the Lecture delivared by captian Eccles in the central Asian society 27 October, 1927.

(٢) معاهدة جدة ١٩٢٧

فى هذه المرة غزو عسكرى مباشر ، كما أن هذه المعارك ترتبط أشد الارتباط بموضوع الحدود الكويتية السعودية ، فمن المعروف أن اتفاقية يوليو ١٩١٣ الموقعة بين الحكومتين البريطانية والعثمانية ، على الرغم من أنها نصت على تخطيط حدود الكويت ، الا أن عبد العزيز لم يكن على استعداد للالتزام بهذه المعاهدة على الرغم من اصرار الحكومة البريطانية على اعتباره الوريث الشرعى للدولة العثمانية فى مناطق الخليج العربى ومن ثم حاولت الضغط عليه لقبول هذه التسوية ، ولكن عبد العزيز كان من الطموح بحيث حاول أن ينفذ من نطاق هذه التسوية معتمدا على أتباعه من الاخوان الذين كانوا أكثر حماسا من عبد العزيز لدرجة ثورتهم عليه عندما وجدوا منه تخاذلا فى نهاية الأمر .

وقد بدأ النزاع الكويتى السعودى يتخذ الشكل العسكرى المشار اليه عندما حاول الشيخ سالم تأكيد سيادته فى حدوده الجنوبية فى دوحة بلبول الواقعة على الساحل الشمالى من جبل منيف ، ولكن عبد العزيز اعترض على ذلك مدعيا أن دوحة البلبول تقع ضمن الأقاليم السعودية ، وأصدر تعليماته الى الاخوان بالاستيلاء على « قرية » التى كان يطالب بها الشيخ سالم [1]، وبالفعل تمكن الدويش من الحاق الهزيمة بالجيش الكويتى ، وعندما وصلت فلول القوات الكويتية المنهزمة الى الكويت أدرك سالم خطورة الموقف فأمر ببناء السور المشهور حول الكويت ، وبالفعل تم بناءه بسرعة فائقة ، واشترك فيه جميع سكان الكويت . وكان الشيخ سالم يعتقد أن تحركات الاخوان نتيجة تحريض ابن سعود لهم بهدف القضاء على اتفاقية ٢٩ يولية سنة ١٩١٣ الانجليزية التركية مما دفعه الى احكام ادارته الصارمة على الامارة تفاديا لحالة التهديد ، كما حاول تقرير جزية سنوية على القبائل الواقعة الى الجنوب . وفشلت المفاوضات السعودية الكويتية ، اذ أصر الأمير عبد العزيز على عدم رد الأسلاب التى غنمها الاخوان ، وسجل ابن سعود مآخذه على سالم ، واتهمه بتحريض ابن الرشيد عليه ، وعلق رد الأسلاب على تنازل سالم عن العشائر القاطنة جنوب الكويت وتعهده بألا يخرج من الكويت جيشا مقاتلا [2] ، والواقع أن

---

(١) عبد العزيز الرشيد ــ تاريخ الكويت جـ ٢ ص ٢١٢

(٢) Dickson, Kuwait and Her Neighbours P. 252

الصراع الكويتى السعودى كان من أهم أسباب التقارب بين الكويت والانجليز ، ذلك التقارب الذى ظهر واضحا خلال الأيام الأخيرة من حكم سـالم ، مما يفسر لنا رفض الحكومة البريطانية للادعاءات السعودية ، فعندما طلب عبد العزيز أن يمتد بأراضيه الى أسوار الكويت رفضت الحكومة البريطانية هـذا الطلب وأبلغته أنها تعترف به فقط داخل الحدود المحدودة فى الاتفاق الانجليزى التركى ، الذى تضمن حدود الكويت وأن عليه أن يقبل التزامه واحترامه لهذا الاتفاق . والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية كانت لا تريد أن تلتزم بالاتفاق الانجليزى التركى فى علاقاتها بالكويت فى حين أنها كانت تصر على الزام عبد العزيز بذلك الاتفاق .

وازاء تدخل الحكومة البريطانية فى النزاع السـعودى الكويتى ، دارت المراسلات بين الكويت ونجد ، والمندوب السامى فى العراق ، وفرضت بريطانيا نفسها بمثابة محكم فى هذا الصراع بعد أن حصلت من كل من الشيخ سالم وعبد العزيز آل سعود ، على تعهد كتابى بموافقتهما على قرارات التحكيم وان كان الاثنان لم يلتزما بتعهدهما ، اذ واصل الأمير عبد العزيز اعتداءاته المستمرة على الكويت معلنا أن سيادة شيخ الكويت منحصرة داخل أسـوارها وقدم الشيخ سالم من ناحيته احتجاجا الى الحكومة البريطانية ضد تعديلات عبد العزيز وأطماعه فى امارته ، ومحاولته ضم قبائلها اليه محددا مطالبه على الوجه التالى :

أولا : أن تمتد حدود الكويت من جزيرة العمار جنوبا الى قرب انطاع ، والى جهرة واللهابة وقرعة واللصانة ، الى حفر الباطن ، وشمالا الى جبل سنام وسفوان وأم القصر .

ثانيا : أن يكون كل من حاكم نجد والكويت مسئولا مسئولية مباشرة عما يجرى فى حدوده من تعديلات البدو القاطنين هناك .

ثالثا : أن يكون لعشائر البادية الحرية التامة فى الانضمام الى أى حاكم يرونه أقدر من غيره على حمايتهم ، وأن يدفعون له زكاة أموالهم ، وأن يكون هناك ضمان لحرية التجارة .

رابعا : اذا حدث نزاع بين البدو ، فالفصل فيه يكون من سلطة الحاكمين ، الا اذا عجزوا عن ذلك فيرجع الأمر الى وكلاء الحكومة البريطانية فى الكويت والبحرين [١] .

وبالاضافة الى تلك لمطالب التى حددها الشيخ سالم ، فقد طلب عون الحكومة البريطانية رسميا ازاء اعتداءات الاخوان ، ورأت الحكومة البريطانية الفرصة مواتية لايقاف أطماع ابن سعود ، وذلك بمؤازرتها لسالم ، وظهر ذلك فى التحذير الذى بعث به الوكيل البريطانى فى الكويت الى فيصل الدويش بضرورة انسحابه من أطراف الكويت تحت التهديد بضرب تجمعات قواته من الجو بواسطة القوى الجوية التى تتخذ من البصرة قاعدة لها [٢] ، كما ذكر الماجور مور Moore لمبعوث فيصل الدويش بأنه لا يعتقد أن يكون الاخوان يتصرفون بايعاز من ابن سعود ، اذ أن الأمير صديق للحكومة البريطانية ، وقد أعطى تعهدا لها بألا يسبب أى متاعب للكويت .

وكرر الماجور (مور) تحذيره بأنه سوف يعارض أى هجوم يقوم به الاخوان على الكويت [٣] .

ولم تلبث أن أسفرت الاتصالات الرسمية بين الكويت وبوشهر وحكومة لندن والهند عن ارسال ثلاث مدرعات بريطانية رست فى مياه الكويت ، كما وصلت طائرتان من البصرة . فى الوقت الذى كان فيه فيصل الدويش يوالى ضغطه على الكويت ، وبوصول القوة البريطانية كان لدى سالم الجرأة الكافية للاجتماع بفيصل الدويش فى مقابلة حضرها الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت الماجور (مور) الذى حاول أن يؤكد للدويش أن كلا من الشيخ سالم وعبد العزيز صديقان لبريطانيا ، ولكن الدويش أجابه بأنه ما جاء الا بأمر عبد العزيز ، ومع ذلك فقد أصر (مور) على موقفه وموقف حكومته انحيازا للشيخ سالم ، وبعث بتحذير شديد اللهجة الى فيصل الدويش جاء فيه : « ... ان الحكومة البريطانية ترى أن أفعالكم هى بعكس ارادة وأوامر الأمير عبد العزيز ،

---

(١) الرشيد ــ تاريخ الكويت جـ ٢ ص ٣١٦

(٢) Dickson, op. cit. PP. 311-312

(٣) Ibid, PP. 255-256

ولا شك أن سعادته سينهيكم عن ذلك عندما يعلم بأفعالكم ، فبناء عليه تنبهكم بأنه اذا تجربون أن تهجموا على مدينة الكويت ، فحينئذ ستحسبون مجرمين حرب ، ليس عند سعادة شيخ الكويت ، بل عند الحكومة البريطانية أيضا ، فالحكومة البريطانية لم تعتبر ذلك بل ستقابل هذا بأفعال عدائية بواسطة القوة التى تفتكر لائقة . هذا مالزم اعلانه لكم » .

وازاء هذا الانذار اضطرت جحافل الاخوان الى الانسحاب عن تهديد الكويت وان كان ذلك لفترة مؤقتة(١) .

وكان لابد بعد ذلك من تهدئة العلاقات بين عبد العزيز والشيخ سالم ، فضلا عن ايجاد تسوية رسمية تحدد بها تخوم الامارتين ، وفيما يبدو أن الحكومة البريطانية توسطت فى أمر الصلح بين الأميرين ، وعهد بالوساطة الى الشيخ خزعل حاكم المحمرة الذى أرسل ابنه الكبير جاسب الى الكويت ، للبحث مع الشيخ سالم عمن يترأس وفد الصلح ، وبعد مداولات تعين الشيخ أحمد الجابر رئيسا للوفد ، وأبحرت البعثة وهى محملة بالهدايا والتحف على اليخت الخزعلى الى البحرين فى طريقها الى نجد فى فبراير سنة ١٩٢١ ، وما كادت البعثة تلتقى بعبد العزيز وتتفاوض معه حول تخطيط الحدود بين الامارتين ، حتى وصلت أنباء وفاة الشيخ سالم وآلت الأمور الى الشيخ أحمد الجابر ، وفيما يقال أن عبد العزيز سر سرورا بالغا عندما بلغه هذا النبأ ، ومزق محاضر المفاوضة التى كان قد سبق أن سجلها مع الشيخ أحمد الجابر ، وذكر ابن سعود (على سبيل المجاملة) ان حدود الكويت تنتهى عند أسوار الرياض وبعث المنادين ينادون أن سوق الكويت ونجد والاحساء : واحد ، ولا معارض لمن أراد السفر الى الكويت ، وحذر الاخوان من الاعتداء على من ينتسب لآل صباح ، كما سمح للنجديين بمسابلة أهالى الكويت . كما أكد عبد العزيز للشيخ

(١) لم يكف الاخوان عن ثوراتهم وقد وجهوها بعد ذلك ضد الأمير عبدالعزيز متهمين اياه بالتخاذل ، وقد استطاع عبد العزيز أن يقضى على ثوراتهم فى نهاية الأمر فى عام ١٩٣٤ cf. Dickson, op. cit. P. 328

راجع مجلة الكويت اصدار عبد العزيز الرشيد أعداد ١٩٢٦ ، ١٩٢٨

أحمد الجابر أنه لا توجد خلافات بين الامارتين الشقيقتين ، وطلب منه أن يعود الى بلاده ليتسلم مقاليد الحكم فى امارته[١] .

ومع ذلك فان الخلاف لم يلبث أن ظهر مرة ثانية بين عبد العزيز والشيخ أحمد الجابر ، ويرجع هذا الخلاف الى عوامل اقتصادية نتيجة فرض عبد العزيز الحصار على التجارة بين ممتلكاته والكويت ، موجها بذلك ضربة اقتصادية للكويت ، اذ أن تجارة الكويت مع المناطق الداخلية كانت احدى العوامل الرئيسية لازدهار الامارة . وظلت الكويت ما يقرب من عشرين عاما تواجه الحصار الذى فرضه ابن سعود عليها مما شكل تهديدا لاقتصادها . صحيح أن بعض التجار كانوا يقومون بشراء البضائع من الكويت وتهريبها الى الداخل ، ولكن معظم هذه المحاولات كانت تبوء بالفشل بسبب العقوبات الصارمة التى كان عبد العزيز ينزلها بأولئك الذين يقبض عليهم بجرم مخالفة ارادته .

ولعل مادعى عبد العزيز الى التشدد فى موقفه أن الكويت كانت تعد منفذا رئيسيا الى نجد ، الى جانب منفذها الآخر على البحر الأحمر ، ولذلك رأى ابن سعود تحويل رعاياه الى طريق البحر الأحمر ، طالما كان لا يستفيد من منفذ الكويت ، وبطبيعة الحال صادف رعايا ابن سعود صعوبات كثيرة ، اذ كانت نجد تستورد أكثر حاجياتها من الكويت ، ولذلك رأى حلا للمشكلة أن يطلب من شيخ الكويت بأن يكون للسعودية مركز جمركى داخل الحدود الكويتية السعودية ، يكون مديره سعوديا ، ولكن الشيخ أحمد الجابر رفض هذا الطلب اذ عده ماسا بسيادته[٢] ، مما حدا بابن سعود أن يتشدد فى فرض الحصار الاقتصادى لكى تنحصر التجارة فى جمارك الجبيل والعقير التابعة للسعودية ، أما الكويت فقد لحقت بها هى الأخرى أضرار اقتصادية بعيدة المدى من جراء هذا العمل الذى علله ابن سعود بعدم حصوله على الضريبة الجمركية

---

(١) Dickson, op. cit. P. 257
انظر أيضا عبد العزيز الرشيد ــ تاريخ الكويت ص ٢٢٧/٢٢٨

(٢) الرحان ــ مختصر تاريخ الكويت ص ٦٧ وكذلك زهرة فريث ــ الكويت كانت منزلى ص ٣٣

من رعاياه الذين يتاجرون فى الكويت ، فى الوقت الذى هو فى أشد الحاجة اليها [1] .

ترتب على مشكلة المسابلة اذن ، تدهور اقتصاديات الامارتين معا ، هـذا بالاضافة الى ما كان يلقاه النجديون من صعوبات تتيجة لذلك ، اذ كان أهالى نجد يفضلون الكويت للمسابلة لأنها أقرب اليهم من ناحية ، ولأنهم كانوا يجدون فى أسواقها ما يحتاجون اليه من ناحية أخرى ، فضلا عن أن تجار الكويت كانوا كثيرا ما يتساهلون معهم ، خاصة وقد عرف عن البدو شدة وفائهم بالتزاماتهم . وكان لسلطنة نجد جمارك ثلاث فى العقير والقطيف والجبيل ، وكان عبد العزيز يفضل بطبيعة الحال ، أن يجلب أهالى نجد حوائجهم من احدى هذه الأساكل النجدية فى الاحساء ، ومن هنا كان تشديده فى تحريم رعاياه من المسابلة فى الكويت طالما كان لا يستفيد منها . وعلى الرغم من أن هذا الموقف كان موقفا لاغبار عليه من ناحية ابن سعود ، الا أن المشكلة هى أن أهالى نجد كانوا لايستطيعون أن يدفعوا ثمن ما يشترونه من حوائج ، كما هى الحال غالبا ، اذا جاءوا الكويت للمسابلة ولما كان عبد العزيز يقدر ذلك ، فقد اقترح تسهيلا للفريقين المسابلين ، النجديون والتجار الكويتيون ، أن يعين فى الكويت وكلاء له يجمعون رسما على كل ما يشتريه أهالى نجد ــ وطلب ان يكون هذا الرسم بواقع ٧٪ ، ولكن الشيخ أحمد الجابر رفض هذا الطلب محتجا بحق السيادة للكويت ، وحاول عبد العزيز أن يصل الى تسوية ، بأن يجعل شيخ الكويت يعين من قبله من يجمع الضرائب له ، ولكن زعماء آل صباح لم يقبلوا تلك التسوية وأكدوا أنهم ليسوا جباة خراج لسلطان نجد . وقد اقترح البعض أن يقيم ابن سعود نقطا جمركية على طول الطرق التى تجتازها قوافل التجارة الخارجة من الكويت فى الجهرة والصيحية والدويش [2] . كما حاول الشيخ أحمد الجابر أن يؤثر على عبد العزيز بالهدايا ، ومع ذلك استمرت المشكلة ــ لعدة سنوات تالية ــ

---

(١) الفرحان ــ المصدر السابق ص ٩٨

(٢) أمين الريحانى ــ ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية ج ٢ ص ١٦٢/١٦٤

دون حل تقريبا[1] ، ولم تستطيع معاهدة العقير بين السعودية والكويت أن تصل الى حل للمشكلة على الرغم من أن هذه المعاهدة عنيت بتخطيط الحدود بين الامارتين ، ومعاهدة العقير ليست فى تقديرنا الا واحدة من تلك التسويات العديدة التى فرضتها بريطانيا عقب الحرب العالمية الأولى ، فهى تشابه معاهدة السيب التى وقعت فى عام ١٩٢٠ ، بين سلطنة مسقط وزعماء الامامة فى عمان ، ومعاهدة البحرا والحدا ، ومعاهدة المحمرة ، مع ملاحظة أن المعاهدة الأخيرة التى وقعت بين السعودية والعراق قد اعترض عليها ابن سعود اعتراضا شديدا وحمل البعثة السعودية أنها غالت فى تفسير تعليماته ، واقترح اعادة مناقشة موضوع الحدود مع السير برسى كوكس فى مؤتمر تقرير عقده فى ميناء العقير فى شتاء ١٩٢٢ و ١٩٢٣ ، وقد حضر فى هذا المؤتمر ممثلين عن السعودية والكويت والعراق ، كما هيمن السيربرسى كوكس على جلسات المؤتمر ، وعلى الرغم من أن الأمير عبد العزيز بن سعود كان فى قمة انتصاراته كسيد للجزيرة العربية خاصة بعد تخلصه من آل الرشيد فى حائل عام ١٩٢٢ الا أن برسى كوكس استطاع أن يضمن فى هذا المؤتمر من ابن سعود حماية العراق والكويت من اعتداءات السعوديين ، الى جانب حماية امارات الخليج الأخرى ، وتم ذلك بتوقيع بروتوكول العقير الذى ألحق بمعاهدة المحمرة[2] .

وقد عنى مؤتمر العقير ــ بصفة خاصة ــ بدراسة مشكلات الحدود بين نجد والكويت ، ومثل الكويت فى المؤتمر الماجور « مور » الوكيل البريطانى فى الكويت ، وهذا مما يدعم وجهة نظر الكويت فى الاعتراض على الحدود التى وضعت بينها وبين السعودية وقد تمخضت الاتفاقية بين نجد والكويت على مايأتى : ــ

أولا : تعيين الحد الجنوبى لأراضى الكويت .

---

(١) بقيت مشكلة المسابلة قائمة بين نجد والكويت ما يقرب من عشرين عاما جرت فى خلالها مفاوضات عديدة بين الحكومتين السعودية والكويتية بوساطة ديكسون حتى تم الاتفاق بين البلدين ، ولا شك أن ظهور البترول كان لهما الأثر الحاسم فى حل هذا الخلاف اذ عقدت بين البلدين معاهدة حسن جوار وصداقة عام ١٩٤٠ ، انظر الفرحان ــ مختصر تاريخ الكويت ص ٩٨ ، وفريث ص ٣٣

(٢) Philby, Sa'udi Arabia P. 284.

ثانيا : تعيين حدود الاقليم المحايد فى الجنوب بين حدود الكويت الجنوبية وحدود الاحساء الشمالية .

ثالثا : الاتفاق على أن يمارس كلا من حاكمى نجد والكويت حقوقا متساوية ، وفى حالة اكتشاف البترول يقتسم دخله مناصفة ، ويتم التقاضى بواسطة مجالس عرفية مختلطة ، يقوم كل حاكم بتعيين عدد من أعضائها .

والواقع كما يقرر الكثيرون ، وكما هو واضح لدينا ، أن القرارات التى اتخذت فى مؤتمر العقير ، كانت بمثابة قرارات فرضها السير برسى كوكس على كل من الكويت والعراق ونجد[١] . وقد عرض لنا ديكسون الجو الذى كانت تسود فيه المحادثات التى يصفها بأنها كانت مثيرة للغاية ، وقد اعتبر برسى كوكس نفسه محكما بين نجد والعراق والكويت . وأكد أن المؤتمر لن يفض الا اذا تم وضع التسويات الخاصة بالحدود . وحقيقة الأمر أنه لم تكن هناك مفاوضات منطقية ، وانما كانت كل أمارة تضع مطالب خيالية ، فقد أكد مبعوث العراق أن حدود بلاده تمتد جنوبا الى قرب العاصمة السعودية ، وتمتد غربا الى البحر الأحمر لتشمل حائل والمدينة وينبع ، وشرقا لتشمل الهفوف والقطيف على الخليج .

اما ابن سعود فقد ذكر أن مقاطعات نجد تمتد شمالا الى حلب فى شمال سوريا ، كما تشمل جميع المقاطعات الواقعة على الساحل الأيمن للفرات من البصرة حتى الخليج .

واستمرت المحادثات يسودها المغالاة أحيانا ، والاعتدال أحيانا أخرى ، وعلى الرغم من أن ابن سعود كان على علاقات صداقة مع الحكومة البريطانية ، فانه وجد نفسه عقب الحرب محاطا بدول أوجدها حلفاؤه ، وكان يأمل فى طرد الملك حسين من الحجاز ، وأن يصل بحدود ممتلكاته الى الأردن فى الشمال الغربى ، والعراق والكويت فى الشمال الشرقى ، ولكنه مع ذلك كان لا يرضى بالمجازفة فى تحدى انجلترا ، ولذلك حاول أن يحصل فى المؤتمر على مكاسب اقليمية بموافقتها[٢] . أما السير برسى كوكس ، وهو الذى سيطر على قرارات المؤتمر

---

(١) Dickson, op. cit., PP. 272-273.
(٢) Marlowe, op. cit. P. 75.

كما سبق أن أشرنا ، فقد ألحق بالحدود الجنوبية للعراق مقاطعات واسعة كانت تطالب بها نجد . كما حرم الكويت ثلثى مقاطعاتها وأعطاها لابن سعود ، وكان منطق « كوكس » فى تصرفه هذا ، أن قوة ابن الصباح ، أصبحت أضعف مما كانت عليه عند توقيع الاتفاق الانجليزى التركى ، وذلك فيما يختص بعلاقاته مع البدو الضاربين فى الصحراء ، ومع ذلك فلم يكن عبد العزيز بن سعود قانعابهذه التسوية ، وحمل السير برسى كوكس مسئولية حرمانه من الامتداد بحدوده الطبيعية فى العراق ، أما شيخ الكويت فقد استاء بطبيعة الحال لقرارات مؤتمر العقير ، واعتبر « برسى كوكس » بدوره هو المسئول عن استلابه لممتلكاته واعطائها لسلطان نجد ، وقد أكد له «كوكس» أنه لولم يفعل ذلك لكان ابن سعود أثار نزاعا واستولى عليها عنوة ولم يرض أن يضع توقيعه على اتفاق العقير ، الا بعد أن انتزع وعدا شفهيا من « برسى كوكس » بأن يكون له الحق فى العودة فى المستقبل الى الاستيلاء على هذه المقاطعات عندما تزداد قوته . والى أن مات الشيخ أحمد الجابر كان يشعر أنه غبن فى اتفاق العقير . وقد أكد لديكسون المقيم السياسى فى الخليج أنه كان يعتبر « برسى كوكس » كوالده ، وأنه كان لايعترض على اقتطاع بضع كيلومترات من ممتلكاته ، ولكنه فوجىء بانتزاع معظم هذه الممتلكات[١] ، وأشار ديكسون أن الشيخ أحمد الجابر ، كان كثيرا ما يؤكد له أنه لا يزال يعتبر المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية جزء لا يتجزأ من ممتلكاته ، وأنه لا يوافق على أن يناصف ابن سعود امتيازات البترول فيها[٢] .

والجدير بالذكر أن تخطيط الحدود بين الكويت والعراق كانت تطابق الاتفاق الانجليزى التركى (١٩١٣)وهى الحدود المبينة باللون الأخضر . ومع ذلك كانت الحكومة البريطانية تحرص حرصا شديدا على الاشارة الى هذه الاتفاقية فى مباحثاتها مع شيخ الكويت ، ويفهم من ذلك أنها كانت لاتود الزام شيخ الكويت بمثل ما التزم به ابن سعود ازاء هذه الاتفاقية ، ومما يستلفت النظر أيضا أنه على الرغم من أن مؤتمر العقير خطط الحدود بين نجد والكويت والعراق ، الا أنه لم يضع اتفاقا بشأن الحدود الشرقية ، والجنوبية الشرقية

---

(١) Dickson, op. cit. P. 278.

(٢) Ibid, op. cit.

للسعودية ، مما سيثير نزاعا اقليميا حادا فيما بين الحكومتين البريطانية والسعودية فيما بعد [١] .

كانت تسوية العقير أهم التسويات التى وضعتها بريطانيا فى أعقاب الحرب العالمية الاولى فى منطقة الخليج العربى ، وقد مست حدود كلا من سلطنة نجد وامارة الكويت ، ويمكننا أن نضيف الى تلك التسوية معاهدة السيب ، التى عقدت بين امامة عمان ، وسلطنة مسقط ، وقد أبرمت هذه التسوية بوساطة الحكومة البريطانية كنتيجة من النتائج التى ترتبت على اشتعال الثورة الاباضية ابان الحرب العالمية الأولى ، غير أنه ينبغى أن نؤكد هنا أنه لا علاقة بين الثورة العمانية وبين الحرب العالمية الأولى ، لأن هذه الثورة قامت أساسا ضمن سلسلة المحاولات التى بذلها الاباضيون لاعادة بعث الامامة ، والأحرى أن نقول أن هذه الثورة قد استفادت من نشوب الحرب ، وكانت تمثل مركزا هاما من مراكز التصدى للنفوذ الانجليزى الذى حاولت الحكومة البريطانية فرضه على كل بقعة من بقاع الخليج ، وتعود أسباب هذه الثورة الى زيادة النفوذ البريطانى فى مسقط خاصة بعد أن نجحت بريطانيا فى القضاء على منافسة فرنسا ، واخضاع السلطان لمطالبها ، فيما يتعلق بأمور التجارة بالسلاح والرقيق ، وقبوله استغلال بريطانيا لموارد عمان الداخلية . واختلفت الثورة العمانية فى هذه المرة عما سبقها من ثورات ، أنها لم تكن ثورة دينية صرفة استهدفت تطبيق التعاليم الاباضية ، كما أنها لم تكن انقلابا فى أحد فروع الأسرة الحاكمة فى مسقط ، وانما بدت فيها بوادر الحركة القومية واضحة . وقد حاول السلطان فيصل بن تركى تنصيب نفسه اماما على المذهب الأباضى ، على أن الخلاف بينه وبين زعماء الامامة ، يرجع الى تمسكه بأن يكون اماما وسلطانا ، فضلا عن رفضه الموافقة على الكثير من مطالبهم ، وأخذت الثورة تحرز تقدما هائلا ، بفضل التعاون الذى تم بين زعمائها ، وتمكين الصلح بين القبائل الغافرية والهناوية ، وأصبح الشعور ضد أسرة البوسعيد قويا ، الى درجة أن أحدا لم يهتم بانتخاب أى

---

(١) راجع نص المواد ٥ ـ ٦ ـ ٧٠ من الاتفاق الانجليزى التركى يوليه عام ١٩١٣

(٢) راجع التحكيم لتسوية النزام الاقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية ج ١ العرض التاريخى ج ٢ ، ٣ الوثائق والملاحق . ويمكن الرجوع أيضا الى العرض المقابل الذى تقدمت به المملكة المتحدة .

فرد من أفراد الأسرة الحاكمة فى مسقط ، وانما استقر الرأى على انتخاب الامام راشد الخروصى[1] ، وزاد من خطورة هذه الثورة ، ما كانت تخشاه بريطانيا من استغلال الألمان لها ، وتذهب الكثير من المصادر أن الألمان قد ساعدوا الثوار الأباضيين بالفعل ضد السلطان الموالى للانجليز ، بل ذهب (مارلو) أن الوكلاء الألمان هم الذين حركوا هـذه الثورة[2] ، على الرغم من أننا لانستطيع أن نستبعد خضوع تلك الثورة لمؤثرات أجنبية الا أننا لا نوافق على المغالاة فى هذه المؤثرات ، استنادا على دراستنا لطبيعة الثورة الأباضية — وكل ما نسـتطيع أن نقوله أن الثورة ربما تكون قد تأثرت معنويا بالدعاية الألمانية ، التى نشطت من مراكزها فى شرق أفريقيا ، تشجع الثوار ، وتؤكد لهم بأن النجدة الانجليزية لن تأتى ، بل وصلت الدعاية الى حد الادعاء بأن الامبراطور (ويهلم الثانى) اعتنق الاسلام ، وأن اسمه أصبح الحاج محمد غليوم وأن قواته تحرز انتصارات فى كل مكان ضد المسيحيين .

وفى يناير ١٩١٥ ، تقدم الشيخ عيسى بن صالح ، والامام الخروصى ، على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ، بهدف غزو مسقط والاطاحة بالسلطان . وعلى الرغم من أن مسقط لم تكن معززة الا بحاميات هندية صغيرة العدد ، الا أن هذه الحاميات استطاعت رد الهجوم غير المنظم الذى وجهه الثوار اليها ، وعلى الرغم من أن الثوار العمانيون ردوا على أعقابهم وانسحبوا الى الداخل ، الا أنهم مع ذلك لم يستجيبوا للصلح ، لاعتقادهم بانتصار الألمان فى الحرب ، وكان من رأى زعمائهم الصمود حتى معرفة ما ستتمخض عنه الحرب . حقيقة أن الثورة توقفت بعد قذف المدفعية البريطانية لكل من بركة وقريات ، وبفضل الدفاع القوى الذى قامت به القوات الهندية ونجاحها فى احتلال بيت الفولاج واحكام السلطات البريطانية سيطرتها على مخزن السلاح فى مسقط Warehouse وتحكمها فى تصدير الأسلحة وبيعها ، ولكن استمر زعماء الامامة فى صمودهم نتيجة لتأثرهم بالدعاية الألمانية من ناحية ، ونجاحهم فى احتلال وادى سمائل من ناحية أخرى . وحول ذلك الوقت (فبراير ١٩١٥) وصل اللورد هاردنج الى

---

(١) مجلة لغة العرب ــ سقوط مسقط نقلا عن جريدة المنار جـ ١٦ ، ١٣٣١ ص ٩٣١/٩٤٣

(٢) Marlowe, op. cit. P. 76 see also Sanger, The Arabian Peninsula P. 192.

مسقط ضمن رحلته العامة الى امارات الخليج العربى ، وعند التقائه بالوكيل السياسى فى مسقط أوضح له الأخير المصاعب الجمة التى يتعرض لها من جراء الثورة العمانية ولخص له الموقف على الوجه الآتى :

أولا : لا يزال الثوار قابضين على زمام الموقف باحتلالهم وادى سمائل وحصنة .

ثانيا : اكتسبت الثـــورة العمانية طابعا دينيا ، وأخذ الامام ينادى بالجهاد ، أضف الى ذلك أن القوات الهندية قتلت عددا كبيرا من الثوار مما أثار شعورا قويا من الاستنكار ، أصبح من الصعب تهدئته .

ثالثا : ان عرض منح على قبائل الداخل قد لا يكون فيه اغراء قوى اذ أن الامام قد يمنعه الحرج الدينى من قبول أية رشـــوة ، كما أن زعماء الامامة يتمتعون بدخل طيب بفضل استيلائهم على الكثير من الأراضى .

رابعا : ان خفض قوة الحاميات الهندية الى مستواها الطبيعى سيترك السلطان دون أى سند ، خاصة وأن السفن البريطانية ليست ، نظرا لظروف الحرب على مقربة من مسقط ، كما جرى عليه الحال فى زمن السلم .

ولهذه الأسباب التى أوضحها الوكيل السياسى ، نصح اللورد (هاردنج) السلطان تيمور بن فيصل ، وهو الذى خلف أباه فيصل بن تركى ، أن يسالم الثوار ، وأن يعقد معهم صـــلحا ، بعد أن أعلن له صراحة أن الانجليز لن يتمكنوا من تقديم ما يحتاج اليه من حماية الى أجل غير مسمى ، بسبب سيطرة قوات الامامة على وادى سمائل ، فضلا عن أن دعوة الامام بالجهاد الدينى قد تكون دعوة خطيرة فى تلك الظروف الدقيقة على الأقل ، لأن الانجليز كانوا يفاوضون الحسين بن على ، لاعلان الجهاد المقدس ، ضد العثمانيين ، ولا بد أن تؤدى دعوة امام عمان للجهاد ، الى مصاعب بالغة ، لا سيما فى الهند وجزيرة العرب وشمال أفريقيا ، وعلى أى حال فقد أصبح الوضع مجمدا طيلة سنوات الحرب ، ولم يكن الانجليز فى خلال تلك الســـنوات يهتمون ، الا بأحكام السيطرة على موانى مسقط . وعندما انتهت الحرب ، بذلوا كل ما فى وسعهم لاقرار الأوضاع بين الامامة والسلطنة ، فقد حاول القنصل البريطانى فى مسقط تنظيم مقابلة بينه وبين الشيخ عيسى ، نائب الامام للتفاوض فى عقد

الصلح ، كما بعث القنصل البريطانى برسالة الى زعماء الامامة يطلب منهم وقف اطلاق النار وجاء فى هذه الرسالة : « . . . أكتب اليكم بالخصوص لأخبركم أن ارادتنا هى أن نساعد على تأليف حكومة فى كل البلاد العربية ، لتحكم حسب عوائدها ، وحيث تخلص العرب من ربقة جور الأتراك ، فالرجاء وثيق أنهم سيتقدمون فى أمورهم على الطريقة العربية الطيبة ، وبما أن الفرصة قد سنحت الآن لكى نلتفت الى عمان ، فانه من الواجب أن أشرح لكم سياستنا .. »، وبعد أن أوضح القنصل البريطانى أنه يريد التباحث مع العمانيين لاقرار السلام فى المنطقة فانه أخذ يهددهم بقوله :

« ... ان لدينا خمسمائة ألف من العساكر المدربة على الحروب فى العراق ، وقد فرغوا من أعمالهم الحربية ، ولا حاجة لنا بهم هناك ، وبضعة آلاف منهم تكفى للاستيلاء على عمان بأسرها ، لو أننا أردنا بكم سواء ، والسيد تيمور يخالفكم فى أنه يحاول أن يكون على صداقة معنا .. » . كما تضمنت الرسالة تهديدا اقتصاديا باحكام سيطرة بريطانيا على السواحل ، جاء فيه : « ... ان الحاكم المتولى على السواحل لا يعجز عن فرض الخراج على ما يذهب اليكم ... وتعلمون كذلك أن زمام أمور البحر فى أيدينا ، فان كنتم تريدون مناصبتنا العداء فلن نسمح أن يباع لكم الأرز أو القمح أو الأثواب التى تلبسونها ، ولن نبيح لكم بيع تموركم ، مع العلم بأن كل تجارتكم لا تجرى الا فى بلادنا ، ولكن اذا كنتم مستحسنون صداقتنا ، فاننا سوف نقوم بمساعدتكم ، كما نساعد الآن السيد تيمور ... لكن ان لم ترضوا الآن أن تعاونونا ، فالعواقب الوخيمة ستحل بكم ، وليس بنا ، ومن المتعذر أن نكون أصدقاء لمن لا يريد صداقتنا »[١] .

وعلى الرغم مما يبدو من الحاح بريطانيا ولجوئها الى التهديد لاقرار الوضع بين الامامة والسلطنة ، فان زعماء الامامة حرصوا من جانبهم على عقد هذه المعاهدة ، وكانوا أكثر تقديرا لحقيقة الموقف الذى ترتب على سيطرة بريطانيا

---

(١) Question of oman, Report of the Ad-Hoc Committee on Oman, United Nation General Assembly distr. General A 5846, 1956 PP. 80FF.

كنا قد أخذنا هذه الوثيقة من مكتب امامة عمان بالقاهرة كما يوجد نصها باللغة الانجليزية الى جانب غيرها من الرسائل التى تبودلت بين الشيخ عيسى والقنصل البريطانى فى مسقط فى المصدر المشار اليه .

على الساحل ، وما قد يؤدى اليه ذلك من تضييق الحصار على الامامة ، اذ بوسع بريطانيا فى هذه الحالة أن تخنق الامامة سياسيا واقتصاديا[1] .

وعلى الرغم ما فى هذه الرسالة من عبارات التهديد ، فانها تتضمن أيضا الاعتراف باستقلال عمان ، وقد تأكد هذا الاعتراف فى العام التالى بتوقيع اتفاقية السيب التى وقعها نيابة عن الامام ممثله الشيخ عيسى بن صالح الحارثى ، ومن قبل السلطان المستر (وينجت) Wingate القنصل البريطانى فى مسقط وقد تعهد السلطان بموجب هذه المعاهدة بعدم التدخل فى شئون عمان الداخلية ، كما تعهد ممثلو الامامة من جانبهم ، بأن يمتنعوا عن الهجوم على مسقط . وقد رحبت الحكومة البريطانية بهذه الاتفاقية ، التى عقدت بواسطتها ، واعتبرتها نهاية لصراع طويل بين الامامة والسلطنة ، وبداية لعهد مستقر لسلطنة مسقط التى كانت تتعرض دائما للتهديدات والغزوات من عمان الداخلية .

والجدير بالذكر أن معاهدة السيب ، ظلت الى فترة طويلة ، تثير جدلا قويا بين الحكومة البريطانية ، المتحدثة باسم سلطان مسقط ، وبين زعماء الامامة . ومما يزيد التساؤل والغموض عدم وجود نص رسمى يمكن الاعتماد عليه لتلك المعاهدة . ويؤكد زعماء الامامة أنهم وقعوا هذه المعاهدة باعتبارهم ممثلين عن الامام ، بينما تؤكد الحكومة البريطانية أن ديباجة المعاهدة لم ينص فيها على الامام ، وانما كل ما جاء فيها : « ... هذا هو الصلح المتفق عليه بين حكومة السلطان تيمور بن فيصل ، والشيخ عيسى بن صالح بن على ، عن سكان عمان » كما أنه لايوجد تصديق من الامام على هذا الصلح المشار اليه . ولكن زعماء الامامة يؤكدون أن هناك نص آخر للمعاهدة ، مصدقا عليه من قبل الامام . وان كانوا قد عجزوا عن اظهار هذا النص بدعوى فقدهم له فى احدى الاغارات التى تعرضت لها امامة عمان من قبل مسقط .

وعلى الرغم من أننا لم نعثر على نص رسمى للمعاهدة ، اذ عملت كل من الحكومة البريطـانية ، وحكومة سلطان مسقط ، جاهدتين على تحاشى نشر

---

(١) cf. Memorandum Subimtted to the Committee by the United Kingdom cf. The Relationship between the united kingdom & sultanate of Muskat and Oman, United Nation official Records A/5846 Annexxi P. 1.

المعاهدة ، الا أنه من المعروف أن معاهدة السيب قررت أربعة مواد لصالح الامامة ، وأربعة أخرى لصالح السلطنة ، ويمكن أن نعرض لهذه المواد فيما ياتى :

أولا : المواد الخاصة بالامامة :

(ا) لاتفرض ضرائب أكثر من ٥٪ على البضائع الواردة من عمان الى موانى مسقط ومطرح وصور .

(ب) ترفع جميع القيود على دخول العمانيين موانى مسقط ومطرح وغيرهما من موانى الساحل .

(ج) يتمتع العمانيون بالحرية والأمان عند ذهابهم الى مدن الساحل .

(د) تتعهد حكومة سلطان مسقط بتسليم اللاجئين الهاربين من عدالة عمان .

ثانيا : أما المواد الخاصة بالسلطنة فهى :

(ا) يتعهد شيوخ وزعماء قبائل عمان بعدم مهاجمة المدن الساحلية ولا يتدخلون فى شئون الحكم فى مسقط .

(ب) يتمتع أهالى مسقط المشتغلون بالتجارة ، بالحرية والأمان فى مقاطعات عمان .

(ج) تسليم اللاجئين الهاربين من مسقط .

(د) تقرر مطالب التجار للعمانيين على أساس تعاليم الاسلام[١] .

والجدير بالذكر أن هذه المواد ، تم استنتاجها من اقوال الرحالة والموظفين الرسميين الذين زاروا مسقط ، وقد أكد هؤلاء استقلال عمان عن سلطنة مسقط . ذكر « ولفرد ثيجر » Thesiger فى كتابة (رمال العرب) وقد وضع هذا الكتاب بعد أن قضى وقتا طويلا فى الطواف بعمان وما جاورها ، أنه فى عام ١٩٢٠ وقعت معاهدة بين السلطان والعمانيين وافق السلطان بمقتضاها

---

(١) انظر دراستنا عن الأصول التاريخية لقضية عمان مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الثانى عشر ١٩٦٤/١٩٦٥

على ألا يتدخل فى شئون عمان الداخلية[١] — أما الكابتن G. Z. Eccles[٢] وكان متوليا قيـادة قوات السـلطنة فى بيت الفولاج ، فقـد أشـار الى اتفاق السيب بقوله : « . . . أن ثمة معاهدة وقعت عن طريق وساطة الوكيل السياسى فى مسقط » أما المستر « برترام توماس » Bertram Thomas وهو الذى كان وزيرا ومستشارا ماليا لسلطان مسقط فى الفترة من ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ ، فكان أكثر تحديدا فيما كتب ، اذ قال : « .... أمكن الوصول الى تسوية تقوم على أساس الحالة الراهنة وبمقتضاها ظل السلطان من الوجهة القانونية على مسقط وعمان ، على أن تكون لقبائل الداخل حكومة من بينهم ، تعتمد على أساس الأمر الواقع ، لتدبير شئونهم المحلية البحتة »[٣]. وعلى الرغم من أن « برترام توماس » كان أكثر تحديدا ، كما أشرنا ، الا أن العبارة التى أوردها ، يحتمل تفسيرها بأكثر من تفسير واحد ، فقد تعنى أن السلطان ظل سلطانا على مسقط وعمان لا لسبب سوى أنه كان يدعى هذا اللقب لنفسه منذ زمن بعيد ، وأن الحكومة البريطانية كانت قد اعترفت بلقبه هذا منذ أمد طويل ، أو قد تعنى أن ممثلى الامامة أقروا قانونية هذا اللقب ، مما يضعف من مركزهم بطبيعة الحال وان كانت المبادىء التى قامت على أساسها الامامة الأباضية ، واصرار زعماء الامامة على أن السلطان لم يعترف به فى عمان ، كل هذا يلقى فى تقديرنا شكا على التفسير الأخير .

أما القنصل الفرنسى R. Vadala الذى ذهب الى مسقط فى عام ١٩٢٠ ،ليغلق القنصلية الفرنسية هناك ، فقد كتب معقبا على اتفاق ١٩٢٠ بقوله : « كانت الحرب قد ظلت ناشبة سبع سنوات بين سلطان مسقط وداخلية عمان ، ولم تنته الا فى ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ ، يوم وقعت وثيقة الصلح فى السيب بين السلطان تيمور بن فيصل ، والشيخ عيسى بن صالح » وذكر أن القنصل البريطانى فى مسقط ، كان الوسيط فى عقد هذه التسوية ، التى بمقتضاها ، حق لأهل مسقط وعمان ، أن يتاجروا ويسافروا بحرية وأمان ، ولكن فرضت ضريبة مقدارها ٥٪

(١) Cf. Wilfred Thesiger, Arabian Sands London 1959.

(٢) Le cture delivered by captain Eccles in the Central Asian Society 27 Oct. 1927.

(٣) Bertram Thomas, « Finance Minister and Wazir to H.H. The sultan of Muscat & Oman »,
Arab Rule Under the Al Busaid Dynasty in oman and East Africa, London, 1934 PP. 24—26.

على جميع سلع الداخل عند وصولها الى مسقط . وبفضل هذا الصلح الذى كان ينتظر أن يعقبه اتفاق سرى ، يحظر كل تدخل أجنبى ، صـارت عمان هادئة ، والواقع أننا لم نعثر على نصوص هذا الصلح الذى أشار اليه Vadala غير أنه اذا سلمنا بتوقيع وثيقة الصلح هذه ، فان هذه التسوية مع ذلك لم تحل مشكلات السلطنة تماما ، اذ أخذ عرش السلطان يهتز حتى بعد توقيعها ، مما اضطر الانجليز للتدخل للحيلولة دون انهياره ، ويؤكد (برترام توماس) بصدد ذلك أن مساعدة بريطانيا هذه المرة (التى أعقبت معاهدة السيب) لم تنصرف الى رد الهجمات التى كانت تتعرض لها السلطنة ،انما جاءت فى شكل قرض قدمته حكومة الهند لتصفية ديون السـلطنة وللعمل على تنظيم فيلق يتولى قيادته ضابط بريطانى ، كما اهتمت الحكومة باصلاح المحاكم وانشاء مجلس يتولى الحكم باسم السـلطان فى حالة غيابه ، كما نصح السـلطاز بأن يستعين بخدمات وزير بريطانى ، كاجراء مؤقت[١] ، كما تعهد السلطان بعد ذلك بألا يمنح امتياز الزيت لأية دولة غير بريطانيا .

* * *

كانت هذه هى أهم المشكلات التى واجهت بريطانيا فى خلال وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فى كل من الكويت ونجد ومسقط وعمان ، أما بقية مناطق الخليج فلم تحدث فيها مشكلات تذكر ، بل على العكس ، تمخضت الحرب العالمية الأولى وما لابسها من ظروف ، عن توطيد دعائم السيطرة البريطانية بصورة أقوى ، فالبحرين مثلا لم تتأثر بأحداث الحرب ، الا بقلة دخلها من اللؤلؤ ، كذلك لم تتأثر بحركات التوسع السـعودى[٢] ، ذلك أن صناعة اللؤلؤ فى البحرين قد تعرضت الى التدهور خلال سنوات الحرب ، ثم عادت الى الانتعاش ، الى أن تعرضت للمنافسة اليابانية ، حيث أخذت تستعيض بعد ذلك عن قلة دخلها ، بتحولها الى عصر البترول وكانت البحرين خلال الحرب العالمية الأولى مركز تجمع للقوات الهندية ، وقاعدة بريطانية هامة ، استخدمت لحشد الجنود للاعداد لحملة العراق ، حقيقة أن بريطانيا تعرضت لبوادر حركة

---

(١) علم الرغم من أن تعيين الوزير البريطانى كان اجراء مؤقتا الا انه استمر لفترة طويلة فى سلطنة مسقط .

(٢) Marlowe, op. cit. P. 76.

وطنية فى البحرين ، الا أنها استطاعت أن تخمد هذه الحركة التى قامت نتيجة لمحاولة بريطانيا تطبيق القانون الهنـــدى على البحرين والذى عرف باسم Bahrein Order in Council [١] ، ولكن ظروف الحرب اضطرت بريطانيا الى تأجيل ذلك ، ولما انتهت الحرب وشرعت فى تنفيذ القانون ، ثار شعب البحرين وكونوا مجلسا يضم رؤســائهم ويخول لهم حق انتخاب القضاة الشرعيين ، ورؤساء الدوائر ، وعزل غير الوطنيين ، واتخاذه الأســـباب اللازمة لحفظ حقوقهم ، ولما وجدت بريطانيا أن هذا المجلس قد يضر بنفوذها ، بدأت تثير العصبيات العنصرية والمذهبية بين السنة والشيعة ، والفرس والعرب ، مما ترك الفرصة للتدخل الفارسى الذى زاد الأمور اضطرابا . وعندما بلغ الاضطراب حدا بالغا ، طلب المقيم السياسى فى بوشهر عزل الشيخ عيسى ، لاستجابته للحركة الوطنية وموافقته على تشكيل جمعية تشريعية ، وتنظيم بوليس وطنى ، والموافقة على اللائحة الاصــلاحية ، التى تقدم بها اليه الوطنيون ، وبالفعل اضطر الشيخ عيسى الى التنازل عن الحكم لابنه حمد ، وتبع العزل سلسلة من الاجراءات التعسفية ، استبد الماجور (ديلى) Duliey فيها بالأمر ، وقد أجاب الوطنيون على ذلك بالدعوة الى مؤتمر البحرين الذى انعقد بالفعل فى ٢٦ يونية ١٩٢٣ ، وحدد مطالبه على الوجه الآتى :

أولا : عدم الاعتراف بعزل الشيخ عيسى .

ثانيا : عدم تدخل القنصل البريطانى فى حكومة البحرين .

ثالثا : رفض القانون الهندى ، والاصرار على أن تجرى الأحكام طبقا للشريعة الاسلامية .

وقد انتهى المؤتمر بانتخاب هيئة تنفيذية ، تقوم بتنفيذ تلك القرارات ، ولكن استطاعت بريطانيا أن تقمع هذه الحركة سريعا وهى ما زالت تتعثر فى خطواتها الأولى [٢] .

أما امارة قطر ، فقد بدأت مرحلة جديدة فى العلاقات بينها وبين بريطانيا ، فعند نشوب الحرب أجلت المدرعات البريطانية الحامية التركية من مدينة الدوحة ،

---

(١) ارجع الى مواد هذا القانون فى :
Bahrein order in Council, 1913 Ind. Off. Political & External File Vol. 520 File 951 Part. 1

(٢) الريحانى — ملوك العرب ص ٢٤٠/٢٤٨ .

وفى معاهدة (دارين) التى وقعتها بريطانيا مع عبد العزيز آل سعود ١٩١٥ أشير فيها الى شيخ قطر بأنه واقع تحت الحماية البريطانية ، على الرغم من أنه لم تكن هناك معاهدة تربطه بالانجليز ، باستثناء الاتفاقية الانجليزية التركية ، التى لم يصادق عليها ، والتى أشير فيها الى مشيخة قطر بأنها امارة مستقلة يتوارث حكامها من آل ثانى الحكم ، وفى ٣ نوفمبر ١٩١٦ وضعت قطر رسميا تحت الحماية البريطانية ، اذ اشترك عبد الله بن قاسم فى المعاهدات والاتفاقيات التى ارتبط بها أمراء ساحل عمان الخاصة بمكافحة القرصنة ، وتجارة الرقيق ، والمحافظة على سلامة الملاحة فى الخليج ، وفى الوقت نفسه وقع الشيخ عبد الله وثيقة منفصلة تضمنت قيودا معينة تحرم استيراد الأسلحة وتصديرها وشرائها ، الا بموافقة الانجليز على أن يكون للامارة حق شرائها بموافقة بريطانيا من مخزن الأسلحة بمسقط ، أو من أى مكان آخر توافق عليه بريطانيا ، وقد حددت حاجة قطر من السلاح بخمسمائة قطعة سنويا ، كما نصت الوثيقة على عدم تبادل الممثلين السياسيين مع أية دولة أخرى غير بريطانيا . وألا تعقد الامارة أى معاهدة مع أية دولة أخرى ، الى جانب عدم التنازل عن أراضى الامارة أو بيعها أو تأجيرها بأى شكل من الأشكال ، كما تضمنت الوثيقة بالاضافة الى ذلك قيودا اقتصادية ، خاصة بعدم منح امتنازات صيد اللؤلؤ أو أى احتكار آخر لأية دولة أو شركة أجنبية دون موافقة بريطانيا ، كذلك لا يجوز لحاكم قطر أن يفرض رسما على الرعايا الانجليز يزيد عما يدفعه رعاياه ، ولا يتجاوز بأية حال عن ٥٪ ، وأن يسمح باقامة مكاتب للبريد وشبكات برقية فى داخل أراضيه ، واقامة وكيل بريطانى بالبدعة . وتعهد الانجليز أن يبذلوا مساعيهم (الحميدة) فيما لو هوجم حاكم قطر أو رعاياه فى داخل أراضيهم مهاجمة بحرية دون استفزاز [١] .

* * *

وهكذا تمخضت الحرب العالمية الأولى ، عن تدعيم السيطرة البريطانية فضلا عن ايجاد معاهدات لتخطيط الحدود بين نجد ومناطق النفوذ البريطانى فى الشمال، والشمال الشرقى من الجزيرة العربية ، الى جانب ايجاد تسوية بين منطقة النفوذ

---

(١) شركة الزيت العربية الأمريكية — ادارة العلاقات — شعبة البحث — عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى ص ٣١١ و ٣١٢

البريطانى فى سلطنة مسقط ، ومقاطعات عمان الداخلية ، ولاشك أن ظروف الحرب وما تبعها من اجراءات عسكرية قد ساعدت على تدعيم السيطرة البريطانية فى الخليج العربى ، بصورة تفوق كثيرا عما كانت عليه فى السابق ، وساعدت الظروف الدولية بريطانيا أيضا على تحقيق تلك السيطرة ، اذ أن الدول التى نافستها النفوذ فى الخليج لم تلبث أن خرجت من حلبة التنافس : ألمانيا لهزيمتها فى الحرب ، وروسيا لتغير أوضاع الحكم بها ، ودعوتها الى التخلى عن الأطماع القيصرية . أما فرنسا حليفة بريطانيا ، فقد سلمت لحليفتها بالنفوذ ، وبادرت الى اغلاق قنصليتها فىمسقط فىعام ١٩٢٠ كآخر مظهر من مظاهر النفوذ الفرنسى فى الخليج العربى ، مكتفية بالنفوذ الذى آل اليها فى الشام . وكان لاختفاء الدولة العثمانية سببا فى أن أصبحت السيطرة البريطانية فى الخليج تمتد من شط العرب شمالا ، حتى المحيط الهندى جنوبا . بينما كانت فى وجود الدولة العثمانية وطبقا للاتفاق الانجليزى التركى تنتهى عند شبه جزيرة قطر .

وهكذا حق لكثيرين من الكتاب أن يصفوا الخليج بأنه أصبح بحيرة انجليزية British Lake كما أطلق اللورد كيرزون Curzno وزير الخارجية البريطانية فى رسالة الى برسى كوكس بأنه قد أصبح ملكا على الخليج .

وعند انتهاء الحرب قامت وزارة الخارجية البريطانية باعداد سلسلة من المنشورات باشراف القسم التاريخى فيها ، يشار الى كل منشور منها عادة باسم دليل الصلح ، اذ كان القصد أنه يسترشد بها المندوبون الانجليز فى مؤتمر فرساى الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٩ . ويهمنا فى دراستنا الدليل المعنون بالجزيرة العربية والمعنون بالخليج الفارسى .

وهما يؤكدان على النفوذ الذى وصل اليه الانجليز فى الخليج العربى وأن جميع رؤساء الخليج قد خضعوا للسيطرة البريطانية لدرجة أنه بالرغم من قلة التدخل البريطانى فى شئونهم الداخلية فانهم أضحوا خاضعين للنفوذ الانجليزى فيما يتعلق بشئون اتصالاتهم الخارجية وأنهم يحتفظون الى مدى بعيد بعائلاتهم وسلطتهم فى الحكم فقط بفضل اتحادهم مع الانجليز (١) .

---

(١) cf. Handbook Prepared Under the Direction of Great Britain Foreign office-Historical section. Persian gulf No. 67.

أما الصعاب المحلية التى واجهتها بريطانيا من قبل القوى المحلية فى الخليج ، فقد نجحت فى قمعها لفترة مؤقتة بفضل التسويات التى عقدتها مع الرؤساء والتى سبق أن تعرضنا اليها كاتفاقية السيب من مسقط وعمان ومؤتمر العقير بين نجد والكويت والعراق ، كذلك استطاعت أن تقضى على بوادر الحركة الوطنية فى كل من عمان والبحرين والكويت . وبانتهاء الحرب وملابساتها نصل الى بداية مرحلة جديدة من تاريخ الامارات العربية فى الخليج العربى . يمكن أن نطلق عليها مرحلة ما بين الحربين العالميتين ، وتتميز هذه المرحلة بتدفق الثروة البترولية ، وما ترتب على ذلك من انقلابات سياسية واقتصادية واجتماعية ، نرجو أن نعود اليها فى دراسة تالية .

عرض للأبحاث والدراسات الخاصة

بتاريخ ليبيا الحديث التي قدمت إلى مؤتمر ليبيا عبر العصور

للدكتور جمال زكريا قاسم

مدرس التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

اقتصرت الدراسات التى قدمت الى مؤتمر ليبيا عبر العصور الذى نظمته كلية الآداب والتربية ببنغازى فى الفترة من ١٦ الى ٢٣ مارس سنة ١٩٦٨ على سبعة أبحاث فى التاريخ الحديث من مجموع الدراسات التى قدمت الى المؤتمر والتى بلغ عددها سبعة وثلاثين بحثا تناولت مختلف العصور التاريخية التى مرت بها ليبيا ؛ ولما كان قد أتيح لى فرصة الاشتراك فى هذا المؤتمر لذلك رأيت أن أقوم بعرض للأبحاث الخاصة بالتاريخ الحديث ويمكن ترتيبها حسب ترادفهـا الزمنى على النحو التالى :

ــ ليبيا بين الحسن الوزان ومارمول ، للدكتور نيقولا زيادة ــ الجامعة الاميريكية ببيروت .

ــ علاقة منظمة القديس يوحنا بطرابلس ، للاستاذ فر . أ . فيلا ــ الجامعة الملكية بمالطة .

ــ حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياش فى رحلته ، للأستاذ عوض السعداوية .

ــ الظروف التى أدت الى احتلال على الجزائرلى لمدينة طرابلس الغرب . ــ ١٧٩٣ ــ ١٧٩٥ ، للأستاذ عمر بن اسماعيل .

ــ ملامح تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر للأســتاذ مصطفى بعيو وزير التربية والتعليم بالمملكة الليبية .

ــ موقف مصر من الحرب الليبية الايطالية سنة ١٩١١ ــ ١٩١٤ ، للدكتور جمال زكريا قاسم ــ جامعة عين شمس .

ـ السنوسية فى الحرب العظمى الأولى ـ للسيردنكان ـ كمنج .

والدراسة الأولى لم تطبع فى الطبعة التمهيدية التى وزعت على الأعضاء خلال جلسات المؤتمر كغيرها من الدراسات وانما اكتفى الأستاذ نيقولا زيادة بالقائها ـ واعدا باعداد صياغتها ـ وارسالها الى سكرتارية المؤتمر حينما يأتى دور نشرها . وعلى ذلك فاننى سأعتمد هنا على تسجيل بعض النقاط التى أبرزها الباحث خلال عرضه لموضوع دراسته ..

ذكر الأستاذ نيقولا زيادة أن القرن السادس عشر يحتاج الى عناية خاصة من المؤرخين لأن هـــذا القرن عرف مجموعة من الرجال قل أن تجتمع فى عصر واحد . ففى القسطنطينية كان سليم الأول وابنه سليمان يشغلان أكثر سنوات هذا القرن ، وفى المغرب كانت تقوم الدولة السعدية خاصة فى عهد أقوى سلاطينها أحمد المنصور الذهبى ، وفى أسبانيا كان فرديناند الكاثوليكى ، يضاف الى ذلك ظهور قواد من الدرجة الأولى من أمثال علوج وبربروسا وسنان باشا ، وعلى ذلك فانه يجدر التركيز بمزيد من الدراسات على تلك الشخصيات التى ظهرت سواء فى الشرق أو الغرب أو فى الشمال أو فى الجنوب .

وذكر الباحث أيضا أن أهم الأحداث المتعلقة بليبيا فى القرن السادس عشر يمكن ابرازها على النحو التالى :

أولا : محاولة ليبيا الاستقلال عن الدولة الحفصية بتونس .

ثانيا : احتلال الأسبان لمدينة طرابلس فى عام ١٥١٠ .

ثالثا : تخلى الأسبان عن طرابلس الى فرسان القديس يوحنا فى عام ١٥٣٠

وأشـــار أن أهم الوثائق الخاصة بهذه الفترة تتمثل فى كتاب وصف افريقـــة وتاريخها الذى وضعه الحسن الوزان الذى تعرفه المصادر الأوروبية باسم ليو الافريقى .

وقد تعرض الباحث الى ترجمة موجزة للوزان ذكر فيها أنه من غرناطة أو من المغرب ولعله من مدينة فاس ، كما كان يطيب له أن يلقب نفسه فى بعض الأحيان باسم « الفاسى » وقد أسر وهو صغير وتنصر أو أجبر على اعتناق

المسيحية وعاش فى كنف البابا ليو العاشر وتسمى باسمه ، ومن ثم صار يعرف باسم ليو يوحنا افريكانس .

ومع أنه ابتعد عن بلاده الا أنه زارها مرات كثيرة ، وفيما يبدو أن الحسن الوزان كان يعتز بافريقية ، ففى وصفه لأحوال البلاد التى زارها كان يسجل بعض العبارات التى يظهر منها اهتمامه بهذه المناطق وأسفه لما صارت اليه من سوء كأن يقول « يؤسفنى كافريقى » « أن أتحدث عن بلد بهذا الشأن » . وان كنا نجده فى بعض الأحيان يذكر بعض ألفاظ نابية عن الأفارقة ، ويستدل من كتابات الوزان أنه زار طرابلس فى عام ١٥١٨ وتردد على مختلف مقاطعات الشمال الافريقية خـلال الفترة من عام ١٥١٨ الى ١٥٢٦ وعنى بوجه خاص بوصف المدن والشعوب التى شادت هذه المدن كأن يقول « وهذه من بناء البربر أو من بناء الرومان أو من بناء المسلمين » . غير أنه اذا جاء الى تهديم المدن وتخريبها فهو يلوم الأعراب فى ذلك .

ثم أورد الباحث الوثيقة الثانية التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة أحوال ليبيا فى القرن السادس عشر . وهى ما كتبه الرحالة الهولندى مارمول ويقرر أنه يتفق مع الوزان فى وصفه لبعض الأشياء لدرجة توحى أنه قد نقل عنه ، وان كان يختلف عنه فى بعض الأحيان ، وتدل اختلاف الاحصائيات التى أوردها مارمول من حيث عدد السـكان أو تقدم التجارة عن مدى الانتعاش الذى شهدته ليبيا بين زمن الوزان وزمن مارمول ، مما يؤكد التطور السريع الذى مرت به البلاد ، خاصة وأن الفترة بينهما لا تتجاوز بضع عشرات من السنيين ومن الأوصاف التى أوردها كل من الوزان ومارمول ذكر لنا الباحث بعض النواحى التى تميزت بها ليبيا كشهرة طرابلس بالحرير أو الى غنى بعض أقاليمها بالفاكهة .أو كما ذكر الوزان أن أكثر السكان فى جبل نفوسة ليسو سنيين وأنهم يتبعون شيخ القيروان ، ولما كنا نعرف أن شيخ القيروان كان فى ذلك الوقت سنيا لذلك لم يضبط الوزان وصفه هذا وأكد كل من الوزان ومارمول أن فزان ومصراته كانتا متصلتين بالتجارة مع دول السودان الغربى . وركزا على الطريق الصحراوى التجارى الذى كان يصل شنقيط بمصر . وعن غنى غريان بالزعفران هذا الى جانب تسجيل الرحالتان نواحى كثيرة من حياة الناس ومعيشتهم فى هذه المناطق .

ثم يختتم الباحث دراسته بالاشارة الى بعض الوثائق التى يمكن الرجوع اليها لدراسة هذه الفترة خاصة تقارير البعثات السياسية الى جانب أعمال كل من الوزان ومارمول .

أما الدراسة الثانية فموضوعها « علاقة منظمة فرسـان القديس يوحنا بطرابلس » وقد وضع هذه الدراسة الأستاذ فر . أ . فيلا رئيس قسم التاريخ بالجامعة الملكية بمالطة .

وقسم الباحث دراسته الى ثلاثة أقسام تعرض فى القسم الأول الى نشأة المنظمة والمناطق المختلفة التى تنقلت اليها قبل وصولها الى طرابلس وهى الفترة من ١١١٣ — ١٥٣٠ .

وفى القسم الثانى الى تنازل الامبراطور شـارل الخامس المنظمة عن كل من مالطة وطرابلس فى عام ١٥٣٠ ، أما القسم الثالث فقد تعرض فيه الى حكم الفرسان لطرابلس فى الفترة من عام ١٥٣٠ حتى انسحابها فى عام ١٥٥١ بوقوع طرابلس فى قبضة الأتراك العثمانيين .

ويذهب فيلا فى دراسته الى أن منظمة القديس يوحنا التى صارت تعرف فيما بعد باسم المنظمة الملكية بمالطة كانت نتيجة من نتائج الحروب الصليبية الأولى وقد أنشئت بمقتضى مرسوم بابوى منحه البابا بسكال الثانى لمؤسسها جيرار فى عام ١١١٣ ، وكانت فى بداية نشأتها كمنظمة اسبتارية تستهدف أغراضا انسانية بحتة لعل أبرزها مساعدة فقراء المسيحيين من الحجاج عند مجيئهم الى بيت المقدس ، ثم وكل الى المنظمة بعد ذلك الدفاع عن بيت المقدس حتى عام ١١٨٧ حينما أرغمت على الانسحاب بعد هزيمة الصليبيين الى ماراجات . ثم نقلت مركزها الى عكا فى الفترة من ١١٩١ — ١٢٩٢ حيث استمر فرسان المنظمة يظاهرون مؤخرة الجيوش الصليبية حتى سقوط المدينة فى أيدى المسلمين ومن ثم تحولوا الى جزيرة رودس فى الفترة من ١٣١٠ — ١٥٢٢ وأخذوا من هناك يمارسون نشاطهم البحرى ضد القوى الاسلامية فى منطقة شرق البحر المتوسط . وقد علل فيلا الظروف التى أدت الى استيلاء المنظمة على طرابلس ، ذلك أنه بعد طرد الفرسان من رودس على أيدى الأتراك العثمانيين أصبحت المنظمة بلا مأوى ، ولذلك أصدر الامبراطور شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية

المقدسة وملك أسبانيا فرمانا فى عام ١٥٣٠ بمنح المنظمة كل من جزيرة مالطة وقوزو وطرابلس ، ومن المعروف أن طرابلس كانت خاضعة لأسبانيا منذ عام ١٥١٠ ولكن شارل الخامس بالنظر الى حروبه المستمرة مع فرانسوا الأول ملك فرنسا وانشغاله بالحروب الايطالية أصدر قراره بالتخلى عن طرابلس حتى يكسب الى جانبه الرأى العام المسيحى . ولعله أراد أيضا التفرغ للحروب الايطالية من ناحية ، فضلا عن استفادته بجهود المنظمة من ناحية أخرى .

وقد يكون المهم فى بحث فيلا أنه ينبهنا الى الوثائق الخاصة التى يمكن الرجوع اليها من دراستنا لبعض الموضوعات المتعلقة بالمنظمة وبطرابلس خلال خضوعها للفرسان ، ومن أهم هذه الوثائق التقرير الذى أعده مبعوثو المنظمة الى طرابلس ومالطة قبل استيلاء المنظمة على هذه المناطق ولا يزال هذا التقرير محتفظا به فى الأرشيف الخاص بمنظمة الفرسان فى فالته .

وفى عرض فيلا لحكم المنظمة لطرابلس فى الفترة من ١٥٣٠ الى ١٥٥١ يعتمد فى الوقائع التى يذكرها على مؤرخ رسمى عاصر المنظمة فى هذه الفترة وسجل مادة متوافرة عن حكمها لطرابلس وهو المؤرخ Jacomo Basmio ، على أننا نختلف مع الباحث فى بعض الجوانب التى حاول أن يبرزها ، من ذلك ما ذكره أن سكان طرابلس « أيدوا المنظمة وحاربوا الى جانب فرسانها بل واستخدمهم الفرسان عيونا لهم وقد فعلوا ذلك لخوفهم من تسلط الأتراك العثمانيين عليهم » .

ولكن من المؤكد أن حظ فرسان القديس يوحنا فى طرابلس لم يكن بأحسن من حظ الأسبان فيها اذ اشتدت بمقدمهم غارات الأهالى على المدينة حتى يأس الفرسان من البقاء فيها ، بل أنه من المعروف طبقا لما ذكره بعض المؤرخين الطرابلسيين أن وفدا من أهالى تاجورا ذهب الى دار الخلافة طالبين من السلطان العثمانى نجدتهم وأن السلطان استجاب لهذا النداء وبالفعل أرسلت حملة عثمانية الى طرابلس فطردت الفرسان وسجلت انتصارا على القوى المسيحية فى البحر المتوسط التى كانت تتزعمها أسبانيا فى القرن السادس عشر ، وربما يكون فيلا قد استند فيما ذهب اليه الى بعض حوادث فردية أو أنه اعتمد على الجهود التى بذلها الفرسان فى محاولتهم كسب الناس الى جانبهم عن طريق نشاطهم المتزايد فى المجال الاسبتارى بصفة خاصة .

ويقرر فيلا أن فرسان القديس يوحنا قد استقروا فى طرابلس فى بداية الأمر واعتبروا أن طرابلس أهم لهم لخدمة مخططاتهم التى هدفوا بها الى اعادة السيطرة على رودس بل أنهم ترددوا فى الاستيلاء على طرابلس ومالطة فى آن واحد لأن ذلك يعنى تمزق قواهم على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يفصل بين مالطة وطرابلس سوى مائتين وعشرين ميلا ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هذا الفاصل فى ذلك الوقت كان يمنع من ارسال النجدات السريعة فى حالة الضرورة .

وعلى أية حال فقد ألقى على كاهل المنظمة فى طرابلس مسئوليات كبيرة أهمها حراسة الطريق البحرى بين مالطة وطرابلس ومساعدة الأسطول الأسبانى والبندقى والبابوى ضد القوى الاسلامية فى الحوض الجنوبى للبحر المتوسط ، هذا فضلا عن المتاعب التى كانوا يتعرضون لها من (القرصان) خير الدين بارباروسا . وقد استخدم فيلا لفظ قرصان وان كان المؤرخين المسلمين لا ينظرون الى أعمال خير الدين على أنها أعمال قرصنة وانما كانت نوعا من أعمال الجهاد فى البحر ضد القوى المسيحية فى شرق البحر المتوسط .

ومن الثابت أن فرسان القديس يوحنا على الرغم من أنهم كانوا لا يدفعون أية جزية للامبراطور شارل الخامس نتيجة استحواذهم طرابلس وغيرها ولم يتعد الأمر أكثر من الاعتراف بالولاء الا أنهم أحسوا أن طرابلس تكلفهم كثيرا وأخذوا يطالبون الامبراطور بمزيد من المساعدة لهم خاصة فى انشاء الاستحكامات فى طرابلس نظرا لتفاقم خطر الأتراك من ناحية وتفاقم الخطر الوطنى عليهم من ناحية أخرى . وأعتقد أن فيلا يعترف هذه المرة بما لاقاه الفرسان من متاعب من قبل السكان فى طرابلس ، على أن الامبراطور لم يستطع أن يجيب الفرسان الى مطالبهم على الرغم من السفارات التى بعثوا بها اليه بين عامى ١٥٣٩ — ١٥٤٣ وكذلك لم يستجب لهم البابا فى السفارة التى بعثوا بها اليه فى عام ١٥٤٧ — ولذلك بدأ الفرسان يفكرون فى التركز بقواتهم فى طرابلس ، وفى ذلك الوقت برز لافالت كزعيم للمنظمة فى جزيرة مالطة وكانت خطته تقوم على اخضاع طرابلس جميعها للفرسان باعتبارها مكانا صالحا للتمركز فى وسط البحر المتوسط وبدأ فرسان المنظمة بالفعل يضعون استحكامهم فى طرابلس ويحاولون تخليصها من التهديدات التى كانت تتعرض لها من قبل سنان باشا

ولكن سنان القائد البحرى التركى بمساعدة درغوث وهو مغامر بحرى ظهر فى طرابلس استطاعا خلال هذه الفترة هزيمة الفرسان واجبارهم على الانسحاب الى مالطة ، وعبثا حاول لافالت استعادة طرابلس فى الحملة الكبيرة التى بعث بها فى عام ١٥٥٩ بمساعدة فيليب الثانى ملك أسبانيا اذ ووجه بهزيمة شنيعة فى جربا فى عام ١٥٦٠ بل وصل الأمر الى حصار الأسطول التركى لجزيرة مالطة فى عام ١٥٦٥ ، بيد أن لافالت أبدى مقاومة باسلة فى تخليص الجزيرة من الأتراك العثمانيين الذين انسحبوا بعد مقتل درغوث خلال عمليات الحصار .

ومنذ ذلك العام صمم لافالت على أن يتخذ من مالطة مركزا لقوة الفرسان فى وسط البحر المتوسط وبالفعل قام بتحصين الجزيرة فى عام ١٥٦٥ واعادة بنائها من جديد وفيما بعد أطلق على عاصمتها اسم فالتا تمجيدا للدور الذى قام به فى هذا الصراع .

والدراسة الثالثة هى الدراسة التى قدمت فى تاريخ ليبيا الحديث وهى التى أعدها الأستاذ « عوض السعداوية » عن حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشى فى رحلته وهى دراسة توضح ما كانت عليه ليبيا فى خلال الحكم العثمانى فى القرن السابع عشر ، ذكر الباحث أن العياشى مر بليبيا مع ركب الحجاج فى رحلاته للحج وقد بلغت رحلاته ثلاث ، وبذلك يكون قد مر بليبيا ثلاث مرات وكانت ليبيا تخضع خلالها للوالى العثمانى عثمان باشا الساقزلى خلال مدة ولايته من ١٦٤٩ الى ١٦٧٢ — ويتفق ما أورده العياشى مع من سبقه من الرحالة فى وصفه لطرابلس من حيث تمتع المدينة بالرخاء والأمن وكثرة المساجد والمبانى ورواج كثير فى التجارة ، غير أن اشادته بازدهار طرابلس لم يتعد أسوار المدينة الى الخارج حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها وقد اعتمد الباحث فى دراسته على رحلة العياشى وهى تقع ، كما رجعت اليها ، فى مجلدين كبيرين كتبا بالخط المغربى الذى يحتاج الى متخصص لقراءته ، وقد استطاع الباحث أن يستخلص من وصف العياشى ، حالة المناطق التى مر بها فى ليبيا ، وعن حالة الولاية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فمن الناحية السياسية ، ذكر خضوع ليبيا لسلطة العثمانيين ، ولكنه أكد أن سيطرة العثمانيين كانت لا تتعدى المدن الساحلية الى الداخل ، وكانت طرابلس هى مقر الوالى العثمانى ، وله عامل فى كل من بنغازى ودرنة وبعض المدن الأخرى ذات الأهمية ، وعلى الرغم

من أنه كان هناك نظام للحكم فى المدن ، الا أن العياشى لم يذكر هذا النظام بالتفصيل ، أما فى الداخل فلم يكن للوالى العثمانى أية سلطة فعلية فمثلا : منطقة الجبل الأخضر لم يكن أهلها يخضعون لصاحب طرابلس خضوعا تاما ، وانما كانت القبائل تتنازع السلطة فى هذه المنطقة الى جانب اتاوة كان يفرضها صاحب أوجلة عليهم ، كذلك اقليم فزان لم يكن للعثمانيين أدنى سلطان عليه .

ومن وصف العياشى أمكن للباحث أن يستخلص حالة التأخر التى كانت عليها منطقة الجبل الأخضر ، كذلك اقليم برقة والمناطق الداخلية من طرابلس ، اذ كثرت عصابات قطاع الطرق الذين كانوا يستولون على ما يحمله الركبان والقوافل التى تمر بتلك المناطق ، ولم تنعم منطقة الجبل الأخضر بالاستقرار الا خلال فترة قصيرة استطاع فيها أحد الزعماء ويدعى « سيد روحة » من القضاء على قوة الأعراب ، ولكن هذه الفترة كانت بسيطة قصيرة أعقبتها فوضى شاملة حتى أن الحجاج والمسافرين الذين كانوا يمرون بليبيا كانوا يخشون من تلك المناطق التى تبدأ من قصر أحمد غربا الى الأسكندرية شرقا .

ويؤكد الباحث أن الفوضى لم تقتصر على الداخل بل أن بعض المدن كانت تنتابها الثورات من حين الى آخر ، ويستند فى ذلك على ما ذكره العياشى من ثورة درنة ، حينما ثار سكانها ، وكان أكثرهم من المغاربه ، وطردوا الأمير العثمانى ، وأن ما يذكره العياشى عن تلك الثورة وصعوبة قمعها ، انما يدل على سوء الادارة العثمانية دلالة واضحة .

ويفهم من كتابات العياشى أن الادارة العثمانية كانت تتمتع بشىء كبير من الحرية فى ادارتها لشئون البلاد ، ويعزى فى ذلك بعد المسافة بين مركز الادارة العثمانية فى استنبول ، والادارة العثمانية فى طرابلس ، مع صعوبة المواصلات فى ذلك الوقت كما تبرز أهمية كتاب العياشى أنه ذكر شيئا عن الجهاد البحرى ، وما يجنيه الليبيون والحكام من غنائم ، كما أن هذا الجهاد كان يلاقى تشجيعا من الحكام ، لأنه كان حركة ضد الفرنجة ، بل أن حكام طرابلس كانوا يستعدون له بالسفن القوية الضخمة .

وهناك بعض المعلومات التى أوردها العياشى ، خاصة بأوضاع ليبيا الاقتصادية ، سواء من ناحية زراعتها ، أو من حيث نشاط سكانها فى الصناعة

أو التجارة ، ومن ذلك أن العياشى مدح بعض الأراضى الليبية ، مثل أراضى جبل مسلاته ، والجبل الأخضر ، وذكر بعض الصناعات القائمة كصناعة الزيوت فى مسلاته ، وصناعة القرب ، الا أنه ذكر عنها أنها رديئة لا تحفظ الماء نقيا ، أما التجارة فقد أشاد العياشى بازدهارها كما مدح الجمال الطرابلسية ، وان كان لم يتعرض كثيرا لتجارة القوافل التى كانت تعد موردا هاما بالنسبة لاقتصاديات ليبيا فى ذلك الحين ، كما تحدث العياشى أيضا عن نظام الضرائب والمكوس ، وان كان للأسف لم يتعرض لذلك النظام بالتفصيل .

أما من الناحية الاجتماعية فقد قسم العياشى الشعب الليبى الى طبقتين ، من حيث مستواهما الثقافى . ووضعهما الاجتماعى : الطبقة الأولى من سكان المناطق العمرانية المأهولة بالسكان ، وهى على حظ من الثقافة الدينية والأدبية ، أما الطبقة الثانية ، وهى التى تسكن المناطق الداخلية ، وهى تتميز بالتنازع والتأخر الاجتماعى .

وأخيرا يصل الباحث الى النتيجة التى انتهى اليها من بحثه وهى أن العثمانيين عندما فتحوا ليبيا عام ١٥٥١ لم يسيطروا الا على بعض المناطق الساحلية ، بينما خرجت مناطق كبيرة فى الداخل عن سيادتهم واتخذت لنفسها طابعا خاصا فى حياتها ، وكان هذا الطابع يتميز بالفوضى ، مما أثر على المجتمع الليبى وما احتواه من تأخر ثقافى واجتماعى ، اللهم الا تلك الأعداد القليلة المثقفة التى كانت تعيش فى المدن ، والتى اشتغل بعض أفرادها بالتعليم الدينى والأدبى .

أما الموضوع الرابع من موضوعات تاريخ ليبيا الحديث ، الذى قدم الى المؤتمر ، فكان عن الظروف التى أدت الى احتلال على الجزايرلى لمدينة طرابلس الغرب (١٧٩٣ — ١٧٩٥) للأستاذ عمر بن اسماعيل ، المحاضر بالجامعة الليبية ، الذى تخصص فى دراسة الأسرة القرمانلية ، وأعد رسالة لدرجة الماجستير عن انهيار هذه الأسرة بليبيا (١٧٩٥ — ١٨٣٥) وقد أوضح فى الدراسة التى أعدها للمؤتمر الظروف التى أدت الى ضياع طرابلس من هذه الأسرة خلال سنتين ، تولى فيها على الجزايرلى الحكم ، ثم عادت الأسرة بعد ذلك الى الحكم من جديد ، حتى سقطت فى أيدى الدولة العثمانية فى عام ١٨٣٥ .

وقد بدأ الباحث بتمهيد مفصل عن وصول مؤسس الأسرة الى الحكم فى ليبيا ، ثم التخلخل والصراع الأسرى ، الذى أتاح لعلى الجزايرلى الوصول الى الحكم فى ليبيا ، وفرار أعضاء الأسرة القرمانلية الى تونس ، وقد رحب الديوان الطرابلسى بعلى الجزايرلى ، بعد أن سئم الليبيون حوادث العنف والفوضى .

والموضوع الذى يثيره الباحث أن الباشا الجديد وصل الى الحكم بالخديعة ، اذ أن السلطان العثمانى ، لم يكن يعلم بما حدث فى طرابلس ، وانما استخدم على الجزايرلى فرمانا مزورا للوصول به الى السلطة ، وقد استند الباحث فى ذلك على تقرير عثر عليه فى دار الوثائق التاريخية بطرابلس ، رفعه الصدر الأعظم الى السلطان العثمانى بخصوص أحداث استيلاء الجزايرلى على مدينة طرابلس ، وبدراسة هذه الوثيقة اتضح أن السلطان والصدر الأعظم كانا لا علم لهما بما قام به الجزايرلى ، وأن الفرمان الذى أبرزه الى الديوان كان فرمانا مزورا . وبعد أن اتضح للسلطان العثمانى حقيقة الأمر ، لم يقم بعمل أى شيء ، ولعل مرجع ذلك الى أن السلطان العثمانى كان لايهتم بأسماء الأشخاص الذين يتولون الحكم فى ولايته ، بقدر ما يهمه أن تبقى تلك الولايات خاضعة له حتى ولو كان ذلك من الناحية الشكلية ، ومسايرة لهذا المبدأ أصدر السلطان العثمانى فرمانا اعترف فيه بولاية على الجزايرلى ، كما أصدر أوامره الى والى تونس بالامتناع عن تقديم أية مساعدة عسكرية للقرمانليين الذين التجئوا اليه . ثم اتجه الباحث بعد ذلك الى دراسة الوضع فى طرابلس فى زمن ولاية الجزايرلى ، سواء من حيث الوضع الداخلى ، أو علاقة طرابلس بالدول الغربية ، أو بالأقطار المجاورة لها ، وخاصة تونس ، ففى الناحية الداخلية خيم على البلاد جو من الارهاب الشديد ، لم تعرف له البلاد مثيلا من قبل ، واضمحلت الناحية الاقتصادية ، كما اضطهد اليهود اضطهادا كبيرا كما أن العلاقات لم تسر فى وئام بين طرابلس والدول الأوربية ، وأخيرا دخل الباشا فى صراع بينه وبين باى تونس ، ويحتمل أن يكون زعماء طرابلس هم الذين دفعوه الى هذا العداء ، بهدف التخلص منه . وكان منشأ الخلاف بين الحاكمين ، مدينة جربة ، اذ حاول الجزايرلى استردادها من باى تونس ، ورد باى تونس على ذلك بفرقة عسكرية قادها أحد أفراد الأسرة القرمانلية اللاجئة فى تونس ،

وحاصر باى تونس بنفسه مدينة طرابلس ، فى الوقت الذى ووجه فيه الجزايرلى بثورة داخلية ، اضطر على أثرها الى مغادرة طرابلس فى ١٩ يناير سنة ١٧٩٥ ، وبانتهاء عهد الجزايرلى عادت من جديد الى حكم الأسرة القرمانلية ، اذ وصل يوسف باشا القرمانلى الى الحكم ، واستطاع أن يسجل لطرابلس عهدا من التقدم والازدهار لم تعرفه البلاد من قبل .

والموضوع الخامس من الدراسات التى قدمت للمؤتمر ، هو ملامح تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر ، للأستاذ مصطفى بعيو ، وزير التربية التعليم ، بالمملكة الليبية ، وقد استهل بحثه بأنه سيحاول اثارة بعض الجوانب البارزة فى تاريخ ليبيا فى (القرن ١٩) وأكد أن الجوانب التى سيثيرها يمكن أن يكون كل منها موضوعا للدراسة والتخصص فى الأقسام التاريخية ، اذ أن تاريخ ليبيا لا يزال يكشف فيه كل يوم شيئا جديدا والموضوع الأول الذى أبرزه هو علاقة يوسف باشا ، أبرز الولاة القرمانليين بالفرنسيين أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر عند مطلع (القرن ١٩) اذ نجح بونابرت فى توطيد علاقات الصداقة بينه وبين يوسف باشا ، وكانت أولى خطواته فى هذا السبيل هو اطلاق سراح الأسرى الليبيين ، مع غيرهم من أبناء الشمال الأفريقى . الذين وجدهم فى مالطة ، بعد أن تم له الاستيلاء عليها وهو فى طريقه الى مصر ، فكانت هـذه الخطوة بادرة طيبة من نابليون نحو يوسف باشا فى ليبيا ، والواقع أن نابليون كان يعمل على تهيئة المناخ الودى الصالح له فى الشرق ، وقد استفاد نابليون من هذه العلاقات الودية التى أوجدها مع والى ليبيا ، فعندما حوصر بجيشه فى مصر ، وانقطعت اتصالاته بفرنسا أمام الحصار الذى ضربه الأسطول الانجليزى على الشواطىء المصرية ، لجأ نابليون الى يوسف باشا ، ووجد فيه عونا فى أزمته، اذ سمح له باتخاذ ليبيا ممرا للاتصال بفرنسا ، وبالفعل استطاعت الحملة الفرنسية أن تتلقى بعض المعونات الأساسية من فرنسا ، عن طريق ليبيا وموانيها وقوافلها ، وأثار موقف يوسف باشا استياء كل من الدولة العثمانية والانجليز ، ولقد حاول السلطان العثمانى أن يجبر يوسف باشا على تجهيز قوة للهجوم على مصر من الغرب ، فى الوقت الذى كانت فيه القوات العثمانية تستعد للزحف عليها من الشرق ، وفى الوقت الذى كانت فيه البحرية البريطانية تستعد للهجوم من الشمال والجنوب ، كما طلب نيلسون قائد البحرية الانجليزية من يوسف باشا ، الكف

عن تقديم أية مساعدة للحملة الفرنسية ، واعتقال القنصل الفرنسى والحد من نشاط الجالية الفرنسية فى طرابلس ، وعمل نيلسون على احكام الحصار البحرى على يوسف باشا ، حتى اضطره فى نهاية الأمر الى الاستسلام ، وبالتالى منع تقديم أية مساعدة لرجال الحملة الفرنسية المحاصرين فى مصر ، ويرى الباحث أن الموقف الذى وقفه يوسف باشا القرمانلى فى بداية الأمر ، يفسر فشل الأسطول الانجليزى فى آحكام الحصار على الفرنسيين ، وهذا أمر لم يفسره الكثيرون ممن أرخوا لهذه الفترة ، كما يفسر أيضا اضطرار الفرنسيين الى التسليم عندما انقطعت الاتصالات بين فرنسا والحملة عقب الضغط الانجليزى على يوسف باشا ، ولكننا نختلف مع الباحث فى اتخاذه حوادث ثانوية لتفسير أحداث تاريخية كبيرة ، فلا شك أن انسحاب الفرنسيين من مصر أمر مرتبط بعوامل أبعد وأعمق من ذلك .

والموضوع الثانى الذى أثاره الباحث ، هو ربط المقاومة الوطنية التى تعرض لها نابليون فى زحفه من الاسكندرية الى القاهرة ، وبين النجدة التى ذكر أن أهالى ليبيا بعثوا بها الى مصر برئاسة رجل من أهالى درنة ، استطاع أن يثير حماس المشتركين فى المعارك ضد قوات نابليون الزاحفة ، بعد أن اعلن أنه المهدى المنتظر وأنه جاء لتخليص مصر من الغزاة .

والموضوع الثالث الذى تعرض اليه الباحث هو الخلاف الذى كان قائما بين يوسف باشا والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد حدث حول عدم الاتفاق على تقدير قيمة الجزية التى تدفعها الولايات المتحدة الأمريكية لحكام ليبيا ، حتى تضمن لنفسها حرية الملاحة فى البحر المتوسط ، ولما تعثرت المفاوضات كانت الحرب بين البحرية الليبية والبحرية الأمريكية ، واستطاع يوسف باشا أن يحرز بعض الانتصارات الأولية ، خصوصا عندما وقعت السفينة الأمريكية الكبيرة فيلادلفيا فى الأسر بطاقمها الكبير . الأمر الذى أغضب الولايات المتحدة وقد اعتمدت على أحد مغامريها وهو الجنرال ايتون Eaton فى استغلال النزاع الذى كان قائما بين يوسف باشا وأخيه أحمد باشا ، الذى لجأ الى مصر ، وبالفعل سار ايتون مع أحمد باشا فى الصحراء الغربية ، على رأس قوة كبيرة ، فى الوقت الذى كانت فيه البحرية الأمريكية تحاصر السواحل الليبية ، واستطاع ايتون أن يصل الى درنة ويرفع العلم الأمريكى عليها ، وكان هذا الحادث حافزا للولايات

المتحدة الأمريكية للاهتمام بتدعيم قوتها البحرية ، وقد سجلت البحرية الأمريكية هذا الحادث فى نشيدها الذى لا تزال تتخذه شعارا لها حتى اليوم .. ثم يعود الباحث الى التأكيد بأن انتصار الولايات المتحدة على ليبيا ، هو الذى أغرى الدول الأوروبية على ايقاف النشاط البحرى ، الذى كانت تزاوله بلدان الشمال الأفريقى ، بمقتضى قرارات مؤتمر فينا (١٨١٤ — ١٨١٥) وهو اتجاه آخر من الباحث للتركيز على أهمية الدور الذى كانت تقوم به ليبيا فى منطقة الشمال الأفريقى ، كما أكد على استقلال الشخصية الليبية فى العهد القرمانلى ، مستندا على الاتفاقية التى وقعت بين يوسف باشا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والتى لم تشترك فيها الدولة العثمانية على الاطلاق ، ومن الجوانب الهامة التى أثارها الباحث ، النفوذ الذى تمتعت به انجلترا لدى يوسف باشا القرمانلى بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، وقد قابل ذلك بالنفوذ الذى حظيت به فرنسا لدى محمد على والى مصر ، وان كان النفوذ الذى حظيت به انجلترا لدى الأسرة القرمانلية لم تستخدمه لحماية هذه الأسرة ، اذلعب وارنجتون ، القنصل الانجليزى فى طرابلس ، دورا كبيرا فى انهاء الحكم القرمانلى ، خاصة عقب استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، اذ قدر الانجليز أن هذا الحادث يمكن أن يخل بتوازن القوى فى البحر المتوسط ، اذا ما استطاعت فرنسا بالتعاون مع محمد على ، الاستيلاء على ليبيا ، ولذلك رأت انجلترا أن تسهل وقوع طرابلس فى أيدى العثمانيين خوفا من وقوعها فى أيدى محمد على ، أو فرنسا ، وأشار الباحث الى الوثائق التى يمكن أن يرجع اليها من يريد ، دراسة مشروعات محمد على فى ليبيا ، فالى جانب أرشيف قصر عابدين بالقاهرة ، توجد مذكرات محمد بك بيت المال ، الوزير الأول ليوسف باشا ، والتى توجد حاليا عند أسرة السيد على الفقيه حسن بطرابلس .

ثم عرض الباحث لمساهمة ليبيا فى حركة الكشوف الجغرافية الأفريقية فى القرن التاسع عشر ، تلك الكشوف التى كانت تتجه فى ذلك الوقت ، الى غرب القارة لتحقيق مشكلة اتجاه النيجر ، وقد وجد الرحالة والمستكشفون فى عهد يوسف باشا ، التشجيع والحماية الكافية ، واستخدموا من مدن ليبيا وموانيها نقطا للوصول الى الداخل ، بواسطة طرق القوافل التى كانت تربط الساحل بالداخل .

وأخيرا يختتم الباحث دراسته بظهور الحركة السنوسية فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويشيد بجهودها فى خلق ادارة محلية بزواياها وبنظامها الاخوانى ، ساعدت على حفظ الأمن وتوطيد العلاقات بين القبائل وتأمين تجارة القوافل ، وقد استطاعت ليبيا بفضل نشاط الحركة السنوسية أن تكون الدولة الحاجزة بين النفوذ البريطانى ، فى وادى النيل ، وبين النفوذ الفرنسى فى الشمال الأفريقى ، بعد أن احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، وامتدت منها جنوبا الى السودان مع وادى النيل ، وبعد أن فرضت فرنسا حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ، وأخذت تتوغل منها جنوبا الى الصحراء الكبرى ، فى اتجاه غربى شرقى بالنسبة للقارة الأفريقية ، وكان لابد لهذين الاتجاهين المتعارضين ، أن يتصادما فى النهاية ، وهو ما حدث فعلا فى أزمة فاشودة ١٨٩٨ ، التى كان من جرائها اثارة أزمة حادة بين الدولتين وبين هذين الاتجاهين المتصارعين ، ظلت ليبيا محتفظة باستقلالها ، وكانت تمثل آخر بقايا الدولة العثمانية فى الشمال الأفريقى ، وقد ساعد هذا الصراع على بقائها بمنجاة من الوقوع فى أيدى بريطانيا ، أو فرنسا ، وبالتالى تأجيل مصيرها ، واتاحة الفرصة لايطاليا للاستيلاء عليها فيما بعد .

أما الدراسة السادسة من دراسات التاريخ الحديث التى قدمت الى المؤتمر ، فهى الدراسة التى تقدمت بها بعنوان موقف مصر من الحرب الليبية الايطالية سنة ١٩١١ — ١٩١٤ ، وقد بدأت الدراسة بالتأكيد على الجهود التى بذلتها ايطاليا لايجاد مصالح لها فى ليبيا منذ السنوات الأولى من القرن العشرين ، وكانت ليبيا آخر الولايات العثمانية فى الشمال الأفريقى ، التى لم تسقط فى أيدى الاستعمار الأوروبى الذى أخذ يجتاح ولايات الدولة فى السنوات التى أعقبت مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، وقد استغلت ايطاليا اهمال الدولة العثمانية لشئون ولايتى برقة وطرابلس ، فى التأكيد على مصالحها فى هاتين الولايتين ، ولاشك أن الدولة العثمانية كانت مخطئة فى تقديرها بأن ايطاليا لن تجرؤ على احتلال ليبيا ، لأن انجلترا لن تسمح لها بذلك ، ولن تترك لها الفرصة التى تمكنها من تحقيق أطماعها ، حتى لا تثير عليها سخط العالم الاسلامى ، وقد كانت هذه الفكرة خاطئة فى تقديرنا لسببين :

الأول : أن حركة الجامعة الاسلامية أخذت تتراجع مؤقتا فى أعقاب الحركات الدستورية التى أخذت تجتاح العالم الاسلامى ، مع التسليم فى نفس الوقت أن العدوان الايطالى على ليبيا ، كان بعثا جديدا لحركة الجامعة الاسلامية . . والسبب الثانى : ان ايطاليا استطاعت أن تنال موافقه كثير من الدول الأوربية على احتلال ليبيا ، وبينما كان من الأجدى على الدولة العثمانية أن تشجع السنوسيين على حكم البلاد سارت على عكس هذه السياسة ، اذ اتجهت الى التضييق عليهم ، لخوفها من هذه الحركة وما قد تجره عليها من عداء مع الدول الأوروبية ، وبخاصة فرنسا ، التى كان السنوسيون مشتبكين معها ، بهدف ايقاف توسعها الأمبريالى فى غرب أفريقيا فى السنوات الأولى من ذلك القرن ، وعلى الرغم من أن الاحتلال الايطالى لليبيا ، حدث فى وقت بلغت فيه الموجة الامبريالية أقصى مدى لهـا ، فان كثيرا من المؤرخين يحملون الاتحـاديين ، مسئولية فقدان ليبيا ، وتفريط الاتحـاديين فى كثير من الأراضى العربيـة قد يكون موضوعا قابلا للمناقشة ، هل كان ذلك التفريط بقصد التنازل عن مناطق لا يمارس فيها الاتحاديون نفوذا فعليا نظير حصولهم على تأييد الدول الأوروبية ، أو اعانتها لهم فى أزماتهم المالية أو فى اصلاح شئون الدولة الادارية والعسكرية ، أم كان ذلك التفريط نتيجة لفساد رجال الدولة أنفسهم واستهتارهم ، خاصة حينما وصلت الى الصدارة العظمى ، وزارة ابراهيم حقى باشا ، اذ يعتقد الكثيرون ، أن حقى باشا كان متواطئا مع الايطاليين ، الذى ربطته بهم روابط عديدة أبرزها صـداقته لبعض الشخصيات الايطالية ، ثم زواجه من احدى الايطاليات ، وظهر ذلك واضحا فى اهماله شئون الدفاع عن الولاية ، فى الوقت الذى كان التهديد الايطالى لطرابلس بالغ الشـدة ، وفى ٢٨ سـبتمبر سـنة ١٩١١ ، وجهت الحكومة الايطالية انذارها الى الدولة العثمانية ، ونجح الأسطول الايطالى فى قطع المواصلات بينها وبين طرابلس ، وقد قدم المندوبان الليبيان فى مجلس المبعوثان طلبا لمحاكمة وزارة حقى باشا ، واتهامها بالخيانة العظمى ، لتركها طرابلس وبنغازى عاجزتين عن الدفاع ، ولكن حال دون هذه المحاكمة انتماء بعض أعضاء الوزارة الى حزب الاتحاد والترقى ، صاحب الأغلبية فى المجلس الذى اكتفى بسحب الثقة من الوزارة ، وحاولت الوزارة الجديدة معالجة الموقف فلجأت الى الدعاية فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، والحقيقة أن الدولة

العثمانية لقيت التفافا من الأقطار الاسـلامية ، ومن ولاياتها العربية ، حتى الولايات المنشقة عليها .

أما فى مصر فقد كان للحرب التركية الايطالية أثر بالغ فى السياسة المصرية ، ولذا رأينا تسهيلا للدراسة تقسيم موقف مصر من هذه الحرب الى عدة أقسام :

أولا : موقف سلطات الاحتلال والحكومة المصرية .

ثانيا : موقف الخديو عباس حلمى الثانى .

ثالثا : موقف الشعب المصرى .

كما تعرضنا لأهم المشكلات التى أثيرت فى بداية الحرب ، والتى كان أبرزها مسألة مرور الجيش العثمانى فى مصر ، اذ حاول الوطنيون استغلال ذلك لتأكيد سيادة الدولة العثمانية على مصر دفعا لتسلط الانجليز .

أما الموقف الذى اتخذه اللورد كتشنر ، المعتمد البريطانى فى مصر ، والذى وصل الى منصبه ، فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه الحرب ، فقد كان يمثل وجهة النظر الانجليزية ، التى كانت ترحب بالاحتلال الايطالى لليبيا ، على اعتبار أنه يساعد فى ايجاد دولة عازلة فى طرابلس ، تمثلها ايطاليا لتعزل بين الانجليز فى مصر ، والفرنسيين فى تونس ، كما أن فرض الحماية الفرنسية على مراكش ، استتبعه ترحيب انجلترا بالاحتلال الايطالى لليبيا ، بعد أن أقدمت فرنسا على قلب ميزان القوى فى منطقة البحر المتوسط ، ولذلك اعترض الانجليز على مرور القوات العثمانية ، أو اتخاذ الـدولة العثمانية مصر قاعـدة لمحاربة الايطاليين ، على الرغم من أن مصر كانت تعتبر أصلح قاعدة للعمليات العسكرية ضمن الغزو الايطالى لطرابلس ، ويستدل من الوثائق التى تناولناها ، أن ايطاليا كانت تخشى بحكم حرج مركز الانجليز فى العالم الاسلامى من ناحية ، وفى مصر من ناحية أخرى ، أن يسمح الانجليز للقوات العثمانية بالمرور من مصر ، ولكن الدوائر البريطـانية نفت ذلك نفيا قاطعا وأبدى السير ادوارد جرى ، وزير الخارجية البريطانية رأيه فى الموقف بأنه لا يمكن لبريطانيا أن تسمح لبلدة خاضعة لاحتلالها ، أن تكون مسرحا لعمليات عسكرية ، وأعلنت انجلترا وقوف مصر على الحياد من هذه الحرب ، على الرغم من تأجج الحماس الوطنى فى مصر تأييدا للدولة العثمانية ، وقد حاول المصريون رغم ظروف الاحتلال استمالة

الحكومة المصرية ، الوقوف الى جانب الدولة ، مستخدمين فى ذلك جميع الوسائل كما حفلت الصحافة الوطنية بالأسانيد القانونية ، كما طالبوا بارسال المدد والذخيرة من مصر الى طرابلس ، ومقاطعة المصالح الايطالية ، وضرورة اجلائهم عن البلاد ، وبينما كانت الحكومة البريطانية تتخذ هذه السياسة على المستوى الدولى ، الا أنها كانت على المستوى الشعبى ، تعمل على تشجيع حركة التبرعات المادية والعينية لنجدة الدولة العثمانية ، لأنها كانت تخشى فى حالة تعرضها للشعور العاطفى بشأن دولة الخلافة الى مساس بوضعها ، ليس فى مصر فحسب ، وانما فى مستعمراتها الاسلامية الأخرى وقد تعرضت أيضا لمدى تأثر الحركة الوطنية بالحرب الطرابلسية ، فالمصريون كانوا يرون فى ضياع مصر ، ضياعا لآمالهم فى الاستقلال ، وأن دفاعهم عن طرابلس ، هو فى نفس الوقت دفاعا عن مصر ، وعلى الرغم من آراء لطفى السيد التى ظهرت فى ذلك الوقت فى مقالاته المشهورة « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » الا أن هذه الآراء لم تحد من اندفاع الوطنيين بل اضطر لطفى السيد نفسه الى الاحتجاب فترة عن الحياة السياسية فى مصر ، كما عنيت فى هذه الدراسة بالتركيز على أن مساعدة المصريين للدولة العثمانية فى الحرب كان تأكيدا للشعور الروحى ومحاولة استغلال الموقف للصالح الوطنى ، فضلا عن تأكيد علاقات الجوار والأخوة بين مصر وليبيا ، أما عن الخديو عباس حلمى الثانى ، فقد وقف مترددا ، ففى البداية سهل ارسال الاعانات والبعثات الى المجاهدين فى ليبيا ، ولكن على أثر تحول الحرب لصالح الايطاليين عقب توقيع معاهدة لوزان ، تغير موقفه تبعا لذلك ، بل ان ايطاليا حاولت استغلاله للواسطة بينها وبين السنوسيين ، وفى تنازله لها عن سكة حديد مريوط ، اذ أنها كانت تخشى من استخدام هذا الخط فى تسهيل ارسال الامدادات الى ليبيا ، وأخيرا أنهيت هذه الدراسة بأنه على الرغم من جميع الصعوبات والمعوقات التى واجهها الشعب المصرى لنجدة اخوانه الليبيين ، سواء من قبل سلطات الاحتلال أو من موقف الخديو والحكومة المصرية ، الا أن دور الشعب كان واضحا فى التطوع فى صفوف المجاهدين ، وفى تأسيس جمعيات الهلال الأحمر ، وفى دعوة الوطنيين الى القضية الليبية فى المحافل الدولية ، وفى مقاطعة المصالح الايطالية فى مصر ، ونشر المقالات الحماسية فى الصحف ، على أنه بعد اعلان الحرب العالمية الأولى وما تبعها من فرض

الحماية البريطانية على مصر (سنة ١٩١٤) تدخل الحرب الليبية الايطالية فى طور جديد ، اذ أحكمت انجلترا اغلاق الطريق المصرى كما طبقت الأحكام العسكرية واستبدلت المأمورين المصريين على الحدود بضباط انجليز ، كما حدث تحول هام ، اذ حاولت الدولة العثمانية الاعتماد على الليبيين فى محاربة الانجليز فى مصر ، وهذا الموضوع عنى به السير دنكان كمنج فى بحثه عن السنوسية فى الحرب العظمى الأولى ، وكانت هذه الدراسة خاتمة للدراسات التى قدمت فى تاريخ ليبيا الحديث ، كما كانت ختاما لجلسات المؤتمر فى الوقت نفسه ، والسير دنكان كمنج كان يعمل حاكما لولاية برقة عند طرد القوات الايطالية ، واحلال الادارة الانجليزية فى تلك الولاية عام ١٩٤٣ ، وقد أشار كمنج بأن الحرب العالمية الأولى كان لها تأثير كبير فى مناطق مختلفة من العالم ، فحينما أعلنت الحرب فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، كان الليبيون فى حرب ضد الايطاليين بقيادة السيد أحمد الشريف السنوسى ، وقد قام هؤلاء بتأييد الحاميات التركية فى برقة وطرابلس ، وأبلوا بلاء حسنا ، وأن المقاومة الباسلة التى قام بها السكان العرب فى ليبيا أثبتت عدم صحة اعتقاد الايطاليين بأن احتلالهم لليبيا لن يكون أكثر من نزهة حربية أو مجرد اجراء عسكرى شكلى .

وقد قسم الباحث الفترة من الغزو الايطالى لليبيا فى اكتوبر سنة ١٩١١ الى نشوب الحرب العالمية الأولى ، الى مرحلتين هامتين .

المرحلة الأولى : وتشمل نزول القوات الايطالية طرابلس .

المرحلة الثانية : حينما وقعت الدولة العثمانية ، معاهدة لوزان بينها وبين ايطاليا حول نهاية عام ١٩١٢ ، وانسحاب الوالى التركى من طرابلس تبعا لذلك .

وفى خلال المرحلة الأولى كان الليبيون يحاربون الى جانب القوات التركية وكانت الزوايا السنوسية تقوم بدور كبير فى سير القتال ، وترتب على هذه المقاومة أن الايطاليين لم يتمكنوا من التقدم بسهولة ، الى أبعد من الأماكن التى نجحوا فى السيطرة عليها ، وقد استطاع بعض الضباط الأتراك أن يصلوا الى برقة عبر مصر ، من أمثال أنور باشا ، حيث عملوا على تدريب الليبيين وتهيئتهم للقتال ، وقد جذبت المقاومة العربية أنظار المسلمين فى كافة الأقطار الاسلامية ،

بل الى بلاد أخرى خارج نطاق العالم الاسـلامى ، ولكن اضطرت الدولة العثمانيـة ، على الرغم من التأييد المـادى والمعنوى الذى حصلت عليه ، الى توقيع الصلح مع ايطاليا نظرا لانشغالها بمشكلاتها المتعددة .

ويعتقد كمنج أن الحرب البلقانية كان السبب الذى جعل الأتراك يوقعون الصلح مع ايطاليا ، وليس فى النجاح الذى حازته العمليات العسكرية الايطالية ، وفيما يبدو أن الطرفين ، ايطاليا وتركيا ، كانا على استعداد لتقديم تنازلات لانهاء حالة العداء بينهما ، فتركيا كانت مستعدة للانسحاب من ليبيا بشرط أن لا تقطع الصلات القائمة بين ليبيا وبين الخلافة الاسـلامية ، أما ايطاليا فانها أعلنت سيادتها على ليبيا ، وفى أكتوبر سنة ١٩١٢ ، بعد توقيع معاهدة لوزان أو معاهدة أوشى كما عرفت ، بذلك تبدأ المرحلة الثـانية من المقـاومة الليبية التى تميزت بانسحاب القوات التركية ، وتمكن الايطاليون من طرابلس ، وحول عام ١٩١٥ اصبحت المعاقل الرئيسية فى فزان فى حوزة الايطاليين ، وان كان الوضع قد اختلف بالنسـبة لبرقة ، فقبل توقيع معاهدة لوزان بوقت قصير ، كان السيد أحمد الشريف السنوسى ، قد نقل مراكزه من الكفرة الى الجغبوب ، ويعلل السير دنكان كمنج السبب فى ذلك ، الى أنه أراد أن يكون على مقربة من العمليات العسكرية ، فضلا عن أهمية جغبوب بالنسبة للنظام السنوسى ، وأيضا أنه يمكن أن يتم الاتصال بينها وبين مصر ، لأن مصر على الرغم من ظروف الاحتلال الانجليزى ، الا أنها قدمت مساعدات للسنوسيين أكثر من جيران طرابلس الآخرين ، وقبل أن يغادر أنور باشا برقة ليشترك فى الحرب البلقانية ، فى اكتوبر سنة ١٩١٣ ، وصل الى جغبوب كى يحرض السيد أحمد الشريف على مواصلة القتال ، ولكن حينما قابل السـيد أحمد الشريف ، لم يجده فى حاجة الى تحريض ، فقد كانت الرسائل من جغبوب تحمل خاتم « الحكومة السنوسية » ، وعندما أوشـكت الحرب العالمية على الاندلاع ، كان الايطاليون قد نجحوا فى السيطرة على الموقف نتيجة لتعرض الليبيين لقلة الأمطار ، وتفشى الأوبئة والطاعون ، ومع ذلك فقد استمر تصميمهم قائما ، وفى يولية سنة ١٩١٤ ، قابل الوكيل الايطالى فى القاهرة اللورد كتشنر ، وأكد له فى هذه المقابلة أن ايطاليا ستقوم بعملية عسكرية كبيرة ضد السنوسيين اذا فشلت فى الحصول على تفاهم معهم ، وعقب اعلان الحرب أصبحت المشكلة

الهامة بالنسبة لليبيين ، هل ستنساق تركيا وايطاليا فى هذا الصراع ؟ ولو حدث ذلك فالى أى جانب ينحازون ؟ ولما كان من هدف السنوسيين طرد القوات الايطالية من ليبيا ، فان هذا كان يعنى ارغام الجيش الايطالى على الجلاء عن المناطق الساحلية الحصينة ، التى استقرت بها القوات الايطالية ، وأصبح من الضرورى فى نظر الليبيين ضرورة التطلع الى القوة التى ستتحالف مع تركيا ، وبهذه الطريقة يمكن طرد الايطاليين من بلادهم .

ولما كانت هناك مجموعتان من القوى الأوروبية فى الفترة السابقة لنشوب الحرب ، وهما دول الوفاق الثلاثى (روسيا — بريطانيا — فرنسا) ودول التحالف الثلاثى (المانيا — النمسا — ايطاليا) ، ولما كانت ايطاليا قد جددت تحالفها مع ألمانيا والنمسا فى السنة السابقة لنشوب الحرب ، فقد كان من المعتقد أنها ستنحاز الى دول الوسط ، وعلى هذا الأساس يمكن أن تتعرض ايطاليا للهجوم من مصر وتونس فى آن واحد ، وأن تصادر الامدادات المرسلة الى القوات الايطالية فى ليبيا بواسطة الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى البحر المتوسط . أما موقف تركيا فقد كان موقفا غامضا على الرغم من أن الحوادث كانت تشير الى رغبة تركيا أن تحتفظ بحيادها خلال ذلك الصراع الأوروبى ، ولكن ينبغى أن يلاحظ أن موقف ليبيا كان أكثر سوءا فى حالة انضمام ايطاليا الى دول الوسط ، اذ أنها ستعد فى هذه الحالة من أراضى العدو ، خاصة بعد أن أصدر السلطان فرمان بتعيين السيد أحمد الشريف حاكما على ليبيا ، وفى نوفمبر سنة ١٩١٤ ، أعلنت الحرب بين تركيا وبريطانيا ، ولكن الحرب بين ايطاليا وتركيا ، أو الحرب الجديدة بين تركيا وايطاليا تأخرت حتى أغسطس ١٩١٥ ، وفى الفترة من نوفمبر ١٩١٤ ، الى أغسطس سنة ١٩١٥ ، كانت الحوادث فى طرابلس قد شجعت أعمال المقاومة العربية ، فحول نهاية أغسطس ١٩١٤ ، حينما حدث الهجوم الألمانى على فرنسا ، استطاع أتباع السنوسية فى فزان تحطيم القواعد الايطالية ، وهذا الحادث يؤرخ بداية عملية المقاومة التى بذلت خلال الحرب ، والتى نتج عنها اضطرار الايطاليين ، خلال عام واحد الى الانسحاب من جميع الأماكن التى احتلوها فى فزان وطرابلس أيضا ، وأن كان الايطاليون قد تمكنوا فى خلال العام التالى من استرجاع مراكزهم فى طرابلس ، والتمركز بقواتهم فى كل من بنغازى ودرنة وطبرق ، كما تركزت القوات الايطالية فى

المناطق الداخلية كالمرج وبنينة ، ومع بعض المكاسب التى استطاع السنوسيون احرازها الا أن السيد أحمد الشريف كان مواجها ببعض المشكلات فى شرق برقة ، حيث كان مقيما بها خلال هذه الفترة ، وكانت خطة تركيا هى توثيق الصلات بين السلطان وأتباعه العرب ، وايجاد حالة من المعارضة ضد بريطانيا ، بين المسلمين عامة ، وليس فقط فى مصر والهند ، وعلى هذا الأساس أعلن السلطان العثمانى الجهاد أو الحرب المقدسة ، ولكن اعلان الجهاد لم يكن له أى تأثير فى مصر ، بعد اعلان الحماية البريطانية عليها ، وقطع العلاقات بينها وبين تركيا ، وركز الأتراك على السيد أحمد الشريف باعتباره قادرا على ايجاد حالة موائمة لهم غرب مصر ، فى الوقت الذى كانوا يقومون فيه بالهجوم على قناة السويس من فلسطين وسيناء ، وفى الحقيقة أنه فى خلال هذا الوقت بالذات قدم أنور باشا تعهدات سرية لايطاليا على أساس أن يعمل الأتراك على عقد الصلح بين الايطاليين والسنوسيين ، حتى يتمكن الجيش السنوسى من التفرغ للجبهة الغربية ، وكانت الدولة العثمانية تعتقد أن السيد أحمد الشريف ، يمكن أن ينال المساعدة العسكرية من أتباع السنوسية فى مصر وأن يحرض على قيام ثورة ضد الانجليز ، وحول بداية عام ١٩١٥ ، نقل السيد أحمد مراكزه من جغبوب الى مساعد ، التى تقع على مقربة من الحدود المصرية وميناء السلوم الذى كانت تحتله قوات مصرية انجليزية ، وحول ذلك الوقت ، وصل كل من أنور باشا وجعفر العسكرى الى مساعد ، حيث عملا على تنظيم الجيش السنوسى على نمط الجيوش الحديثة ، وقد عرف هذا الجيش باسم المحافظية ، وكان من المنتظر أن تتألف قوة المحافظية من ١٦ فرقة ، وتتكون من خمسة ضباط وأربعمائة جندى و٣٥٠ جمل ، وكانت هذه الفرق مشكلة من القبائل الليبية ، ثلاث فرق من العبيدات ، وواحدة من كل من قبائل الحسة — دورسا عواقير ، عرفه ، مينيفا ، بارسا . وأربعة من أولاد على فى مصر ، وفرقتان من السودانيين ، وواحدة من الطلاب ، ويعتقد كمنج أن المحافظية كان ينقصها العدد الكافى والامدادات المستمرة ، فلم يكن فى الواقع سوى جمل واحد لكل عشرة أفراد ، ولم يكن لديها سوى تسعة من الأسلحة الثقيلة ، ويرجع السبب فى قلة العتاد ، الى حصار الحلفاء ومصادرتهم وسائل التموين التى حاولت الدولة العثمانية أن تبعث بها الى جيش المحافظية ، وعلى الرغم

من القصور الواضح فان المحافظية كانت كافية لأن تسبب قلقا بالغا للانجليز فى مصر ، الذين كانوا يوجهون اهتمامهم الى حملة الدرنيل ، لكن السيد أحمد ، لم يستطيع أن يصل الى قرار نهائى بشأن عبوره الحدود المصرية وانما أبقى على اتصلاته مع كبار الأعيان فى مصر ، ومع الضباط الانجليز فى الجيش المصرى ، الذى كان يدعوهم الى زيارته بين آونة وأخرى ، وبواسطتهم تمكن من ارسال عدد من الرسائل الودية الى قائد الجيش الانجليزى فى مصر ، ورسائل تهنئة الى السلطان حسين كامل ، عقب وصوله الى العرش ، خلفا للخديو عباس حلمى الثانى ، وفى نهاية أكتوبر ١٩١٥ ، كتب أحد الضباط الانجليز ، بعد زيارته (لمساعد) يؤكد أن السيد أحمد ، لا يزال مترددا فى اتخاذ قراره ، على الرغم من أنه كان من الواضح فى ذلك الوقت بأن الحلفاء يحاولون غزو الدردنيل ، وكانت هناك آراء مختلفة حول القيادة السنوسية ، وهذه الآراء تعكس وجهات النظر التركية ، التى كانت ترغب فى أن تستمر فى الحرب ضد الايطاليين والانجليز ، وكان السيد ادريس السنوسى ، فى ذلك العام غائبا عن ليبيا ، ولكنه صمم على أن يذهب الى مصر فى خلال عودته ، وبالفعل وصل الى الاسكندرية من حيفا فى بداية عام ١٩١٦ ، وأصبح فى يقينه أن الغزو السنوسى لمصر لن يصادف نجاحا ، والى جانب ذلك فان السيد ادريس السنوسى ، كان يميل الى وضع نهاية للحرب ، وكان يقدر مدى ما تحمله الشعب الليبى من متاعب بالغة ، ولكن لم يلبث أن حدث توتر على الحدود فى خريف عام ١٩١٥ ، حينما وصلت الحرب العظمى الى ذروتها فى كل من أوروبا والعراق والدردنيل ، ونظر الانجليز الى الموقف نظرة حذرة ، لأنهم كانوا يعلمون أن الخطة التركية تستهدف الهجوم على قناة السويس ، فى الوقت الذى تهاجم فيه حدود مصر الغربية من ناحية ليبيا ، وتأكد ذلك كمايذكر السير كمنج ، عندما حاصرت احدى السفن الفرنسية فى يونية ١٩١٥ ، سفينة تركية كانت فى طريقها الى برقة ، حاملة معها ضابطين تركيين وخمسة آلاف جنيها ذهبيا ، وزيا موحدا لجيش المحافظية ، ورسالة من السلطان الى السيد أحمد الشريف ، يؤكد له فيها تعيينه واليا على ليبيا مع تعليمات خاصة تقضى بتشجيعه على مهاجمة جيوش الحلفاء .

وفى نهاية يونية سنة ١٩١٥ ، حدث هجوم من المحافظية على السلوم ، ويؤكد كمنج أن هذا الهجوم حدث دون أمر من السيد الشريف السنوسى ، بل أنه عاقب المسئولين عن وقوعه ، ولم تلبث بعد ذلك أن حدثت أحداث أخرى من سوء التفاهم ، حينما أطلق السنوسيون النيران على سفينة بريطانية ، وأخذ من بها أسرى الى بير حكم ، وقد بعث القائد البريطـانى فى مصر برسالة احتجاج الى السيد أحمد على هذا العمل ، وقد أجابه بأن الهجوم على السلوم لم يحدث بموافقته ، وفى نوفمبر سـنة ١٩١٥ ، حدث هجوم المحافظية على السلوم بتحريض من أنور باشا ، وانسحبت القوات البريطانية الى مرسى مطروح، ولكنها تمكنت من مهاجمة المحافظية فى العقاقير جنوب سيدى برانى ، وتمكنت من القبض على جعفر باشا العسكرى ، وفرقت الجيش السنوسى ، وأعادت احتلال السلوم فى مارس سنة ١٩١٦ ، حيث انسحب السيد أحمد الى سيوة ، ثم استقر به المطاف أخيرا الى تركيا حيث بقى هناك حتى وفاته ، وكان السيد أحمد قد تنازل عن جميع سلطاته العسكرية والسياسية ومسئولياته الى ابن عمه السيد محمد ادريس السنوسى ، الذى بدأ قيادته الطويلة فى عام ١٩١٦ ، وكان السيد ادريس ، يرغب فى السلم ولكن نورى باشا ، والقيادة التركية كانت لا تزال ترغب فى الحرب ، الى جانب الذين بقوا من جيش المحافظية ، وكان هؤلاء يعارضون بطبيعتهم السيد ادريس ، بل انهم ذهبوا الى طرابلس لكى يتصلوا بالقادة الطرابلسيين فى مصراته .

أما فى طرابلس فقد كانت الأحداث تسير بوضع مخالف لما كانت تسير عليه فى برقة ، اذ وصل أنور باشا الى مصراته بعد هزيمة الأتراك فى برقة ، وفى عام ١٩١٧ ، دعى الطرابلسيون الادريس ، لكى يتسلم قيادة الأمور فى طرابلس أيضا ، والمهم أن الادريسى ايمانا منه بضرورة اقرار الوضع فى ليبيا ، وربما تقديرا منه للموقف ، بدأ مفاوضاته فى الزويتينه جنوب بنغازى مع الانجليز والايطاليين ، وقد صاحب بعثة التفاوض الانجليزية بعض الأعيان المصريين ، الذين كان يعرفهم الادريس معرفة شخصية ، ولكن هذه المفاوضات تعثرت ، فأعيدت فى عكرمة على مقربة من طبرق فى العام التالى ، حيث تم تبادل الأسرى السنوسيين والايطاليين واتفاقية عكرمة لها جزئين : الأول ، للتطبيق السريع ، والجزء الثانى لمفاوضات مقبلة مع السلطات الايطالية ، ويختلف الادريس عن

السيد أحمد الشريف ، فى أنه عقد المعاهدة كمفاوض عن ليبيا ، وليس عن السلطان العثمانى ، وفيما يبدو أن الايطـاليين كانوا متأثرين بمبادىء ولسن الأربع عشرة . . فاعترفوا باستقلال ليبيا ، مع ابقاء مصالحهم الاقتصادية بها ، وأخيرا أنهى السير دنكان كمنج دراسته بمقارنة الدور الذى لعبته السنوسية فى الحرب الأولى بدورها فى الحرب العالمية الثانية ، وأبدى تقديره لصـلابة الشعب الليبى وتماسكه ، نتيجة للقرارات التوحيدية التى أصدرها السيد ادريس السنوسى خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم قراره الأخير بتوحيد المملكة الليبية .

اسم الكتاب :	Oman, A History
اسم المؤلف :	By Wendell Philips
	London, 1968

لعل وندل فيليبس يضيف فى كتابه هذا اضافة جديدة للمصادر التى تعرضت لداخلية عمان ، وهو يشابه فى ذلك چيمس موريس فى كتابه الذى أصدره قبل ذلك بسنوات بعنوان « سلطان فى عمان » . ولكن وندل فيليبس يدين برأى آخر وهو الأخذ بوجهة نظر السلطنة بالنسبة لسيطرتها على عمان الداخلية .

والمؤلف بحكم وظيفته مستشارا اقتصاديا لسلطان مسقط وبحكم جنسيته أيضا يتخذ هـذا الرأى ويبديه فى فصلين هامين من كتابه وهما الفصـل السابع الذى يعرض فيه الى مشكلة البوريمى والفصل الثامن الذى يتعرض فيه الى ثورة الجبل الأخضر .

وفى كلا الفصلين يؤكد سيطرة السلطنة على البوريمى وداخلية عمان ويتخذ موقفا معارضا للسـعودية فى تأييدها لثـورة الامامة وفى ادعاءاتها على واحات البوريمى داحضا بذلك جميع ما قدمته السعودية من أوله ومفندا ما قدمته شركة الزيت العربية الأمريكية من تأكيدات لصالح السعودية وذلك فى الأبحاث التى نشرتها خاصة بذلك .

والكتاب على الرغم من أننا لا نستطيع أن نسلم بوجهـة نظر مؤلفه التى يظهر فيها اتخاذه جانبا واحداً فضلا عما يتعمده من تضخيم شأن حادثة أو التهوين من شأن أخرى مما يجعل كتاباته تحتاج الى تحقيق فى وقائعها المختلفة الا أن الكتاب مع ذلك يعد فى تقديرنا الخاص واحداً من الدراسات الهامة عن تاريخ عمان اعتمد فيه على عدد كبير من المصادر الأولى ويزيد من أهمية ذلك رحلاته الكثيرة الى عمان الداخلية التى أفرد لها مؤلفا خاصا نشره فى عام ١٩٦٧ بعنوان Unknown Oman

وينقسم الكتاب الى تسعة فصول ، شملت الفصول السبع الأولى مسحا عاما لتاريخ عمان وعلاقته بشرق افريقية . فقد عالج فى الفصل الأول تاريخ عمان القديم قبل ظهور الاسلام ثم عمان فى العهد الاسلامى ، وهذا الفصل قد يهم بصفة خاصة المهتمين بالتاريخ الاسلامى بالنسبة لأحد أقاليم الجزيرة العربية . وقد ركز فى هذا الفصل على تزعم عمان حركة المعارضة ضد الدولتين الأموية والعباسية وظهور هذه المعارضة فى شكل حركتين سياسيتين دينيتين لقيتا انتشاراً كبيراً فى عمان وهما الحركة الأباضية التى قدر لها أن تلعب دوراً هاما فى تاريخ عمان القديم والحديث وحركة القرامطة التى امتدت من البحرين الى عمان وان كانت لم تصب قدراً من النجاح مثلما أصابته الحركة الأولى . وفى هذا الفصل يركز المؤلف أيضا على اقليم ظفار ويبدو من تأكيده على تاريخ الاقليم فى أكثر من فصل من فصول الكتاب أنه جزء لا يتجزأ من عمان . ولعله يتعمد ذلك مناهضة للدعوة التى ظهرت فى الأونة الأخيرة بشأن ضم ظفار الى جمهورية جنوب اليمن المستقلة حديثا .

أما الفصل الثانى فقد عالج فيه المؤلف الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا وقد عنى بصفة خاصة بتتبع مراحل انشائها مشيرا بصدد ذلك الى الهجرات العربية على الساحل الشرقى لافريقيا ومعتمدا على كتابات المصنفين العرب التى يفهم منها مدى ما كان عليه العرب من تفوق ملاحى وتجارى فى المحيط الهندى ، وان كان غزو البرتغال فى نهاية القرن الخامس عشر قد أطاح بهذا التفوق . وقد استمر البرتغاليون القوة المسيطرة فى الخليج وشرق افريقيا حتى بداية القرن السابع عشر حينما بدأوا يتعرضون لتحديات قوية من قبل الهولنديين والانجليز بالاضافة الى أن قوتهم الذاتية تعرضت للاضمحلال وأصبح المجال ميسرا للامام ناصر بن مرشد الذى أسس الأسرة اليعروبية لطرد البرتغاليين من عمان ، ثم يكمل خليفته سلطان بن سيف الدور الذى قام به فى التخلص من بقايا السيطرة البرتغالية فى الخليج وشرق افريقية .

ثم ينتقل المؤلف فى الفصول التالية الى تأسيس أسرة البوسعيد وهى الأسرة التى خلفت أسرة اليعاربة فى الحكم عارضا بصفة خاصة لأقوى حكامها سعيد بن سلطان أو ما أسماه سعيد الكبير اذ أفرد له فصلا خاصا معتمدا فيه على مؤرخى سيرته من العرب والسواحليين والأوربيين ويتفق مع هؤلاء فى أنه كان واحدا

من أهم الشخصيات التى أنجبتها الجزيرة العربية منذ عهد النبى . ويؤكد بصفة خاصة على الدور المجيد الذى قام به بشأن التشريعات التى أصدرها للحد من تجارة الرقيق فىالممتلكات التابعة له ، وان كنا نجد تحاملا واضحا من المؤلف على القسوة والعنف التى أدان بها التجار العرب بالنسبة لمعاملتهم لارقائهم اذ رسم صورة كئيبة لوسائل تعذيبهم ولأسواق الرقيق التى كانت منتشرة فى كل من مسقط وزنجبار . ولذلك فقد أثنى على السيد سعيد تعاونه مع الانجليز للحد من تجارة الرقيق على الرغم من أنه كان يعد أكبر تاجر رقيق فى عصره ، وقد استمرت التجارة قائمة فى الشرق الافريقى حتى أوائل القرن الحالى وان كان ذلك على نطاق محدود وغير رسمى .

ولم يكن ما تميز به سعيد بن سلطان من السجايا الانسانية قاصرا على الحد من هذه التجارة البشعة وانما تميز الرجل بسماحته واستنارته ، وكان ذلك عونا لدفع عمليات التبشير والارتياد الأوربى اذ تحققت فى عهده عدة اكتشافات جغرافية هامة كاكتشاف الأوربيين لجبال كينيا وكليمنجارو والبحيرات الاستوائية ، كما اشتهر فى عهده المبشر لوديج كرايف الذى يقترن اسمه بترجمة الانجليل الى اللغة لسواحلية .

ويمضى الكتاب بتتبع تاريخ عمان بعد انفصاله عن زنجبار حتى يركز على الحدثين الهامين اللتين شهدتهما عمان فى الآونة الأخيرة وهما المشكلة الخاصة بالبوريمى ثم انفجار ثورة الامامة الأباضية فى عمان الداخلية .

وكما سبق أن ألمحنا فى بداية عرضنا للكتاب أن المؤلف يأخذ وجهة نظر السلطنة من ذلك تأكيده أن اتفاقية السيب المؤرخة فى عام ١٩٢٠ والتى ارتكزت عليها الامامة فى مرحلتها الأخيرة كانت اتفاقية بين حكومة السلطان تيمور وبين ثمانية عشر من الشيوخ الثائرين فى الداخل ، ولا تعنى اطلاقا أنها تربط خلفاء السلطان تيمور بها وهذا الرأى سبق لنا أن ناقضناه فى بعض دراساتنا .

أما البوريمى فيؤكد المؤلف خضوعها لعمان استنادا على الأصول التاريخية التى تربط الاقليم بعمان . ويبدو من كتاباته اعتماده فى جانب كبير على تفنيد عرض الحكومة السعودية للتحكيم فى تسوية النزاع الاقليمى بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية وهى مجلدات ثلاث قدمتها الحكومة

السعودية فى عام ١٩٥٥ لمحكمة العدل الدولية عند مناقشة المشكلة فى ذلك العام ، وأخذه بوجهة نظر المذكرة البريطانية المقدمة من قبل الحكومة البريطانية معارضة للادعاءات السعودية .

ويؤكد وندل فيلبس بصدد ذلك على تبعية البوريمى لعمان منذ العصور الاسـلامية وعن استقرار قبيلة النعيم التى هاجرت من اليمن الى البوريمى فى النصف الأول من القرن السادس عشر وعن ارتباط البوريمى بعمان خلافا لبعض الفترات التى تعرضت فيها الواحة للمناوشات السعودية عقب انتشار الدعوة الوهابية بين سكانها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الى أن خضعت الواحة لحكومة مسقط فى عهد امامة عزان بن قيس ١٨٦٨/ ١٨٧١ . ولم يلعب السعوديين دورا يذكر فى تاريخ الواحة من ١٨٦٩ حتى ١٩٥٢ باستثناء بعض الفترات التى قام بها عبد الله بن جلوى الحاكم السعودى فى الاحساء بارسال عملائه لجباية الزكاة .

ويذهب المؤلف فى رأيه أن تضخم مشكلة البوريمى ترجع الى تصادم المصالح الاقتصادية فضلا عن أن المشكلة ظهرت فى وقت ما فى صورة صراع بين القومية العربية وبين الامبريالية خاصة وأن اذاعة القاهرة لعبت دورا بارزا خلال هذه الأزمة .

أما دراسة فيليبس لثورة الجبل الأخضر ، فاعتقادنا الشخصى بصرف النظر عن نوازع المؤلف أو أراءه فيما يختص بهذه الثورة ، انها تضيف اضافة جديدة للمتتبعين لتاريخ الامامة خاصة وأن اهتم اهتماما كبيرا بتفصيل الصراعات الداخلية بين الهناوية والنافرية وبعض رؤساء المقاطعات العمانية كسليمان بن حمير وصالح بن على ... هؤلاء الذين كانوا — كما يقول المؤلف — يأملون فى استغلال الموقف لتحقيق ملك مستقل عن الامامة والسلطنة معا .

وقد ذيل المؤلف كتابه ببعض الملاحق أهمها قيام الثورة فى زنجبار فى ديسمبر سنة ١٩٦٣ التى أدت الى انهيار وضع سلطنة زنجبار وقيام الجمهورية ، ولعله

تعرض لهذه الثورة باعتبارها انهياراً لأحد فرعى أسرة البوسعيد على الرغم من تسليمه بأن الصلة قد انقطعت بين الفرعين تماما منذ تحكيم كانتج عام ١٨٦١ .

كما وضع المؤلف دراسة للارساليات التبشيرية فى شرق افريقية والجزيرة العربية وقد ركز بصفة خاصة على الدور الذى قام به المبشر الأمريكى صمويل زويمر Zwemer فى عمان وبعض امارات الخليج العربى . وقد عنى بصدد ذلك بتحليل أسباب نجاح عمليات التبشير فى شرق افريقية وأسباب فشلها فى الجزيرة العربية باعتبارها كانت ــ ولا تزال ــ مهد للاسلام .

د. جمال زكريا قاسم

G. G. Lorimer

The Gazetteer of the Persian Gulf,
Oman & Central Arabia

Calcutta, 1915

الترجمة العربية بعنوان :

دليل الخليج
ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر

الدوحة ١٩٦٧/١٩٦٨

أخرج المكتب الثقافى بديوان حاكم قطر الترجمة العربية للقسم التاريخى من كتاب لوريمار ، وقد صدرت الترجمة العربية بعنوان دليل الخليج تحاشيا من النص على عنوان الكتاب الكامل الذى يعرف بدليل الخليج (الفارسى) عمان وأواسط الجزيرة العربية .

وبمناسبة صدور هذه الترجمة رأينا أن نعرض لهذا المصدر الهام من مصادر الخليج والتعريف به وبالموضوعات التى تناولها . والجدير بالذكر أن الترجمة العربية لم تراع الشكل العام للكتاب اذ جاءت فى سبعة مجلدات فى حين أن الأصل الانجليزى يتكون من مجلدين كبيرى الحجم يحتويان على ما يقرب من ٢٧٠٠صفحة والهدف واضح من اخراج الكتاب فى عدة مجلدات وهو سهولة تداول أجزائه المختلفة والملاحظ أيضا أن الترجمة العربية اقتصرت على اخراج القسم التاريخى للدليل اذ أن هناك الى جانب القسم التاريخى قسما جغرافيا يعرض للنواحى الجغرافية ويظهر فى شكل معجم جغرافى للمنطقة التى تعرض لها الدليل بالوصف، والدراسة .

وأملنا بعرضنا للقسم التاريخى لدليل الخليج التنويه بالاختيار الموفق لترجمة هذا المصدر وبالتالى بالجهد الذى بذله المترجمون لاخراجه بالصورة التى وصلت الينا . ولسنا هنا فى معرض ابداء الملاحظات على الترجمة العربية للكتاب ولكن من الانصاف أن نذكر أنها تبدو فى اطارها العام وبانطباعنا عنها ترجمة علمية وان كان يلزم اعادة تحقيق بعض الأسماء والمواقع والرجوع بها الى أصولها

الصحيحة ، ونرجو أن نتوفر فى مناسبة أخرى على مطابقة الترجمة العربية على الأصل الانجليزى للكتاب بشىء من التفصيل .

وقد صدرت الترجمة العربية حديثا (١٩٦٧/١٩٦٨) وطبعت على نفقة الشيخ أحمـد بن على آل ثانى حاكم قطر . وقد حرص المترجمون فى صـدر كل مجلد من المجلدات التى تم نشرها على التأكيد بأن ما ورد ذكره فى الكتاب لا يلزم حكومة قطر بشىء وانما هو تعبير عن آراء المؤلف الشـخصية ، وان ما دفع الى ترجمة الدليل تقديمه هدية من حاكم قطر الى الباحثين فى تاريخ الخليج العربى .

وليس هناك خلاف فى أن الدليل يعـد أهم مرجع لتاريخ الخليج العـربى والجزيرة العربية خاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ويستمد هـذا المصدر الهام صفة الرسمية أنه وضع بتكليف من حكومة الهند وكانت منطقة الخليج تتبع هذه الحكومة فى كل شأن من شئونها . أما الدافع لوضع هذا الدليل هو توزيعه على الادارات المختلفة والموظفين الرسميين العاملين فى حكومة الهند للتعرف على ما يهمهم من مناطق الخليج من زواياها السياسية والجغرافية والقبلية، بمعنى أن الكتاب حين أصدرته حكومة الهند فى كلكتا بين عامى ١٩٠٨ و ١٩١٥ لم يكن للتداول العام ولذلك لم يطبع فى ذلك الوقت الا بأعداد قليلة ولم تتجاوز نسـخه المـائة . وبقى الدليـل يعتبر فى حكم الوثائق لم يتجـرد من سريته الا فى السنوات الأخيرة حينما أذنت الحكومة البريطانية بنشره بعد أن انقضت المدة القانونية التى تفرضها الحكومة البريطانية فيه على وثائقها الخاصة .

وعلى الرغم من أن دليـل الخليج ينسب تأليفه الى ج . ج لوريمـار أحد المسئولين فى حكومة الهند ، الا أن هذه الموسوعة الضخمة لا يمكن أن تكون من اعداد فرد واحد والذى لا شـك فيه أن فريقا من الباحثين والسياسـيين والعسكريين عاونوا لوريمار فى تجميع المعلومات الخاصة بالدليل وقد أشار اليهم بالفعل كما سـنرى . والأحرى أن تكون الصياغة النهائية من وضـع لوريمار لمـا نلاحظه من تجانس الأسلوب والارتباط بين الموضوعات المختلفة .

ويعزى اصدار هذا الدليل الى اللورد كيرزون نائب الملكة فى الهند الذى أصدر أوامره فى عام ١٩٠٣ بجمع المواد الخاصة بوضع دليل جغرافى تاريخى للخليج وعمان وأواسط الجزيرة العربية . ويحتمل أن يكون كيرزون قد أصدر

أوامره هذه بعد زيارته المشهورة التى جاب فيها سواحل الخليج فى ذلك العام . وكان لوريمار مصاحبه فى تلك الزيارة . والهدف من اعداد الدليل تجميع معلومات يمكن أن يستفيد بها المسئولون فى وقت اشتدت فيه أهمية الخليج السياسية والعسكرية وتعرضت بريطانيا لخطر التنافس من قبل الدولة العثمانية وفرنسا وروسيا والمانيا .

وفى العام التالى ١٩٠٤/١٩٠٥ قام لوريمار بجولة خاصة فى سواحل الخليج رافقه فيها بعض الموظفين والضباط فى حكومة الهند من أمثال المستر ج . س جاسكين Jaskin والليفتنانت C. H. Gabriel من أجل جمع المعلومات الخاصة . وقد زار لوريمار كل من مسقط وصحار والشارقة والبحرين والكويت وبغداد وكربلاء ثم عرج على السواحل الفارسية فى المحمرة وبوشهر وبندر عباس وجاسكه وفى نفس الوقت قامت بعثة من حكومة الهند برئاسة السير جانج بعمليات مسح جغرافى فى بعض مناطق الخليج نجحت بعدها فى وضع خرائط تفصيلية لجزر البحرين ولامارة الكويت وما جاورها وشبه جزيرة بوشهر واقليم عمان . كما استعين فى وضع الدليل بالجهود السابقة التى بذلت سواء بهدف اعداد الدليل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من ذلك رحلة السير برس كوكس المعروفة الى اقليم عمان التى قام بها فى عام ١٩٠١ وتمكن من أن يتحصل على معلومات خاصة باقليم الظاهرة وعمان الداخلية وكذلك جولته فى ساحل الخليج من مسقط الى أبو ظبى [١] . كذلك رحلات الكابتن نوكس Knox الذى كان يعمل وكيلا سياسيا فى الكويت فى بداية القرن العشرين .

وينبغى أن نؤكد هنا أن المعلومات أو الاستكشافات التى قام بها الانجليز فى المناطق المجهولة فى شرق الجزيرة العربية لم تكن استكشافات جديدة وانما الثابت أن معظم ما تحصل عليه هؤلاء كان يتم عن طريق الوطنيين من أصحاب البلاد .

وكما أشرنا أن الترجمة العربية صدرت فى سبعة مجلدات فى حين أن الأصل الانجليزى يتكون من جزئين احداهما جغرافى والآخر تاريخى . ويتضمن القسم التاريخى الأبواب التالية .

---

(١) Cf. Cox (Perly)
Overland Journey from the Persian gulf to Muscat, Geog. Journal October, 1902 Vol. XX No. 4
Some excursions in Oman, Geog Journal Vol. LXIV No. 3 Sept., 1915

التاريخ العام لمنطقة الخليج ــ تاريخ سلطنة عمان ــ تاريخ ساحل عمان ــ تاريخ قطر ــ تاريخ البحرين ــ تاريخ الحسا ــ تاريخ الكويت ــ تاريخ شبه وأواسط الجزيرة ــ تاريخ العراق التركى ــ تاريخ الساحل الايرانى وجزره ــ تاريخ مكران .

ثم يعرض الكتاب بعد ذلك عدة ملاحق خاصة بكل ما يتعلق بمنطقة الخليج من نواحيها المناخية والجيولوجية والملاحية الى جانب الديانات والطوائف المختلفة والارساليات التبشيرية وتجارة الأسلحة والرقيق ومراكز البرق والبريد الى جانب ايرادة الأنساب الخاصة بكثير من الأسر التى ظهرت الى السلطة كاليعاربة والبوسعيد فى عمان وزنجبار والقواسم فى الشارقة والأسر الحاكمة فى كل من أبو ظبى والدبى وأم القوين وعجمان ولنجه وقطر والبحرين والكويت وآل سعود وآل رشيد وآل أبى الخير وقبيلة سبيع والقادرية فى البصرة هذا الى جانب الخرائط المختلفة التى تخدم الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

ولم تختلف الترجمة العربية عن هذا التقسيم الا فى توزيعها الموضوعات المشار اليها على المجلدات السبع التى صدرت بها وقد وردت بالشكل التالى :

المجلد الأول ويطابق الباب الأول من النص الانجليزى ويتناول التاريخ العام لمنطقة الخليج منذ وصول البرتغاليين الى مياهه فى بداية القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين وتشمل هذه الفترة التنافس الاستعمارى الأول فى منطقة الخليج ١٥٠٠/١٨١٠ الذى اشتركت فيه عدة دول أوربية كالبرتغال ــ هولندا ــ انجلترا ــ فرنسا وانتهت بتأكيد السيطرة البريطانية . وقد عنى هذا المجلد بصفة خاصة بالمصالح البريطانية وتطورها فى المنطقة منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية ١٦٠٠ وعلاقتها بايران ثم اصطدامها بالمصالح الفرنسية والروسية الى جانب التنازع العثمانى الانجليزى فى الفترة من ١٨٧١ الى ١٩٠٥ فى كل من العراق والخليج واصطدام بريطانيا بالسياسة الألمانية التى كانت تهدف الى تحقيق مصالح خاصة بها من وراء خط سكة حديد بغداد . وقد استطاعت بريطانيا أن تقضى على هذه المنافسات وتأكيد نفوذها مرتكزة على الجهد الذى بذلته فى عمليات المسح والحراسة وفرض الأمن على سواحل الخليج وعقد المعاهدات مع اماراته المختلفة .

أما المجلد الثانى ويطابق الباب الثانى والثالث من النص الانجليزى فيختص بتاريخ سلطنة عمان ابتداءا من حكم العثمانيين ١٥٦٦ وعلاقة سلطنة عمان بكل من الدولة العثمانية وفارس والهند وأواسط الجزيرة العربية ويعرض بصدد ذلك الى ظهور الحركة الوهابية وانتشـــارها فى أقاليم عمان فى الظاهرة والبوريمى ومن المفيد عرض لوريمار الفريد لتاريخ اقليم ظفار بشكل لا نجده متوافرا فى أى مصدر آخر الى جانب عرضه لمعاهدات بريطانيا مع قبائل وزعماء الساحل العمانى.

والمجلد الثالث ، ويطابق الباب الرابع والخامس والسادس والسابع يشمل تاريخ قطر والبحرين ووسط الجزيرة والكويت والحسا .

أما المجلد الرابع ويطابق الباب الثامن ، فيتعرض فيه للعراق الذى أسماه بالعراق التركى ويشمل جانبا عاما من تاريخ الولاة العثمانيين فى بغداد والبصرة وعلاقتهم بالنفوذ الانجليزى والفرنسى والروسى الى جانب علاقة العراق بجيرانه فى ايران ونجد والكويت .

وأخيرا البلد الخامس ويطابق الباب العاشر والحادى عشر فيتناول فيه تاريخ الساحل الايرانى والجزر الفارسية وسواحل مكران .

وتبرز أهمية دليل الخليج من اعتماد واضعيه على عدد كبير من المصـــادر العلمية والرسمية من ذلك التقارير والمراسلات التى كانت تتلقاها شركة الهند من موظفيها فى الوكالات التابعة لها فى بندر عباس وبوشهر والبصرة وما يعرض من أحداث فى المناطق الموجودة بها تلك الوكالات . وقد جمعت مختارات من هذه التقارير فى مجلد أصـــدرته حكومة بومبـــاى فى عام ١٨٥٦ وصـــدر بعنوان

Selection from the Records of the Bombay government Vol. XXIV

وتناول هذا المجلد تقارير عن السياسة البريطانية وقبائل الخليج من العتوب والقواسم وغيرهم كتبها المقيمون السياسيون فى الخليج حتى عام ١٨٥٣ .

كما يظهر اعتماد الدليل على جانب كبير من مختارات المستر ج . سالد انها من أوراق الدولة فى بومباى عن شركة الهند الشرقية وعلاقتها بالخليج وهى تتناول أحداث الخليج فى الفترة من ١٦٠٠ الى ١٨٠٠ :

Selections from state papers, Bombay, regarding the East Indio Company's connexions with the Percian Gulf. 1600 — 1800

الى جانب الاعتماد على تقارير السفارات والبعثات السياسيـــة المختلفة ، بالاضافة الى المصادر العلمية الاولى وأبرزها كتاب لو Low عن تاريخ البحرية الهندية ومجموعة معاهدات أيتشيسون Aitchison ، وكتابات الرحالة الاوربيين سواء كانوا من موظفى شركة الهنـــد الشرقيـــة أو من غيرهم من أمثال الرحالة الدانيماركى كارشتن ينبور الذى يعتبر أول من فتح الجزيرة العربية للارتيـــاد الأوربى وتعتبر رحلاته خير مرجع عن الجزيرة العربية والخليج العربى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر .

وكذلك رحالة القرن التاسع عشر من أمثال بكنجهام Buckingham وولستر Wellested وبالجراف Palgrave وغيرهم كثيرون . ومن الواضح أيضا استعانة لوريمار عند وضـــع هذا المؤلف الضخم بكافة التقارير والمعلومات السرية التى وضعتها حكومة الهند تحت تصرفه . كما أنه أعين بعـــدد لا بأس به من الخبراء لانجاز هذا العمل التاريخى الجغرافى الضخم وان كان ما يؤخذ على لوريمان رغم تقريره الحقائق فى أحيان كثيرة أن النزعة البريطانية الاستعمارية كانت تغلب عليه شأنه فى ذلك شأن غيره من الانجليز الذين تعرضوا لدراسة تاريخ الخليج فى القرن التاسع عشر ، من ذلك تصويره بنى جلدته الانجليز أنهـــم حاملوا أمن وسلام وتصويره القبائل العربية التى تصدت لمقاومة الانجليز قراصنة كذلك تصويره لأى حركة من حركات الوحدة فى الخليج على أنها اعتداء من قبل الدولة التى تقوم بها كما حدث بالنسبة لمصر والسعودية .

على أنه كان منصفا الى حد كبير فى تصويره ظواهر العداء للسياسةالبريطانية فى منطقة الخليج فى أنها كانت تبدو حقيقية تمليها مشاعر دينية أو ثورية أصيلة وان كانت هذه المشاعر قد صعب معرفتها وسط ركام ما كان يقذف به المكتبالاسلامى فى وزارة الخارجية الفرنسية فى فترة حمى فيها التنافس الانجليزى الفرنسى فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرنالعشرين. كما يشير لوريمان أيضا الى المقالات العدائيـــة للسياسة البريطانية فى منطقة الخليج وشمال شرق الجزيرة العربية التى كانت تظهر فى جريدتى اللواء والمؤيد اللتين تخصصتا فى نشر العداء ضـــد السياسة البريطانية . وان كان يشك فى أن أصحاب تلك الجرائد كانت تحرضهم سلطات الأستانة . ومع ذلك فينبغى التجاوز عن نظرة لوريمان

الاستعمارة اذا ما أخذنا فىاعتبارنا أن هذا الدليل وضع أساسا لمصلحة المستعمرن الانجليز .

أما القصور الواضح فى الدليل فيتضح فى عدم رجوعه الى المصادر العربية الخاصة بالجزيرة العربية واعتماده التام على المراجع والوثائق المقـدمة اليه من حكومة الهند . وقد يكون من الانصاف الاشارة الى رجوع لوريمان الى بعض المصادر العربية المترجمة الخاصة بتاريخ عمان وربما أعانه على ذلك أن هذه المصادر قد حققت ونشرت باللغة الانجليزية وأهمها كتاب « كشف الغمه الجامع لأخبار الأمة » للشيخ سرحان بن سعيد الذى قام الكولونيل روس A. C. Ross بترجمة جزء منه تحت عنوان Annals of Oman ونشر فى عام ١٨٧٤ ويرجع هذا الكتاب بأحداث عمان الى عام ١٧٢٨ ، كذلك ترد اشارات من جانب لوريمار الى كتاب حميد بن رزيق المعروف بالفتح المبين فىسيرة السادة البرسعيديين وهو الذى ترجمة الدكتور بادجر ونشره مع مقدمة تحليلية فى عام ١٨٧٢ بعنوان « تاريخ أئمة وسادة عمان » . History of Immams and Seyyids of Oman

وانتهى به الى عام ١٨٧١ على حين أن الأصل العربى يقف عند عام ١٨٥٦ وسواء كان هناك قصور أو اتجاه معين للدليل فانه سيبقى على الرغم من ذلك منبعا لا ينضب للباحثين فى تاريخ الخليج وأواسط الجزيرة العربية . مما يجعلنا نرحب بصدور الترجمة العربية للكتاب وبالجهود التى بذلت لاعدادها ، وان كنا مع ذلك فى حاجة الى جهد من نوع آخر يفيدنا فى محاولة سد الثغرة الكبيرة فى تاريخ الخليج والتى نجمت عن اعتماد الباحثين ــ عرب وأجانب ــ على المصادر الأجنبية فى حين أن هناك حقائق ذات أهمية بالغة تنطوى عليها صفحات تاريخ الخليج لا تزال مجهولة للباحثين . ولعل اصدار الترجمة العربية للدليل تكون فاتحة خير لاهتمام حكومات الخليج بجمع التراث التاريخى الخاص بالمنطقة ، بما يتضمنه ذلك من تسجيل للروايات المحلية وتجميع للوثائق والمستندات وتسهيل عرضها للباحثين . وحتى الآن لم تظهر الا مجهودات مفرقة لجمع المادة المحلية ونشير بصدد ذلك الى الجهد الذى قام به جورج رنتز رئيس شـــعبة البحث بشركة الزيت العربية الأمريكية فى تجميع بعض الروايات المحلية وتحليلها ، واعتمد فى جانب منها على الكتاب الذى أصدرته شعبة البحث بعنوان « عمان والساحل الجنوبى

للخليج الفارسى » وكذلك فى كتاب آخر بعنوان « المناطق الشرقيـة لمقاطعة الاحساء » . وكما توارد الى علمنا أن أحد المهتمين بتاريخ الكويت وهو « سيف مرزوق الشملان » يبذل محاولة لتجميع الروايات المحلية من أفواه المعمرين . وعلى الرغم من أن هذه الطريقة لا تستقيم مع منهج البحث العلمى التاريخى الحديث الا أنها فى تقديرنا تعتبر ضرورة حتمية فى بعض المناطق التى أهملت فيهـا ، لظروف مختلفة ، الكتابة التاريخية أو المحافظة على المستندات والوثائق الخاصة بها ، غير أنه لا بد مع ذلك من اخضاع الروايات المحلية الى مراحل دقيقة من التحليل ومطابقتها على غيرها من روايات مشابهة وازالة مابها من مبالغة وتوضيح مابها من تصور حتى يمكن الوصول بها الى مستوى يفيد الباحث من الرجوع اليهـا .

أما الوثائق والمستندات العربية التى فى حوزة الدوائر العربية فى الخليج فتحتاج الى تجميع وتنظيم حتى يمكن تحقيق الاستفادة منهـا وبالتالى انجاز دراسات أكثر أهمية وذلك بعرض وجهتى النظر العربية والأوربية ، وهو أمر تفتقر اليه الأبحاث والدراسات التى صدرت عن تاريخ الخليج حتى وقتنا الحاضر باستثناء الأجـزاء التى وضعها حسين خلف الشيخ خزعل عن تاريخ الكويت السياسى اذ أشار فيها الى مقتطفات من الوثائق العربية الأصلية وان لم يعرضها بشكل علمى فضلا عن أنه لم يشر الى المصادر التى نقل عنها .

أما الجزء الأول من كتاب تاريخ الكويت الذى أصدرته لجنة تاريخ الكويت والذى وضعه الدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمه فعلى الرغم من أنه قرر فى مقدمته أنه خالف جميع الباحثين الذين تعرضوا لكتابة تاريخ الخليج فى اعتماده على المصادر العربية الا أننا لا نجده مع ذلك يشير الا الى المصادر العربية المألوفة التى يعرفها كل باحث فى تاريخه الخليج والجزيرة العربية .

د . جمال زكريا قاسم

اسم الكتاب : **رحلة طاغور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى**
المؤلف : **بيرو طاغور**
ترجمة وتقديم : **دكتور حسن حبشى**
الناشر : **دار المعارف ١٩٦٨**

هذا فضل آخر يضفه الدكتور حسن حبشى الى المكتبة العربية صاحب هذه الرحلة « بيرو طافور » تغلغل فى أسغاده بين عامة الشعب التى لا تكاد نسمع عنها شيئا فى المصـــادر التاريخية المعاصرة والحوليات التى تكون — غالبا — « قد دونت تحت دوافع معينة » ، كما يؤكد المترجم — وبحق — فى مقدمته للترجمة العربية .

ولقد استغرقت رحلة هذا « القرطبى » ما بين ١٤٣٥ و ١٤٣٩ م ، تنقل خلالها بكثير من البلدان الأوروبية ومصر ، كما كانت لديه الجرأة لأن يصر على زيارة السلطان العثمانى مراد الثـــانى فى عقر داره ، الذى رحب به وأكرم وفادته . وقد سجل طاغور كل ما وقعت عليه عيناه وأحسه بوجدانه « مع أن هذا الوجدان كان بسيطا بل ساذجا فى أكثر من موضع » . واهتمام هـــذا الرحالة فى الدرجة الأولى منصب على النواحى الاجتماعية والاقتصادية لأهل عصره ، غير أنه يتعرض لكثير من الأمور الدقيقة فى الجوانب السياسية ، ومن قبيل ذلك ما جرى بين « مجمع بازيل » وبين البابا يوجين الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) الذى خلفه المجمع (الفصل الحادى عشر) . وهناك معلومات طريفة وقيمة عن القاهرة والاسكندرية لا نكاد نعرف عنها الا من كتابات طاغور . وللرجل براعة فريدة فى فن المزاح والمداعبة تشد القارىء الى صفحات رحلته من ألفها الى يائها .

لم يقيض لرحلة طاغور أن ترى النور الا فى سنة ١٨٧٤ عندما قام الأديب الأسبانى Marcos Temerez بنشرها لأول مرة باللغة الأسبانية ، ورغم الاهتمام المجزوء بها منذ ذلك الحين لم تظهر لها سوى ترجمة واحدة كاملة باللغة الانجليزية قام بها مالكولم ليتس فى ســـنة ١٩٢٦ . أما الترجمة الكاملة الثانيـــة فهى ترجمة الدكتور حسن حبشى هذه .

ولعل من أمتع ما تحويه هذه الترجمة العربية — فى رأيى — ملحق الحواشى الذى يشغل ما بين صفحتى ٢٥٩ ، ٢٨٢ ، ويبلغ عددها ١٨٤ حاشية ، تناول فيها المترجم تحقيق وتوضيح من المعميات التى ذكرها طاغور فى رحلته . كما قدم الدكتور للقارىء أهم المصادر والمراجع التى يمكن الرجوع اليها للاستزادة العلمية عن هذا الموضوع أو ذاك .

وقد صدر المترجم ترجمته بامضاء لطافور من وثيقة محفوظة فى أرشيفات قرطبة ، كما ضمن الكتاب ثلاث لوحات أخر هى : خريطة كتلانية للعالم سنة ١٣٧٥ ؛ مبارزة من حولية هولندية ترجع الى أواخر القرن الخامس عشر ؛ ثم لوحة تمثل الامبراطور يوحنا الثامن باليولوغوس فى كنيسته قصر ريكاردى بفلورنسا .

هذا مجهود يستحق كل الاعجاب والتقدير .

د. اسحق عبيد

الرسائل الجامعية

استدراك :

جامعة القاهرة

كلية الآداب

درجة الماجستير :

ـ الحكم المصرى فى بلاد العرب
اعداد : عبد الحميد محمد البطريق   اشراف : الأستاذ محمد شفيق غربال ـ ١٩٤٣

معهد الدراسات العربية العليا

التاريخ الحديث .

ـ الوحدة العربية بين فكرة انشاء الدولة الموحدة ونظام جامعة الدول العربية
اعداد : أحمد طرابين   اشراف : الأستاذ محمد شفيق غربال ـ ١٩٥٧

ـ المطامع الانجليزية فى الجنوب العربى
اعداد : عبد الحميد عثمان   اشراف : د. عزة النص ـ ١٩٥٩

ـ المسألة المغربية (١٩٠٠ ـ ١٩١٢)
اعداد : محمد خير فارس   اشراف : الأستاذ محمد شفيق غربال ـ ١٩٦٠

ـ الترك والعرب فى العهد العثمانى (١٩٠٨ ـ ١٩١٤)
اعداد : توفيق برو   اشراف : الأستاذ محمد شفيق غربال ـ ١٩٦٠

ـ اليمن فى عهد الامام يحيى
اعداد : السيد مصطفى سالم ـ اشراف : د. أحمد عزت عبدالكريم ـ ١٩٦٢

ـ مركز التزويد فى الشرق الأوسط ودوره فى التوجيه الاقتصادى العربى
اعداد : فتحى محمد الميز   اشراف : محمد محمود الصياد ـ ١٩٦٣

ـ الدولة السعودية الأولى
اعداد : عبدالرحيم عبدالرحمن ـ اشراف : د. أحمد عزت عبدالكريم ـ ١٩٦٩

ـ الحجاز فى القرن الثامن عشر
اعداد : على معتوق عبد الله القط   اشراف : د. صلاح العقاد ـ ١٩٦٩

وفيما يلى نوالى نشر بيان الرسائل الجامعية الجديدة التى لم تنشر فى العدد السابق للمجلة

جامعة القاهرة

كلية الآداب

أولا : درجة الماجستير :

التاريخ الاسلامى والعصور الوسطى

— السلطان الملك الصالح « نجم الدين أيوب » ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م
اعداد : محمد محمد أمين علي اشراف : د. السيد الباز العرينى — ١٩٦٨
— الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين
اعداد : زبيدة محمد عطا اشراف : د. السيد الباز العرينى — ١٩٦٩

التاريخ الحديث .

— العلاقات الأردنية البريطانية ١٩٢٢ — ١٩٣٦
اعداد : حسن عيد على ريان اشراف : د. محمد احمد انيس — ١٩٦٨
— الدولة السعودية ١٨٤٠ — ١٨٩١
اعداد : عبدالفتاح حسن أبوعليه — اشراف : د. محمد احمد انيس — ١٩٦٨

جامعة عين شمس

كلية الاداب

التاريخ الاسلامى والعصور الوسطى

— العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس فى القرنين الثانى والثالث الهجرى
اعداد : عبد الجليل عبد الرضا — اشراف : د. حسن حبشى — ١٩٦٨
— كتاب اعلام الورى بمن ولي نائبا عن الأتراك بدمشق الكبرى لابن طولون الصالحى الدمشقى
اعداد : عبد العظيم حامد اشراف د. حسن حبشى — ١٩٦٨
— الوزارة — نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية
اعداد : توفيق سلطان اليوزبكى اشراف : د. حسن حبشى — ١٩٦٨
— الحسبة فى المغرب مع بعض نصوص خاصة بها
اعداد : اقبالموسى بن علاوة — اشراف : د. عبدالهادى شعيرة — ١٩٦٨
— تاريخ مخطوطة ذيل تاريخ دول الاسلام للسخاوى ٨٥٠ — ٨٩١ هـ
اعداد : احمد عبد الله الحسو اشراف : د. حسن حبشى — ١٩٦٨
— قيام دولة الموحدين
اعداد : مراجع عقيله غنامى اشراف : د. حسن حبشى — ١٩٦٨
— علاقات الدولة الحمدانية بالدول الاسلامية المجاورة
اعداد : احمد محمد محمد عدوان اشراف : د. حسن حبشى — ١٩٦٨

ثانيا : درجة الدكتوراه :

جامعة القاهرة

كلية الآداب

التاريخ الاسلامى والعصور الوسطى :

– طرق التجارية الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى
اعداد : نعيم زكى فهمى – اشراف : د. سعيد عبدالفتاح عاشور – ١٩٦٨

– التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية فى العراق فى العصر البويهى
اعداد : محمد حسين عبد الزبيرى – اشراف : د. محمد جمال الدين سرور – ١٩٦٨

التاريخ الحديث :

– الكنيسة والحركات القومية الحديثة فى شرق افريقيا منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية
اعداد : يوسف عبده يوسف اشراف : د. محمد أحمد أنيس – ١٩٦٨

– العلاقات بين أمريكا وليبيريا ١٨٢١ – ١٩٠٩
اعداد : وهبى غبريال وهبى اشراف : د. محمد أحمد أنيس – ١٩٦٨

– الاتفاق العثمانى ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا وأثره فى تطور السودان السياسى والاقتصادى فى الخمسة والعشرين سنة التالية ١٨٩٩ – ١٩٢٤
اعداد : عبدالفتاح عبدالصمد – اشراف : د. محمد أحمد أنيس – ١٩٦٨

– السياسة البريطانية فى السودان وأثرها فى العلاقات المصرية السودانية ١٨٩٩ – ١٩١٤
اعداد : ابراهيم شحاته حسن اشراف : د. محمد أحمد أنيس – ١٩٦٨

كلية دار العلوم

التاريخ الاسلامى :

– الأوضاع الاقتصادية فى العراق والمشرق ٣٣٠ – ٤٥٠ هـ
اعداد : محمد على حيدر اشراف : د. محمد ضياء الدين الريس – ١٩٦٩

ملخصات

للرسائل الجامعيـــة الجديدة

كلية الآداب ــ جامعة عين شمس

خلال العام المـاضى نوقشت عدة رسائل فى التاريخ الاسلامى وفى تاريخ العرب الحديث . بعضها كان للحصـــول على درجة الدكتوراه وبعضها لدرجة الماجستير .

ومن هذه الرسائل اثنتان فى العصور الوسطى لدرجة الدكتوراه وتتعرضان لجزء من تاريخ العراق فى عهد المغول وما حول هذا العهد وهما رسالتا : « الحياة السياسية فى العراق فى عهد المغول » للدكتور محمد صالح القزاز ، و « امارة بنى ارتق » للدكتور عماد الدين خليل عمر . وثالثة لدرجة الماجستير تعنى كذلك بجزء من تاريخ العراق وخاصة الجزيرة وهى « العلاقات السياسية للدولة الحمدانية بالدول الاسلامية المجاورة » تلك الدولة التى قامت فى شمال العراق والشام .

وهناك رســالة رابعة تتعرض « للعلاقات بين الدولة العباسية والأندلس » للأستاذ/عبد الجليل عبد الرضا وأخرى خامسة « للوزارة » للأستاذ/توفيق اليوزبكى الذى عنى بدراسة نظام الوزارة فى العصر العباسى . وكل منهما كذلك يدرس فترة من تاريخ العراق فى العصر الاسلامى الوسيط .

أما فى التاريخ الحديث فقد حصل الدكتور سيد مصطفى سالم والدكتور جاد طه على درجة الدكتوراه فى التاريخ الحديث وكانت رسالة د . سيد سالم الفتـــح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ ــ ١٦٣٥ ورســالة الدكتور جاد طه هى : سياسة بريطانية فى جنوب الجزيره العربية ١٧٩٩ ــ ١٩١٨ وهناك محاولة تجرى حاليا لدراسة تاريخ عدن الحديث من زاوية جديدة هى دورها فى السياسة البريطانية فى البحر الأحمر وشرق افريقية ويقوم بهذه الدراسة الأستاذ/فاروق اباظة الذى كان قد حصل على درجة الماجستير فى « تاريخ اليمن من ١٨٧٢ ــ ١٩١٣ . والجدير بالذكر أن الدكتور سيد سالم كان قد درس تكوين اليمن الحديث » . وهى فترة الامام يحيى منذ عدة سنوات . وبذلك يكون تاريخ الجنوب اليمنى وعدن قد غطى معظمه تقريبا .

د . عبد العزيز سليمان نوار

اسم صاحب الرسالة : **احمد محمد محمد عدوان**
الأستاذ المشرف : **د . حسن حبشي**
عنوان الرسالة : **العلاقات السياسية للدولة الحمدانية بالدول الاسلامية المجاورة**
الكلية : **الآداب بجامعة عين شمس**
الدرجة : **جيد جدا ١٩٦٨**

يرجع الحمد انيون فى نسبهم الى أصل عربى صريح هو قبيلة تغلب العربية ــ التى هاجرت كغيرها من القبائل العربية الأخرى ــ من موطنها الأصلى فى شبه الجزيرة العربية واستقرت فى شمال الشام والعراق ، حيث استطاعت أن تتغلب على بقية القبائل المجاوره .

ولقد عاصر الحمدانيون افول نجم الخلافة العباسية وضعفها وتفككها الى دويلات مستقلة ، فاستغلوا الفرصة وحاولوا الاستقلال فى منطقة الموصل بزعامة حمدان بن حمدون ــ جد الامراء الحمدانين ــ الا أنه وقع أسيرا فى قبضة الخلافة ، التى استعانت باولاده فيما بعد ، وتمكنوا من اخماد كثير من الفتن التى أقضت مضجع الخلافة مثل حركات القرامطة والخوارج والأكراد ، .

وهكذا يبدو أن دور أولاد حمدان قد اختلف عن دور والدهم ، ولقد قدر لعبد الله بن حمدان أن يكون الأشهر بين اخوته فانجب الحسن (ناصر الدولة) وعلى (سيف الدولة) فكانت على يدهم عظمة الاسرة الحمدانية ، حيث تولى الحسن على ما كان بيد والده فحاول الاستقلال بالموصل عن الخلافة ونجح فى ذلك واستبد بها ، فاثار عليه هذا الموقف حقد الخليفة فى بغداد الذى وجد نفسه عاجزا عن القضاء عليه ، ولكن رغم هذا فان الحسن وقف أحيانا الى جانب الخليفة يسانده ضد اعدائه ولا سيما البريدين الذين حاولوا طرد الخليفة من بغداد .

الا أن دخول البويهين الى بغداد سنة ٣٣٤ قد غير سياسة الحسن وبدأ لصراع بين العنصر العربى الحمدانى والفارسى البويهى ، ولم يتمكن الحسن من المحافظة على استقلاله فبات تابعا للبويهيين يدفع لهم الضريبة ، وانتهى الصراع بسقوط الموصل فى يد البويهيين سنة ٣٦٩ ، الا أن أخاه سيف استطاع

أن يحافظ على استقلاله فى حلب فتغلب على الأخشيديين ولم تتدخل الخلافة فى شئونه الداخلية ، فمكنه من الوقوف فى وجه الروم فحطم حملاتهم التى كان الهدف من ورائها اعادة هيبة الامبراطورية التى حطمتها الخلافة العربية وسارت حربه معهم على مراحل ، مرحلة الهجوم ومرحلة الدفاع ثم مرحلة الهزيمة وتفوق البيزنطيين .

ولم تمض فترة طويلة على موت سيف الدولة . حتى أخذ المشرق العربى يتأرجح بين القوه السياسية الموجوده فيه ، فظهر الفاطميون كقوه رئيسه احتلت مصر سنة ٣٥٨ وتطلعت لاحتلال الشام فوقعت فى صراع مع الحمدانين والقرامطه، ثم مع القبائل العربية والخلافة العباسية وانتهى هذا الصراع الدامى بتفوق الفاطمين رغم ما حاوله الروم من منع امتداد النفوذ الفاطمى الى الشام ، وسقطت حلب فى يد الفاطميين سنة ٤٠٦ وكانت آخر معقل للحمدانيين فى بلاد الشام والعراق .

اسم صاحب الرسالة : **عبد الجليل عبد الرضا**
الأستاذ المشرف : **د . حسن حبشى**
عنوان الرسالة : **العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس (ق٢ ـ ق٣ هـ)**
الكلية : **الآداب بجامعة عين شمس**
الدرجة : **جيد جدا (١٩٦٨)**

تتناول هذه الرسالة مسألة العلاقات السياسية بين الأندلس والدولة العباسية ومحاولات الأخيرة استعادة هذا القطر الى حظيرتها وفشل هذه المحاولات .

وقد تضمنت خمسة فصول :

الفصل الأول : دراسة مختصرة لأهم المصادر التى اعتمد عليها البحث ، القديمة منها والحديثة ، مع دراسة لمعنى كلمة تاريخ وكيفية جمع المواد التاريخية ثم موقف الباحثين ، سواء المسلمين منهم والأجانب من تراث العرب التاريخى فى الأندلس واهتمام الباحثين المتأخر بهذا التراث .

أما الفصل الثانى فقد تضمن ثلاثة أقسام :

(ا) محاولات الولاة الذين تولوا حكم الأندلس بعد الفتح مواصلة الفتوحات فى أوروبا وخصوصا فى فرنسا وأهم المعارك التى جرت كمعركة تور بواتيه والعوامل التى أدت الى فشل الفتوحات وانحصار الحدود الاسلامية الشمالية واستيلاء الفرنجة عليها .

(ب) الصراع بين الولاة على الولاية وما نتج من جراء هذا الصراع والتمسك بالعصبية القبلية من نتائج سيئة على وضع المسلمين فى الأندلس وتفكك وحدتهم وبالتالى ضياع بعض المناطق مما مهد لضياع الأندلس كلها من أيدى المسلمين .

(جـ) العلاقة بين البربر وعرب المشرق الذين وفدوا على الأندلس بعد الفتح والتى اتسمت منذ أيامها الأولى بالتناحر والصراع والتى أدت بالتالى الى نشوب حرب أهلية طاحنة بين هذين العنصرين وتأثير ذلك على مركز المسلمين فى شبه الجزيرة الأسبانية .

وتناول الفصل الثالث : كيفية هرب عبد الرحمن الداخل ودخوله الأندلس واستيلائه على الحكم وانشائه الأمارة الأموية ثم محاولات الدولة العباسية استعادة هذا القطر وفشل هذه المحاولات ، ثم العوامل التى أدت الى هذا الفشل ، وبالتالى سيطرة الداخل على الأندلس وقمعه الثورات المتتالية .

أما الفصل الرابع : اشتمل على دراسة — بصورة مختصرة — للعلاقات السياسية بين الدول البيزنطية والفرنجة من جهة ، وبين الأندلس والعباسيين وهى العلاقات التى تنجت عن العلاقات السيئة وغير الودية بين الدولتين الاسلاميتين . فنشأت المحاور السياسية بين أهم أربع دول فى ذلك العصر كما حدث بين بيزنطة والأندلس ضد العباسيين الذين اتسمت علاقاتهم بالبيزنطيين بالعداء والفرنجة المجاورين للأندلس ومحاولاتهم استرداد الأندلس من أيدى المسلمين .

وفى الفصل الخامس : تناول العوامل التى أدت الى ضعف الدولة العباسية وتدهورها وفى مقابلها كانت دولة الأمويين فى الأندلس تسير نحو القوة والمجد مما تنج عن هذه الحالة اعلان الناصر الخلافة واستقلاله نهائيا عن الدولة العباسية واعلان نفسه حاكما وخليفة للمسلمين — حسب اعتقاده — بعد أن تدهور مركز الخلفاء العباسيين فى بغداد وضياع سلطتهم ونفوذهم وتسلط الأعاجم على الحكم.

اسم صاحب الرسالة : **سلطان اليوزبكى**
الأستاذ المشرف : **د . حسن حبشى**
عنوان الرسالة : **الوزارة ، نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية**
الكلية : **الآداب بجامعة عين شمس (١٩٦٨)**
الدرجة : **جيد جدا**

يعد منصب الوزارة من أهم مناصب الدولة العباسية بعد الخلافة ، ودراستها تلقى ضوءا على التطور التاريخى لحقبة فى التاريخ الاسلامى . حيث تعتبر نقطة تحول فى نظم الحكم عند المسلمين .

وهذه الرسالة مقسمة الى ستة فصول ، الأول يبحث فى أصل كلمة الوزارة والمعاونة لأن الخليفة يحتاج الى الوزير ليحمل عنه بعض أعباء الدولة . وهى أيضا بمعنى الملجأ لأن الخليفة يلجأ الى رأى الوزير وتدبيره .

أما بداية نشأة الوزارة فقد أثبت هذا البحث اصالتها العربية عند ملوك العرب قبل الاسلام فى الحيرة واليمن والشام كما استعمل عند قدماء المصريين ، ووردت فى القرآن الكريم على لسان موسى وفى حديث محمد رسول الله وفى حديث السقيفة لأبى بكر وكان الصحابة يقومون بمهام الوزراء وان لم يتلقبوا بها ، كما كان الكاتب فى العصر الأموى بمثابة الوزير فى صدر العصر العباسى الأول .

ويتناول الفصل الثانى الوزارة فى العصر العباسى واستخدام الفرس فى الوزارة بسبب تأييدهم العباسيين فى اقامة حكمهم ولمقدرتهم الادارية والكتابية .

وكان للوزير العباسى سلطات واسعة فكان الخلفاء على حذر منهم وينكبونهم اذا خشوا استئثارهم بالحكم كما حدث للبرامكة .

أما الفصل الثالث فتعرض للوزارة فى عصر السيطرة التركية ، واختصاصات الوزير وما لحق الخلفاء والوزراء من اضطهاد وقتل على يد الأتراك وما صاحب ذلك من اضطرابات سياسية وأزمات مالية وحركات انفصالية أضعفت الخلافة وهزت أركانها وعجز الوزراء عن توفر الأحوال لضعف مركزهم ولتسلط الأتراك

على الأحوال وانفصال بعض الولايات والنفقات الكبيرة لتجهيز الجيوش للقضاء على الدولة ومطـالبات الجند بزيادة مرتباتهم بالاضـافة الى محاولة الوزراء الاستحواذ على الأحوال الكثيرة لأنفسهم .

ويبحث الفصــل الرابع فى الفترة التى اســتعادت فيها الوزارة قوتها على يد الخليفة المعتضد ، وتدخل الحريم ورجال الجيش فى اختيــار الوزراء وعزلهم الأمر الذى أدى الى التسابق على تقديم الرشاوى الى الحريم ورجال الجيش . ثم ازداد الموقف ســوءا بظهور منصب أمير أمراء الذى جرد الخليفة والوزراء من سلطاتهم .

أما الفصــل الخامس : فيتعرض للوزارة فى العصر البويهى الذين الغوا منصب الوزير واتخذوا لأنفسهم وزراء ، كما أن البويهيين تأثروا بنظام الوزارة لدى الفاطميين تأثيرا واضحا .

وفى الفصل الســادس : نصوص نظرية الوزارة التى أوردها المــاوردى وأبو يعلى فى أحكامها والدوافع التى جعلتهما يكتبان هذه النظرية ولعل ذلك كان بعض اثبات الحق الشرعى للخليفة العباسى فى اختيار وزيره ولاســتعادة هيبة الخلافة .

اسم صاحب الرسالة : **عماد الدين خليل عمر**
عنوان الرسالة : **امارة بنى أرتق ٤٦٥ ــ ٨١٢ هـ/١٠٧٢ ــ ١٤٠٩ م**
الأستاذ المشرف : **د . حسن حبشى**
الدرجة : **الشرف الأولى ١٩٦٨**

تعد منطقة الجزيرة ــ وتدخل الموصل ضمنها ــ مجالا خصبا للدراسات التى يمكن أن تكشف حقيقة التطورات الكبرى التى وقعت فى العالم الاسلامى عامة والعراق خاصة . وذلك بسبب الموقع الذى تحتله والذى أتاح لها أن تكون منطقة اتصال وتفاعل من مختلف أجزاء العالم الاسلامى والشعوب الأخرى . فضلا عن أنها كانت عرضة لتحركات بشرية كبرى مثل عشائر وسط آسيا ومنهم الديالمة والغز والسلاجقة والمغول والخوارزميين .

وعندما قامت الحروب الصليبية كانت منطقة الجزيرة من أهداف الصليبين بسبب موقعها الاستراتيجى المشرف على ناصيتى العراق والشام وفعلا ظهرت امارة الرها الصليبية فأصبحت الجزيرة وجها لوجه امام مسئولياتها ازاء الوجود الصليبى العدوانى .

وهذه الدراسة تتعرض لامارة اسلامية هى « بنى ارتق » فى الفترة الواقعة بين مطلع الدولة السلجوقية واضمحلال امبراطورية تيمورلنك وظهور امارتى الخروف الأبيض (آق قوينلو) وبذلك تكون هذه الامارة قد عاصرت الخلافتين العباسية والفاطمية والسلاجقه والايوبيين والمماليك والتتر والجلائريين و الصليبيين.

وتعرض المؤلف للظروف التى ادت الى نشأة هذه الامارة الارتقية وتحديد عوامل نموها وسقوطها وعلاقاتها بالدول والامارات التى عاصرتها . وتحليل حضارتها ونظمها المختلفة .

ويعود الفضل فى ظهور الاراتقه الى جدهم ارتق بن اكسك الذى لعب دوراً هاما فى قيام الدولة السلجوقية الأمر الذى أهله للوصول الى المناصب القيادية ووضع نواة لكيان الاراتقه .

وقد تمكن أبناء ارتق من بعده أن يؤسسوا الامارة فى منطقة ديار بكر فى ماردين وفى حصن كيفا . وعندما اسس عماد الدين زنكى امارته فى الموصل وحاول

أن يعيد توحيد الامارات الاسلامية لمجابهة الخطر الصليبى وقف الأراتقة منه موقفا معاديا حفاظا على ممتلكاتهم . الا أن هذا التوتر كاد أن يتلاشى فى عهد ابنه نور الدين وعندما قامت الدولة الايوبية على يد صلاح الدين قدم له الاراتقة المساعدات ضد الصليبيين . ولكن بعد وفاة صلاح الدين دب النزاع بين الأراتقة والايوبيين وعند ظهور التتر خضع لهم الاراتقه . وعندما ضعفت الدولة الايلخانية قطع الاراتقه علاقتهم بهم وارتبطوا بالمماليك . ولكن ظهور تيمورلنك ثم امارتى الخروف الاسود والخروف الابيض سببا فى توجيه ضربات قاصمة للامارة الارتقية حتى سقطت .

ومن حيث الحضارة ، فقد كانت لهذه الامارة شـأو فى المجالات الادارية والاقتصـادية والاجتماعية والثقافية وأصحاب حضـارة متجانسة ضمن وحدة حضارية كبرى فى المنطقة .

اسم صاحب الرسالة : **د د محمد صالح دلود القزاز**
عنوان الرسالة : **الحياة السياسية فى العراق فى عهد المغول**
الأستاذ المشرف : **د . حسن حبشى**
الدرجة : **الشرف الأولى ١٩٦٨**
الكلية : **الآداب بجامعة عين شمس**

لم تحظ فترة الحكم المغولى فى الوطن العربى بالعناية اللازمة . ومن الأمور التى تجعل الدراسة صعبة فى هذه الفترة ضياع معظم الانتاج الفكرى الخاص بهذه الفترة وضعت الحركة الفكرية التى عمت البلاد خلال فترة الاحتلال .

وقد عالجت هذه الرسالة بعض جوانب هذا الغموض الذى احاط بتاريخا العربى فى هذه الفترة التى استغرقت حقبه طويلة ومن ذلك دراسة التكوين السياسى للحكم المغولى الذى اصبح العراق خاضعا له ، مع اهتمام خاص لمعرفة تصيب العراق منه .

والرسالة مقسمة الى خمسة أبواب . عالج المؤلف فى الباب الأول موضوعين رئيسيين أولهما التعريف بالمغول كشعب بدائى يموج فى منطقة صحراوية قاسية وظهور جنكيزخان ودرة فى توحيد قبائله والخروج بها الى لغزو الأراضى المحيطة بتلك الصحراء . ثم تعرضه للبلاد الاسلامية حتى وصوله أطراف الخلافة العباسية ومحاولتهم الوصول الى مصر .

وفى القسم الثامن عرض الموقف فى العالم الاسلامى من هذا الغزو وخاصة الخلافة وأشار الى أثر الانقسام والتفكك فى أضعاف صحوره ثم سقوط بغداد وأثر ذلك على العالم الاسلامى .

وفى الباب الثالث درس نظم الحكم التى أقامها المغول واستعرض النظام السياسى للحكومة الجديدة التى عرفت باسم الالخانية ثم نظامها الادارى الذى جعل المؤلف من العراق نموزجا لبحثه باعتبـــاره أحد ولاياتها ثم تحدث عن نظامها الحربى والمالى .

وفى الباب الثالث بحث سياستها الداخلية وتوسع فى شرح موقف المغول من طرائف الشعب المختلفة فى العراق وتغير سياستهم بالنسبة للمسلمين وعنايتهم بأهل الذمة ومحاولاتهم لاغراء القبائل بالتعاون معها .

وفى الباب الرابع تحدث عن سياستها الخارجية فشرح موقفها من الحكم المملوكى فى الشام ومصر ، وعن محاولتها للتعاون مع اوربا فى تنظيم الحملات الصليبية الجديدة ، بالاضافة الى موقفها مع مغول القبجان ومغول الجنغناى .

وفى الباب الأخير بحت المؤلف نهاية الحكم الايلخانى فى العراق وأشار الى النزاع على العرش وللفتن والعزلة ين الحكام والشعب وأثر وفاة أبى سعيد بلا وريث فى تنازع الأمراء واستقلال كل منهم بما تحتيده من البلاد .

واعتمد المؤلف فى بحثه على المراجع الأساسية قدر الامكان من ذلك اعتماده على المصادر الفارسية المعاصرة مثل الجوينى فى تاريخ جهانكشاى والجوز جانى فى مؤلفيه طبقات ناصرى وتاريخ جنكيز ، ورشيد الدين فى مؤلفه جامع التواريخ المخطوط منه والمطبوع ثم ذيله لابرو وتاريخ وصاف والقزوين حمد الله فى مؤلفيه تاريخ كزيده ونزهة القلوب كما اعتمد على حبيب السير لخوانـده وروض الصفالمير خوند بالاضافة الى مؤلفات فارسية أخرى كذلك بعض التركية مثل تاريخ منجم باشى وشجرة تورك . واعتمد على المدونات الصينية المعاصرة التى ترجمت الى اللغات الافرنجية بالاضافة الى ماكينة كل من دوسون وهورث فى التاريخ المغولى وبرايس عن التاريخ المحمدى والبحوث الأخرى مثـل تاريخ كمبردج للعصور الوسطى .

أما المراجع العربية ذات العلاقة المباشرة فقليلة جدا لعل من أهمها مؤلفات ابن القوطى فى تلخيص مجمع الأداب والحوادث الجامعة الاضافة الى ماتركه ابن الاثير من تصوير للغزو والنسو وابن العبرى .

ومن أهم ما توصل اليه المؤلف .

١ ـ ان الياسا (كقوانيين متقدمة تسبت الى جفكيزخان) ليست سوى العادات والتقاليد التى ســادت المجتمع القبلى قبل ظهوره ، وفضله عليها فقط تنظيمها واعطائها قوة التنفيذ لحماية المجتمع من التفكك .

٢ ــ لم يكن الحكم المغولى الايلخانى اذ خضع العراق له مستقلا بحد ذاته وانما كان تابعا للدولة المغولية الأم التى كان مركزها فى قراقورم اوخان بالق على حدود الصين ، وكان الايلخان غازان أول من انفصل عن طاعته .

٣ ــ اعتنق غازان الاسلام وجعله الديانة الاسلامية الرسمية لحكمه ويبدو ان المصالح السياسية كان لها دخل كبير فى اسلامه واخيه اولجايتو اذ ان الاسلام ليس قولا فقط دون العمل وبعض اعمالهما لم تكن تتفق ومصلحة المسلمين .

٤ ــ لم يتخل المغول بعد اسلامهم عن التمسك باحكام « الياسـا » كلما وجدوا فيها مصلحة لهم .

٥ ــ احتفظ المغول بشخصيتهم المغولية وانعزالهم عن المجتمع الاسلامى حتى بعد اسلامهم ولم يذوبوا فيه الا بعد ان اكلتهم المنازعات وفقدوا سلطانهم السياسى .

٦ ــ لم يحالوا ممارسة العمل الفكرى واقتصروا على مهن الحرب فقط ، لذلك لم ينبغ بينهم عالما فى أى مجال علمى طيلة تسلطهم الى البلاد .

اسم صاحب الرسالة : **السيد جمال مصطفى سالم**
الأستاذ المشرف : **الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم**
عنوان الرسالة : **الفتح العثمانى الأول لليمن ، ١٥٣٨ ــ ١٦٣٥**
الدرجة : **الدكتوراه مع درجة الشرف الأولى**

يعد موضوع « الفتح العثمانى الأول لليمن ، ١٥٣٨ ــ ١٦٣٥ » من أهم الموضوعات فى تاريخ اليمن الحديث والمعاصر لأنه يتناول فترة زمنية تضمنت الجذور الأساسية لهــذا التاريخ ، كما تمخضت عن نتائج هامة أثرت فى تاريخ البلاد حتى أيامنا هذه . كذلك احتاج هذا الموضوع الى معالجة خاصة ، نظرا لطبيعته من ناحية ، ولطبيعة مراجعه من ناحية أخرى . اذ أنه من الموضوعات التى تتصف بأنها موضوعات سياسية ، غير أنه فى نفس الوقت من الموضوعات التى لايمكن معالجتها دون اللجوء الى النواحى الاجتماعية والاقتصــادية التى تساعد على تفسير الأحداث السياسية ، أو بالأحرى التى ترتبط بها فى وحدة متكاملة . ونظرا لطول الفترة التى يعالجها هذا الموضوع من الناحية الزمنية ، فقد رأيت أن أقسمه الى مراحل زمنية قصيرة نسبيا تتضمن كل منها فترة محددة وموضوعا قائما بذاته ، لذلك لم تكن هذه المراحل متساوية من الناحية الزمنية . وترجع أهمية هذا التقسيم الى أنه أتاح الفرصة لتعميق دراسة كل مرحلة على حدة ، مع توضيح جميع نواحيها المختلفة ، وان كان هذا لم يتعارض مع ربط جميع هذه المراحل مع بعضها البعض . ومن ناحية المراجع ، فقد اتضح أثرها بشكل كبير على طبيعة الموضوع ، اذ تميزت هــذه المراجع ــ وعلى رأسها مجموعة المخطوطات التى اعتمدت عليها صفة رئيسية ــ بغزارة مادتها فى بعض النواحى ، وقالها المؤلف فى النواحى الأخرى ، وذلك الى جانب تناقض مادتها مع بعضها البعض ، وتعدد وجهات نظرها ، مع تميز مواقفها . غير أن طبيعة مراجع الرسالة ــ وخاصة الأصلية منها ــ هى التى زادت من أهمية موضوع الدراسة ، وجعلته يتصف بالأصالة .

قسم المؤلف الرسالة الى تمهيد وتســعة فصول . وقد دعت الحاجة الى هذا التمهيد ، وهو بعنوان « اليمن عند بداية القرن السادس عشر الميلادى » حتى أركز به دراســة الطبيعة البشرية فى اليمن ، وأثر هذه النواحى على الحياة

الاجتماعية ، وعلى التطور التاريخى به ، وذلك مع التركيز على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية عند بداية القرن السادس عشر الميلادى حتى تتضح الأوضاع التى واجهت العثمانيين فى اليمن عند مجيئهم اليه . وقد اتضح هنا كيف أثرت ظروف اليمن الطبيعية وخاصة من ناحية التضاريس التى يغلب عليها الطابع الجبلى ، ومن ناحية الموقع الاستراتيجى الهام ، على النواحى البشرية والاجتماعية والاقتصادية فى اليمن ، وقد أكد المؤلف ذلك فى العرض السريع لتطور تاريخ اليمن ، وذلك قبل أن أقف عند دراسة حكم أسرة الطاهريين به وهى التى عاصرت بداية ذلك اقرن .

وقد درس المؤلف فى الفصل الأول ، وهو بعنوان : « الغزو البرتغالى والجهود العربية المضادة ، ١٥١٧ ــ١٥٣٨ » ، العوامل المختلفة التى أدت فيما عد الى فتح العثمانيين لليمن . ولذلك اهتممت بدراسة حركة الكشوف البحرية البرتغالية ونجاحها فى الوصول الى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ونجاح البرتغاليين بالتالى فى تحويل التجارة الشرقية الى هذا الطريق الجديد ، وذلك بعد أن هاجموا السفن والسواحل العربية والاسلامية لتحطيم سيطرة العرب والمسلمين على هذه التجارة . ومن ناحية أخرى تتبعت جهود هؤلاء الأخيرين بما فى ذلك سلاطين اليمن لصد الغزو البرتغالى عن تجارتهم وسواحلهم ، وقد ظهر هنا أن المماليك فى مصر هم الذين تحملوا العبء الأكبر فى الوقوف أمام البرتغاليين ، غير أن جهودهم باءت بالفشل . وقد انتهى الصراع المملوكى البرتغالى الى استيلاء المماليك على ساحل تهامة اليمن لاتخاذه قاعدة أمامية للدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، وللانطلاق منه لمحاربة البرتغاليين فى الهند والمحيط الهندى . وقد انتهت الحرب بين المماليك والطاهريين فى اليمن الى سقوط هذه الأسرة التى كانت آخر الأسر السنية الحاكمة فى اليمن . وقد سقط الحكم المملوكى فى مصر فى نفس الوقت ، ودخلت مصر والشام والحجاز فى حوزة العثمانيين ، فاضرت القوة المملوكية فى اليمن الى الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها .

وتناول المؤلف فى الفصل الثانى تحول السيادة الاسمية للعثمانيين فى اليمن الى سيادة فعلية ، ولذلك سميته « الفتح العثمانى لسواحل اليمن ، ١٥١٧ ــ ١٥٣٨ » . وكان خضوع مصر وبالتالى سواحل البحر الأحمر لسيطرة

العثمانيين قد أدى الى اصطدامهم المباشر بالبرتغاليين ، والى قيام التسابق بينهما من أجل الاستيلاء على المواقع الاستراتيجية فى البحر الأحمر وعلى السواحل العربية الجنوبية أو على ساحل أفريقية الشرقى . وقد أهتم العثمانيون فى الحقيقة بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين فى البحار العربية الجنوبية ، وان كان استعدادهم لهذه المعركة قد تأخر بعض الشىء لانشغالهم فى جهات أخرى متعددة فى أوربا وضد فارس . وقد ظهر اهتمام العثمانيين بمحاربة البرتغاليين فى اعداد حملة سليمان باشا الخادم التى ذهبت الى الهند فى سنة ١٥٣٨ م للقضاء على نفوذهم هناك وعلى احتكارهم للتجارة الشرقية . وقد فشلت تلك الحملة البحرية فى تحقيق غرضها فى الهند ولكنها نجحت فى فتح عدن ، وفى القضاء على قوة المماليك فى زبيد وتهامة ، وفى تدعيم السيطرة العثمانية فى باقى أنحاء البحر الأحمر . وفى هذا الفصل اهتممت بدراسة نشاط البرتغاليين البحرى فى هذه الفترة ، فأوضحت كيف تمكنوا من التوغل الى داخل البحر الأحمر حتى هاجموا جدة ، وكيف نجحوا ، اقامة العلاقات القوية مع الحبشة ، وذلك حتى تتضح حقيقة جهود العثمانيين للوقوف ضد الخطر البرتغالى .

وتناول المؤلف فى الفصل الثالث ، وهو بعنوان « الفتح العثمانى الأول لليمن، ١٥٣٨ ــ ١٥٥٥ م » ، خطوات العثمانيين لبسط سيطرتهم على أقاليم اليمن الداخلية ، ونجاحهم فى ذلك فى عهد أزدمر باشا رابع الولاة العثمانيين فى اليمن . وكن من المتوقع أن يقع الصدام بين العثمانيين والزيدين بزعامة الامام شرف الدين الذى كان قد نجح فى بسط سيطرته على جميع أقاليم اليمن الداخلية ، وذلك أثناء الصدام الذى دار بينه وبين المماليك وبقايا الطاهريين قبل قدوم العثمانيين الى اليمن . ويرجع النجاح الذى حققه العثمانيون فى اليمن حينذاك الى قوتهم العسكرية والى تفكك جبهة الزيدين . وقد برز فى أثناء هذا الصدام شخصية المطهر ابن الامام شرف الدين ، وخاصة بعد أن تمكن من الصمود امام قوات ازدمر باشا أثناء محاصرته لحصن ثلاء ، حتى أجبر العثمانيين على عقد الصلح معه ، واحتفظ بممتلكاته الخاصة مقابل اعترافه بالخضوع للسيطرة العثمانية .

ولم تستقر السيطرة العثمانية فى اليمن طويلا بعد عزل ازدمر باشا ، اذ فقد العثمانيون ممتلكاتهم فى اليمن بما فى ذلك عدن ، ولم يبق بأيديهم سوى « زبيد » وما حولها من الأراضى التهامية .

وقد عالج الفصل الرابع وهو بعنوان « تدهور السيطرة العثمانية ، ١٥٥٦ — ١٥٦٨ » ، العوامل المختلفة التى أدت الى انهيار هذه السيطرة ، والتى كان منها وصول بعض الولاة الضعفاء الفاسدين الى حكم اليمن نتيجة وجود بعض الاضطراب فى نظم الدولة العثمانية وأجهزتها منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) . ومن ناحية أخرى ، كان وجود المطهر على رأس الزيدين من أهم العوامل التى أدت الى سرعة انهيار السيطرة العثمانية حينذاك ، فقد نجح بفضل حنكته السياسية ومهارته الحربية فى جميع الفئات اليمنية حوله ، وفى احراز الانتصارات المتتالية ضد القوات العثمانية حتى توقفت قواته أخيرا أمام صمود العثمانيين فى « زبيد » . وفى هذا الفصل حرصت على ابراز العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة التى كانت تؤدى الى تذمر اليمنيين من الحكم العثمانى وثورتهم عليه .

أما الفصل الخامس فقد تناول فترة قصيرة نسبيا لأن المؤلف ركز الحديث فيه عن أعمال حملة سنان باشا لاستعادة ممتلكات العثمانيين فى اليمن من أيدى الزيديين بزعامة المطهر . ونظرا لأهمية هذه الحملة فى تاريخ اليمن الحديث وأهمية أعمالها ، فقد استعرت تعبير أحد المعاصرين وقتذاك عند حديثه عن هذه الحملة وجعلته عنوانا للفصل وهو « الفتح العثمانى الثانى لليمن ، ١٥٦٩ — ١٥٧١م » . وقد تتبعت فى هذا الفصل خطوات سنان باشا فى اليمن بشىء من التفصيل حتى أبرز العوامل الطبيعية والبشرية التى تساعد اليمنيين على الثورة ، وعلى الوقوف دائما فى وجه السلطة المركزية فى البلاد ، والتى كانت تعوق فى نفس الوقت تقدم الجيوش النظامية فى المناطق اليمنية وخاصة المناطق الشمالية . وأخيرا ، فقد نجح سنان باشا الى حد كبير فى اخضاع اليمن ثانية للسيطرة العثمانية ، رغم اضطرارة الى عقد الصلح مع المطهر ، وبقاء الأخير فى ممتلكاته مع اعترافه الخضوع للسيطرة العثمانية .

وفى الفصل السادس وهو بعنوان « عهد توطيد السيطرة العثمانية فى اليمن ، ١٥٧١ — ١٦٠٧ م » عرض المؤلف أعمال الولاة السياسية والحربية لاكمال أعمال حملة سنان باشا فى اليمن ، حتى تم للعثمانيين توطيد سيطرتهم الى حد كبير

(١٦)

به ، وخاصة فى عهد آخر ولاة هذه الفترة حسن باشا الذى امتدت ولايته الى خمسة وعشرون عاما . وقد ظهر فى هذا الفصل أهمية العامل السياسى فى تثبيت أقدام العثمانيين فى اليمن ، فالى جانب اعتماد العثمانيين على قوتهم العسكرية ، فقد لجأ هؤلاء الولاة الى الأساليب السياسية المختلفة لنشر العدل ولتقريب الأهالى اليهم . كذلك كانت وفاة المطهر الى جانب تنازع أبنائه فيما بينهم من أهم العوامل التى أدت الى نجاح العثمانيين فى توطيد سيطرتهم فى تلك الفترة . غير أن هذا النجاح لايعنى استقرار الأحوال تماما فى اليمن حينذاك ، اذ استمر قيام الثورات فى أقاليم اليمن المختلفة نظرا لضعف الأحوال الاقتصادية بها ، أو لشدة وطأة العثمانيين عليها ، مما كان يجبر العثمانيين على ارسال الحملات تلك الأقاليم لاخماد الثورات بها .

وقد أشار المؤلف فى نهاية هذا اشارة سريعة الى بداية ثورة القاسم ونجاح حسن باشا فى اخمادها مؤقتا نظرا لقوة قبضة العثمانيين على زمام الأمور فى اليمن ، وذلك لأنى فصلت الحديث عن هذه الثورة فى فصل خاص هو الفصل السابع وعنوانه « ثورة امام القاسم وخروج العثمانيين من اليمن ، ١٥٩٧ — ١٦٣٥م » . وقد تناولت فى هذا الفصل اسباب ثورة الامام القاسم من حيث شدة وطأة الحكم العثمانى على اليمنيين ، وفساد بعض الولاة والعمال والجنود ، وازدياد قوة الامامة الزيدية وقدرتها على جميع الأهالى حولها ، كما تناولت من ناحية أخرى ماحل هذه الثورة فى أثناء حياة الامام القاسم ، ثم فى حياة ابنه الامام المؤيد وذلك حتى تم خروج العثمانيين من اليمن فى عام ١٦٣٥ م . وقد اتضح هنا كيف أدى اضطراب شئون الدولة العثمانية فى ذلك الوقت الى انشغالها عن اليمن ، والى اهمال ارسال النجدات الى ولاتهم به ، بل والى الانصراف عن استعادته حينذاك عندما خرج من أيديهم . كذلك اتضح هنا أيضا أن حروب الامام القاسم ضد العثمانيين هى التى أكدت سيطرة الزيدين فى اليمن ، وأن هذا هو الذى ساعدهم على تولى زمام الأمور فى البلاد بعد خروج العثمانيين منها ، وان كان هذا لاكان هذا لاينفى دور أسرة الامام شرف الدين — وعلى رأسهم المطهر — فى توحيد السيطرة الزيدية فى اليمن .

أما الفصل الثامن وهو بعنوان « النشاط العثمانى فى البحار العربية الجنوبية ، ١٥٣٨ — ١٦٣٥ م » فقد تحدث المؤلف عن جهود العثمانيين البحرية أثناء وجودهم

فى اليمن ضد البرتغاليين ، فأوضح كيف نجحوا فى حماية سواحل البحر الأحمر ، وفى منع البرتغاليين من التغول الى داخله . وكان البرتغاليون قد استطاعوا فى سنة ١٥٤١ م الوصول الى الطور استعداد المهاجمة الأسطول العثمانى فى السويس ، فدفع هذا العثمانيين على زيادة قوتهم البحرية فى البحر الأحمر ، وعلى تقوية سيطرتهم فى اليمن . وفى نفس الوقت حاول العثمانيون تطهير السواحل العربية الجنوبية من الخليج العربى من الجنوب البرتغالية المتناثرة بها ، فأرسلوا حملة بحرية الى هذه السواحل ولكنها لم تستطيع أن تحقق نجاحا هاما . غير أن نجاح العثمانيين البحرى كان قد تأكد فى جنوبى البحر الأحمر ، اذ منعوا البرتغاليين من دخوله ، كما قطعوا طرق الاتصال بين البرتغاليين وحلفائهم الأحباس مما قض على آمالهم فى التعاون لغزو العالم العربى ومهاجمة الحرمين الشريفين . وقد اتضح ضعف السيطرة البحرية فى البحار العربية الجنوبية تبعا لضعف البرية العثمانية العامة فى البحر المتوسط ، فاقتصر نشاطهم البحرى على مناطق محدودة أمام السواحل اليمنية والسواحل الأفريقية القريبة منها . ولقد كان ضعف البحرية البرتغالية آنذاك من العوامل الهامة التى ساعدت العثمانيين على عدم التمسك بالبقاء فى اليمن عندما أجبرهم اليمنيون على الخروج منه .

أما الفصل التاسع والأخير ، وهو بعنوان « اليمن تحت الحكم العثمانى ، ١٥٣٨ — ١٦٣٥ » فهو مخصص لدراسة الأوضاع الادارية والاقتصادية والاجتماعية فى اليمن أثناء الحكم العثمانى له . وقد تعرضت للنواحى الايجابية والنواحى السلبية فى حكم العثمانيين لليمن حتى تتضح الجوانب المختلفة للحياة هناك فى ذلك الوقت . وقد ربطت فى هذا الفصل بين نظم الحكم فى اليمن ونظم الحكم فى الدولة العثمانية العامة ، وذلك اعتبار أن اليمن كان ولاية عثمانية حينذاك ، فساعد هذا على ابراز الخصائص المحلية لليمن ، التى جعلته يتميز بوضعه الخاص فى داخل الامبراطورية العثمانية .

وأخيرا فقد حرصت على وضع ثلاثة ملاحق فى نهاية الرسالة ، أولها قائمة بأسماء السلاطين الذين عاصروا الفتح العثمانى الأول لليمن ، وثانيها قائمة بأسماء الولاة الذين حكموا اليمن فى تلك الفترة ومدد حكمهم ، وثالثها قائمة بأسماء أهم الأئمة الزيديين الذين ظهروا آنذاك . كذلك حرصت على كتابة بعض الملاحظات الخاصة بمراجع الرسالة حتى أشير الى بعض نواحى أهميبها .

الموضـــوع : **سياسة بريطانيا فى جنوب الجزيرة العربية ١٧٩٨ – ١٩١٨**
اسم الباحث : **جاد محمد طه محمود**
اسم المشرف : **الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم**
نوع الدرجة : **الدكتوراه بمرتبة الشرف الثانية**

تتناول هذه الرسالة تاريخ منطقة جنوب الجزيرة العربية منذ قدوم الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ الى انسحاب الأتراك من اليمن فى عام ١٩١٨ . ولهذه الفترة أهميتها البالغة فى تاريخ منطقة جنوب اليمن بوجه عام .

فقد اتخذ الأمر فى بدايته شكل تنافس دولى بين فرنسا وانجلترا ، فعندما رمى بونابرت – ابان احتلاله لمصر – ببصره الى الهند ، قام الانجليز بالاستيلاء على جزيرة بريم فى مدخل البحر الأحمر حتى يوقفوا تهديده المباشر للهند .

واذا كانت هزيمة الفرنسيين البحرية فى أبى قير قد ابعدتهم عن منافسة الانجليز فى جنوب اليمن ، فقد بزغت منافسة أخرى شديدة هذه المرة ، فقد واجه الانجليز خطر التوسع المصرى فى تلك المنطقة ، مما أدى بهم الى الاستيلاء على عدن سنة ١٨٣٩ .

وانتهزت بريطـانيا فرصـة الأزمة المصرية التركية ١٨٣٩/١٨٤١ واجبرت والى مصر على الانسحاب من جميع الأراضى التى استولى عليها . ثم بدأت بريطانيا تؤمن عدن – ذلك البناء الاستراتيجى بين الشرق والغرب – فعقدت معاهدات للصداقة مع سلاطين وامراء وشيوخ المنطقة .

وقد انطبع الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى جنوب اليمن بطابع المنافسة البريطانية العثمانية ، وقام الانجليز – فى محاولة منهم لتدعيم نفوذهم – بعقد معاهدات الحماية مع امارات الجنوب وذلك لمواجهة تغليل الأتراك فى المنطقة . وعندما اشتدت المنافسة التركية البريطانية ، حاول الطرفان وضع خط للحدود بين منطـقتى النفوذ البريطـانية والعثمانية ، الى أن تم عقد اتفاقية الحدود سنة ١٩١٤ .

وكان من نتائج الحرب العالمية الأولى هزيمة الأتراك وانسحابهم من اليمن . وبدأ انفراد الانجليز بالسيطرة على جنوب اليمن . الا أن هذه السيطرة البريطانية على جنوب اليمن تعرضت بعد اندلاع الثورة اليمنية فى سنة ١٩٦٢ للمقاومة العربية المسلحة التى انفجرت فى ردفان سنة ١٩٦٣ ، وقد أمكن لهذه الثورة الوطنية المسلحة أن تقيم جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية على انقاض استعمار دام نحو مائة وتسعة وعشرين عاما .